الولد الأسود

تأليف: ريتشارد رايت

ترجمة: السيدة نماضر توفيق

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

دار المعارف بمصر

حصريات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com

الولد الأسود

قصة طفولة وشباب

ريتشارد رايت

الولد الأسود

قصة طفولة وشباب

ترجمة

تماضر توفيق

دار المعارف بمصر

** شرفتي ** www.ibtesama.com منتديات مجلة الابتسامة

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

إلى

« إلين » و « جوليا »

اللتين تعيشان دائمًا فى قلبى

مقدمة

منذ أكثر من خمسة وثمانين عاماً ، قال « أوليفر وندل هولمز » قولا يدل على النبل :

« إن من السهل أن نقضى على روح الإنسان ، أو أن نصلى من أجل إنقاذها ، ولكن ليس من السهل أن نتحمل اللوم من أجل أننا تركنا نفساً بشرية تنمو وسط الخراب والإهمال. وقد أدرك القانون الإنجليزى فى القرن الثامن عشر أن الجريمة ليست بالضرورة خطيئة ، لأن حدود مسئوليات البشر لم تدرس دراسة كافية » .

ولو كان دكتور هولمز يعيش بيننا اليوم لحق له أن يفخر — كما أفخر أنا — بالفرحة التى سنحت لنا للفت نظر الأذكياء المثقفين من الأمريكيين إلى قصة الطفولة الزنجية المعذبة البائسة ، والشباب الزنجى الضائع ، كما يرويها المؤلف الأمريكى الموهوب ريتشارد رايت .

(إرلينجتون — فيرمونت) دروثى كانفيلد فيشر

الفصل الأول

فى صباح أحد أيام الشتاء ، منذ أعوام طويلة ، وأنا فى الرابعة من عمرى ، كنت أقف أمام المدفأة أدفئ يدى على كومة الفحم المشتعلة ، وأنصت إلى صوت الرياح خارج البيت . وكانت أمى قد أمضت الصباح كله تعنفنى وتوبخنى وتطلب منى ألا أحدث أى إزعاج ، بل أن أظل ساكناً ساكتاً .

وكنت أنا أشعر بالحنق والضيق والحزن ، فقد كانت جدتى ترقد مريضة فى الغرفة المجاورة ، وكان الطبيب يعودها ليلا ونهاراً ، وكنت أعلم تماماً أنى سأعاقب إذا لم أستمع إلى نصائح أمى .

وعبرت الغرفة إلى النافذة وأزحت الستائر البيضاء ، وكانت أمى قد حذرتنى من لمسها ، ونظرت برغبة شديدة إلى الشارع الخالى أمامى . كنت أحلم بالهرب والجرى والصياح ، ولكن وجه جدتى العجوز الأبيض المتجعد ، تحف به هالة من الشعر الأسود المنسدل ، وهى ترقد على وسادة الريش ، كان يخيفنى .

وكان السكون يسود المنزل وخلفى كان يجلس أخى الذى يصغرنى بعام واحد يلعب على أرض الغرفة بإحدى لعبه . ومر عصفور بسرعة أمام النافذة ، فصحت فيه بمرح .

وقال أخى : لا ترفع صوتك .

وقلت له : اصمت أنت .

ودخلت أمى بسرعة إلى الغرفة وأغلقت بابها وراءها ، واندفعت تجاهى رافعة أصبعها محذرة فى وجهى ، وقالت هامسة :

ـ كف عن هذا الصياح ، هل تسمع ؟ . . . أنت تعلم أن جدتك مريضة ويحسن بك ألا تحدث صوتاً .

وأطرقت برأسى متذمراً ، وغادرت هى الغرفة ، وملأنى أنا الملل .

أما أخى فقد قال بشماتة : لقد حذرتك .

ـ اصمت أنت .

وأخذت أدور فى الغرفة بلا هدف ، أفكر ماذا أفعل ، وأخاف من عودة أمى ، وأضيق بالإهمال الذى أعامل به . ولم يكن بالغرفة ما يجذب الانتباه سوى المدفأة . ووقفت أمامها أتأمل الفحم والنار تأكله وتترك جذواتها محترقة . وطافت بذهنى فكرة لعبة جديدة ؛ لماذا لا ألقى إلى النار ببعض الأشياء وأرقبها وهى تحترق ؟

ونظرت حولى ولم أعثر إلا على كتاب الصور الخاص بى. ولكن أمى ستضربنى إذا قذفت به إلى النار ، ماذا إذاً ؟ وجالت عيناى حولى ؛ فلمحت المكنسة داخل دولاب الحائط . آه ، هذا ما أبغى ، من سيفكر فى بعض عيدان القش إذا قمت أنا بإلقائها إلى النار ، وشاهدتها وهى

تدخن ، ثم يتحول لونها إلى اللون الأسود، ثم تشتعل، ثم تصبح رماداً أبيض وتتلاشى ؟

وطابت لى الفكرة فأخذت أنزع بعض العيدان من المكنسة وألقى بها إلى النار. وانتقل شقيقى إلى جوارى وقد جذبه منظر النار ، وقال : لا تفعل هذا .

— لماذا ؟

— لأنك ستحرق المكنسة كلها .

— اسكت .

— سأقول لأمى .

— وأنا سأضربك .

وكانت الفكرة تشتعل فى ذهنى ، وسرحت فى منظر الستائر البيضاء وقد أشعلت بعض عيدان القش وقربتها منها ؛ كيف سيكون منظرها ؟ وماذا لو حاولت ؟ . . . بالطبع سأحاول . ونزعت بعض عيدان القش من المكنسة وقربتها من النار إلى أن اشتعلت ، وأسرعت إلى النافذة وقربت النار من أطراف الستائر. وهز أخى رأسه . وقال : « كلا، لا تفعل هذا » .

ولكن كلامه جاء متأخراً، فقد شبت النار فى الستائر وأخذت تحدث فيها دوائر حمراء ، واندلع اللهب ، وذعرت ، وتراجعت ، وارتفعت ألسنة النار إلى السقف ، وارتجفت من الذعر . وفجأة أحاطت النيران

الصفراء بالغرفة كغلالة ، وكنت أشعر بالرعب ، وأردت الصياح ولكنى كنت خائفاً ، ونظرت حولى أبحث عن أخى ، ولكنه لم يكن بالغرفة ، وكانت النيران قد أتت على نصف الغرفة تقريباً ، وكنت أضيق من الدخان ، وأحسست باللهب يلذعنى فى وجهى .

وأسرعت إلى المطبخ ، ورأيت الدخان قد وصل إلى هناك أيضاً . ستصل رائحته إلى أمى ، وسترى النار ، وستأتى لتضربنى ، فقد أتيت خطأ لم يكن فى وسعى إخفاؤه أو إنكاره . إذاً لا بد أن أهرب ولا أعود إلى المنزل ثانية أبداً . وأسرعت خارج المطبخ ، إلى الفناء الخلفى للمنزل . . . إلى أين الفرار ؟ نعم ، تحت المنزل ، لن يجدنى أحد هناك .

وزحفت تحت المنزل ، واختبأت بين كومة من الحجارة ، ورقدت ساكناً كالكرة . يجب ألا تعثر على أمى ، وإلا ستجلدنى لما فعلت . لقد كانت المسألة كلها حادثة ، لم يكن يدور بخاطرى أن أشعل النار فى المنزل . كل ما كنت أريده هو رؤية الستائر وهى تحترق . لم يدر بخاطرى أيضاً أننى فى هذه اللحظة بالذات أختبئ تحت منزل يحترق .

وسمعت أصوات أقدام تتحرك فوقى ، ثم سمعت صياحاً ، ثم صوت عربة المطافئ ووقع حوافر الخيول . كانت كلها تأتى من ناحية الشارع . إذاً هناك حريق فعلا ، حريق كالذى شاهدته فى يوم من الأيام يقضى على أحد المنازل ، ولا يبقى منه سوى المدخنة تقف سوداء وسط الخراب .

وتملكنى الرعب . واهتز المنزل فوقى . وارتفعت أصوات الصرخات .

ومرت أمامى صورة جدتى ترقد لا حول لها ولا قوة على السرير وقد أمسكت النيران الصفراء بشعرها . هل وصلت النيران إلى أمى أيضًا يا ترى ، وإلى أخى ؟ لماذا لم أفكر فى كل هذا قبل أن أشعل النار فى الستائر ؟ وتمنيت لو أنى اختفيت عن الوجود ، ولو أن الحياة توقفت فى جسدى .

وزاد الهرج والمرج فوقى وبدأت أبكى ، وبدا لى أن مرت على دهور وأنا مختبئ فى مكانى هذا . ولما توقفت الأصوات ، شعرت بالوحدة ، والعزلة عن الحياة ومن فيها ، وسمعت أصواتًا قريبة منى وارتجفت .

جاء صوت أمى وهى تصيح فى لهفة وهلع : « ريتشارد » . . . ورأيت رجليها ، وطرف ثوبها يتحرك نحو الفناء الخارجى .

وكان نحيبها ينطق بالحزن والأسى لدرجة أخافتنى من العقاب الذى سينزل بى ، ثم رأيت وجهها المتقلص ينظر تحت المنزل . لقد عثرت على . وحبست أنفاسى وانتظرت أمرها لى بالخروج ، ولكن وجهها ابتعد ، إنها لم ترنى وأنا قابع بالقرب من المدخنة . وأمسكت برأسى بين يدى واصطكت أسنانى .

وصاحت منادية إياى : « ريتشارد » . . .

وكانت اللوعة التى استشففتها فى صوتها لاذعة ومؤلمة كالكرباج حين ينزل على لحمى .

واستطردت : « ريتشارد ، المنزل يحترق ، اعثروا على طفلى » .

نعم لقد كان المنزل يحترق ، ولكنى عقدت العزم على ألا أغادر مكانى ،

ذلك المكان الآمن . ورأيت وجهاً آخر ينظر تحت المنزل ، ولكنه كان وجه أبى . ولا بد أن عينيه اعتادتا الظلام لأنه ما لبث أن صاح قائلا : « ها هوذا » .

ـ وصحت أنا : كلا ، كلا .

ـ تعال هنا يا ولد .

ـ كلا .

ـ البيت يحترق .

ـ دعونى وحدى .

وزحف أبى تحت المنزل صوبى وأمسك بإحدى رجلى ، وتشبثت أنا بالمدخنة بكل قوتى ، وجذب أبى رجلى ، وزدت أنا تمسكاً بقاعدة المدخنة .

ـ اخرج من عندك أيها الأبله الصغير .

ـ دعنى وشأنى !

وكان الجذب شديداً على رجلى ، وتركت أصابعى المدخنة ، وانتهى الأمر ؛ لقد هزمت ، ولم يعد يهمنى شىء ، فقد تصورت ما ينتظرنى ، وجرنى أبى إلى الفناء الخارجى ، وبمجرد أن تركت يده جسمى أخذت أنا أعدو وأجرى بسرعة ، محاولا تجنب الناس الواقفين حولى ، واتجهت صوب الشارع ، ولكنهم أمسكوا بى قبل أن أقطع عشر خطوات .

ومن هذه اللحظة لم أعد أفهم شيئاً ، وكل ما أمكننى معرفته بين العويل

والنحيب ، أن أحداً من أهل المنزل لم يمت نتيجة للحريق ، فقد تمكن أخى برغم ذعره أن يحذر أمى فى الوقت المناسب ، ولكن بعد أن قضى الحريق على نصف ما بالمنزل من أثاث . وتمكن أبى وجدى من نقل جدتى من غرفتها مستخدمين المرتبة كنقالة ، ونقلاها إلى الأمان فى منزل أحد الجيران. وظن الجميع – بسبب غيابى واختفائى – أنى هلكت فى أتون النار .

وتمتمت أمى : « لقد أخفتنا حتى الموت » ، وأخذت تنزع بعض أغصان الأشجار لتستخدمها فى ضربى .

وأخذت علقة لن أنساها مدى الحياة ، وانهال على الضرب حتى أغمى على . وعندما أفقت وجدت نفسى على سريرى ، أصرخ وأصيح . إنى أريد الهرب ، وأقاتل مع أبى وأمى اللذين كانا يحاولان إبقائى حيث أنا ، وغلفتنى غلالة من الخوف ، واستدعى أحد الأطباء – كما أخبرونى فيما بعد – ونصح ببقائى فى السرير ، وأن أتمتع بالهدوء ، لأن حياتى تتوقف على هذا .

وكنت أشعر بالنار تلذعنى فى جسمى ، ولم أستطع النوم ، وأخذوا يضعون الثلج على جبهتى ورأسى بسبب الحمى التى انتابتنى ، وكلما غفوت رأيت أمامى زكائب بيضاء منتفخة مثل ثدى البقرة متدلية من السقف ، وبعد ذلك رأيت سائلا ينزل منها ، وكنت أتوسل لأبى وأمى ليل نهار أن يزيحوا تلك الزكائب من أمامى ، والتى كنت أشير إليها وأنا أرتجف .

ولكن أحداً غيرى لم يكن يراها . وأخيراً كان الخدر يتسلل إلى جسدى ،

فأستغرق فى النوم من فرط الإرهاق . . . فأعود إلى الصياح من جديد إلى أن أفيق تماماً . . . فقد كنت خائفاً من النوم . وأخيراً تكفل الزمن بخلاصى من الزكائب الخطرة . ولم ألبث أن شفيت ولكنى ظللت لفترة طويلة تطاردنى فكرة أن أمى أوشكت على القضاء علىّ .

وكانت كل حادثة تتحدث بلسان غير فصيح ، ولكن لحظات الحياة تكشف عن طلاسمها .

كان هناك الإحساس بالدهشة حين شاهدت ــ لأول مرة ــ قطيعاً من الخيول البرية ــ المرقطة باللونين الأبيض والأسود ــ تخب على الطريق المترب وسط زوبعة من الغبار .

وكان هناك إحساس الغبطة الذى استولى على حين شاهدت خطوطاً مستقيمة طويلة من الخضراوات الحمراء والخضراء تمتد تحت الشمس حتى الأفق المثير .

وكانت هناك قبلة شهوانية خفيفة مرطبة حين نزل الندى على وجنتى وذقنى ، وأنا أركض على طول ممرات الحديقة الخضراء المبتلة فى الصباح المبكر .

وكان هناك الإحساس الغامض باللانهائية وأنا أرنو ببصرى إلى المياه الصفراء الحالمة ، مياه نهر « المسيسبى » وهو يسيل من تلال ناتشيز .

وكان هناك أصداء الحنين إلى الوطن صادرة من رتل من الإوز البرية

ترفرف بأجنحتها صوب الجنوب ، مخترقة سماء الخريف القارسة البرودة .

وكان هناك الإحساس بالحزن والانقباض حين تصيب خياشيمى رائحة احتراق أخشاب الغابة .

وكانت هناك الرغبة المثيرة المستحيلة فى تقليد كبرياء العصافير وهى تتمرغ فى تراب الطرق الريفية الأحمر .

وكانت هناك اللهفة على التعريف بنفسى ، الذى أثار فى نفسى رؤيتى لنملة وحيدة تحمل حملا ثقيلا وتقطع به رحلة غامضة .

وكان هناك الاستياء الذى ملأنى وأنا أعذب جرادة بحر بنفسجية رفيقة اختبأت خائفة داخل علبة صدئة من الصفيح ملوثة بالطين .

وكان هناك الإحساس بالجلال المؤلم فى كتل من السحب تتوهج باللونين الذهبى والقرمزى أمام الشمس المتوارية .

وكان هناك الإنذار الواضح الذى شاهدته فى شعاع الشمس الخابية ينعكس على النوافذ المستطيلة فى البيوت النظيفة اللامعة .

وكانت هناك اللوعة التى هاجمتنى حين سمعت أوراق الأشجار الخضراء تصطك بعضها ببعض ، فيصدر منها صوت أشبه بصوت هطول المطر .

وكان هناك السر الغامض مجسداً فى حشرة صغيرة بيضاء وهى تحتمى فى الظل القاتم أسفل كتلة متآكلة من الحطب .

وكانت هناك تجربة الإحساس بالموت ــ دون أن أموت حقيقة ــ الذى انتابنى وأنا أراقب دجاجة تقفز وتتخبط بعد أن فصل أبى عنقها بسرعة بثنية سريعة من قبضته .

وكانت هناك الفكاهة العظيمة التى أحسست أن الله قد لعبها على القطط والكلاب ، إذ جعلها تلعق اللبن والماء بألسنتها .

وكان هناك الإحساس بالظمأ وأنا أرقب العصير العذب الشفاف يتقاطر من عيدان القصب المعصورة .

وكان هناك الفزع الطاغى الذى تجمع فى حلقى ثم سرى مع دمائى ، حين شاهدت ــ للمرة الأولى ــ الثعبان الأزرق الكسول وقد التف حول نفسه وأغفى فى الشمس .

وكان هناك الذهول المطبق حين رأيت خنزيراً مطعوناً فى قلبه ، وقد غمس فى الماء المغلى وبقر بطنه ، ونزعت أحشاؤه ، ثم عاق على الخطاف فاغر الفم تنزف منه الدماء .

وكان هناك الحب الذى اضطرم فى صدرى عند رؤيتى كتل أشجار البلوط الطويلة منتصبة فى جلال وعظمة .

وكانت هناك لمحة من قسوة الطبيعة التى أحسست بها وأنا أتطلع إلى أخشاب كوخ صغير وقد التوت بفعل شمس الصيف الساخنة .

وكان هناك اللعاب الذى تجمع فى فمى كلما سرت إلى خياشيمى رائحة الطَّفل وقد عجنه المطر .

وكان هناك الإحساس المختلط بالجوع حين كنت أتنفس أريج الحشائش التى نزعت لتوها .

وكان هناك الرعب الخفيف الذى عذّب حواسى ، حين كان يهطل مطر ذهبى كثيف من السماء المرصعة بالنجوم إلى الأرض فى الليالى الساكنة .

وفى يوم من الأيام أبلغتنى أمى أننا ذاهبون إلى ممفيس فى سفينة اسمها (كيت أدامز) ، وشعرت بالسعادة والترقب لمدة أيام قبل موعد الرحلة . وكنت أدعو الله كل ليلة أن يكون اليوم التالى هو اليوم الموعود . . . يوم الرحلة.

وسألت أمى : ما حجم هذه السفينة ؟

وأجابت : إنها فى حجم الجبل .

— هل لها صافرة ؟

— نعم .

— وهل يسمع صوت هذه الصافرة ؟

— نعم .

— متى ؟

— عند ما يأمر قبطان السفينة .

— ولماذا يسمون السفينة «كيت أدامز» ؟

— لأن هذا اسمها .

— وما لون هذه السفينة ؟ .

— أبيض .

— وكم من الوقت سنقضى على هذه السفينة ؟

— يوماً كاملا وليلة كاملة .

— وهل سننام على السفينة ؟

— نعم ، عند ما نحس بالنعاس سننام ، والآن كفى .

وأخذت الأحلام تراودنى ليالى طويلة ، أحلام سفينة بيضاء تمخر الماء ، وكم كانت صدمتى عند ما أخذتنى أمى إلى المرفأ يوم الرحلة ورأيت قارباً صغيراً قذراً ، لم يكن يشبه من بعيد أو قريب سفينة أحلامى ، ولما حان موعد الإقلاع بكيت ، وظنت أمى أنى لا أريد الذهاب معها إلى ممفيس ، ولم أستطع أن أخبرها عن سبب بكائى . ولم أشعر بالهدوء والرضا إلا عند ما أخذت أمشى فى السفينة وأرى الزنوج يشربون الوسكى ويلعبون النرد والورق ، ويجلسون على الصناديق الفارغة ، يأكلون ويتحدثون ويغنون . وأخذنى أبى إلى أسفل السفينة فى غرفة الآلات ، وقد سعدت جداً برؤيتها تعمل ووقفت أراقبها لمدة ساعات .

وفى ممفيس أقمنا فى منزل يتكون من طابق واحد ، مبنى من الطوب ، وكنت أطيل النظر إلى العمارات الشاهقة وإطارات الشوارع المرصوفة بالأسفلت ، فأراها كئيبة ، وأتخيلها تناصبنى العداء ، وكانت المدينة خالية من الحدائق والخضرة فبدت لى كأنها مجردة من الحياة . وكان منزلنا يتكون

من غرفة واحدة أقمنا فيها نحن الأربعة : أمى وأبى وأخى وأنا ، ومطبخ . وأمام المنزل وخلفه كان هناك فناءان مبلطان كنا نلعب أنا وأخى فيهما ، ولكننى ظللت أياماً طويلة قبل أن أستجمع شجاعتى لأخرج وألعب فى شوارع المدينة وحدى .

وفى هذا المنزل أخذت شخصية أبى تتضح لى لأول مرة ، فأخذت أهتم بها . وكان أبى يعمل بواباً ليلياً فى أحد محال شارع بيل ، وكان يبدو لى مخيفاً مرعباً لأنى لم أكن أستطيع أن أصيح أو أحدث صوتاً طالما كان هو فى المنزل ، أو كان نائماً خلال ساعات النهار ، وكان هو المسيطر واضع القانون فى مجتمعنا ، ولا أذكر أنى ضحكت أمامه مرة واحدة ، بل كنت أختبئ فى المطبخ ، وأنظر إلى جسمه الكبير بخوف واحترام ، وهو يجلس إلى المائدة يحتسى البيرة ويملأ معدته بالطعام . وكان أبى غريباً بالنسبة لى ، وبعيداً عنى .

وذات صباح حينما كنت ألعب مع أخى فى الفناء الخلفى عثرنا على وقطة ضالة ، فأخذناها وأعطيناها طعاماً وماء ، ولكنها لم تكف عن المواء . ظهر أبى مرتدياً ملابسه الداخلية ، والنعاس يملأ عينيه ، وطلب منا الهدوء ، ولما أخبرناه أن القطة هى التى تحدث الأصوات طلب منا إبعادها وحاولنا نحن ذلك ، ولكن القطة رفضت الابتعاد ، وصاح هو فيها ، ولكنها لم تهتم ، بل أخذت تتمسح فينا وتحدث مواء متواصلا ، كأنها تشكو لنا منه .

وانفجر أبى قائلا : اقتلوا هذه الملعونة . . . افعلوا أى شىء لإبعادها من هنا .

ودخل إلى المنزل وهو يزمجر ، واستأت من زمجرته ، وضايقنى أننى لم أكن قادراً على إشعاره باستيائى ورحت أسأل نفسى : كيف أستطيع أن أرد إليه اللطمة ؟ . أوه ، أجل . لقد أمرنى أن أقتل القطة وسأقتلها . . . كنت أدرك أنه لم يكن يعنى أن أقتل القطة حقًّا ، ولكن كراهيتى الشديدة له حفزتنى على أن أنفذ طلبه حرفيًّا .

وقلت لأخى : لقد طلب منا أن نقتل القطة .

— ولكنه لا يعنى هذا .

— لقد طلب منا ذلك وسأطيعه .

— عندئذ سيشتد صياحها .

— لا يمكنها الصياح إذا ما قتلتها .

وعارضنى أخى قائلا : إنه لم يطلب منا قتلها .

— بل طلب منا ذلك ، وقد سمعته أنت .

وجرى أخى مذعوراً ، وعثرت على حبل ، وربطته على شكل أنشوطة ووضعتها حول رقبة القطة . ثم علقت الحبل على مسمار ، وشددت الحبل فارتفعت القطة عن الأرض ، وشهقت ، ثم دارت حول نفسها ، وراحت تضرب الهواء بمخالبها دون جدوى ، وأخيراً انفتح فمها ، وتدلى لسانها

الأحمر ، وأسرعت لأعثر على أخى ، ووجدته قانعًا وراء ركن البناء .

وقلت له هامسًا : لقد قتلتها .

ـ لقد أتيت أمراً سيئًا .

ـ الآن يستطيع بابا أن ينام .

وكنت أشعر بالرضا وأنا أقول ذلك ، وقال أخى : إنه لم يقصد أن تقتلها .

وسألته : لماذا طلب منى ذلك إذاً ؟ .

ولم يجد أخى إجابة على سؤالى هذا ، بل نظر بخوف إلى القطة المتدلية وحذرنى قائلا :

ـ لن تتركك هذه القطة .

ـ إنها لا تستطيع حتى التنفس الآن .

وقال أخى : سأخبر والدى بما فعلت . . .

وجرى إلى داخل المنزل وانتظرت ، وقد عقدت العزم على أن أدافع عن نفسى بترديد ما قاله أبى لى . وكنت أشعر بالسعادة لأنى كنت أعلم أنه قال ما قال فى لحظة غضب ، وأسرعت أمى نحوى وهى تجفف يديها فى مرولتها ، ووقفت أمام القطة وقد شحت وجهها ، وقالت : ماذا فعلت بحق السماء ؟ .

ـ لقد كانت تحدث صوتًا مزعجًا ، فطلب منى بابا أن أقتلها .

ـ أيها المعتوه الصغير ، سيضربك أبوك لما فعلت .

** معرفتى ** www.ibtesama.com منتديات مجلة الابتسامة

– ولكنه طلب منى أن أقتلها .

– اقفل فمك .

وأخذتنى من يدى وجرتنى إلى حيث يوجد أبى ، وأخبرته بما فعلت .

وصاح أبى : كان يجب أن تفهم ما أعنيه .

– لقد طلبت منى أن أقتلها .

– لقد طلبت منك أن تبعدها .

– بل لقد طلبت منى أن أقتلها .

وكان صوتى وأنا أقول هذا مؤكداً مليئًا بالثقة .

– اغرب عن بصرى قبل أن أضربك .

وكان صوت أبى مشوبًا بالاحتقار والاشمئزاز ، واستدار فى سريره لينام .

لقد كان ذلك أول انتصار لى على أبى ، وجعلته يصدق أنى أطعته طاعة عمياء ، ولن يستطيع عقابى الآن دون أن يعرض سلطته للخطر . وكنت سعيداً لأنى عثرت على طريق لتوجيه اللوم والنقد إليه ، وجعلته يحس بأنه لو عاقبنى على هذا الحادث فلن ألقى بالاً إلى كلمة واحدة يقولها لى بعد ذلك ، وأفهمته أنى أكره قسوته . فعلت كل ذلك دون أن أتعرض لعقاب ما .

أما أمى ، وكانت أكثر حساسية وخيالا ، فقد ردت على بأن هاجمت إحساسى ، وأفهمتنى خطئى فى ارتكاب جريمة قتل ، وظلت طوال اليوم

توجه إلى كلمات منمقة ، كانت تثير فى ذهنى أشباحاً ومخاوف ، وصوراً للانتقام والقصاص منى لما فعلت ، وزاد قلقى عند ما اقترب الليل ، وخفت أن أدخل الغرفة الخاوية وحدى .

وقالت أمى : إن عليك ديناً لن تستطيع سداده .

وتمتمت : أنا آسف .

— إن الأسف لن يعيد الحياة إلى القطة .

وقبل أن أدخل الغرفة لأنام طلبت منى طلباً شل حركتى تماماً ، طلبت منى أن أخرج فى الظلام وأحفر قبراً أدفن القطة فيه .

وصحت قائلا : « كلا » ، لأنى كنت أشعر أننى إذا خرجت فستخطفنى روح شريرة وتحملنى بعيداً .

— اخرج وادفن القطة المسكينة .

— أنا خائف .

— ألم تكن القطة خائفة وأنت تضع الحبل حول عنقها ؟

— ولكنها ليست سوى قطة !

— ولكنها كانت حية . هل فى استطاعتك إعادة الحياة إليها ؟

— ولكن أبى طلب منى أن أقتلها .

وكنت بهذا أحاول أن أزيح المسئولية الأدبية إلى كتفى أبى . . .

وضربتنى أمى بكف يدها على فمى قائلة :

ـ كف عن الكذب . كنت تعلم تماماً أنه لا يعنى ذلك .

وخرجت إلى الظلام ، وأنا أبكى ، ورجلاى ترتجفان ولا تقويان على حملى . وبرغم أنى كنت واثقاً أنى قتلت القطة ، إلا أن كلمات أبى جعلتنى أراها حية أمامى . ماذا ستفعل بى هذه القطة إذا لمستها ؟ هل ستنشب مخالبها فى عينى ؟ وتحسَّست طريقى صوب القطة وأمى واقفة ترقبنى فى الظلام .

وتوسلت إليها : أرجوك يا أمى أن تقفى بجوارى .

وجاء صوتها مهدداً مخيفاً :

ـ إنك لم تقف بجانب القطة ، فلماذا أقف أنا بجانبك .

فقلت لها متوسلا :

ـ لا أستطيع أن ألمسها .

وشعرت أن القطة تحدق فىَّ بعينين مليئتين باللوم والتأنيب .

وأمرتنى أمى قائلة : فكها .

وأمسكت بالحبل وأنا أرتجف ، وسقطت القطة على الأرض محدثة صوتاً ظل يتردد فى ذهنى لعدة أيام وليال بعد ذلك . وأخذت ، إطاعة لأوامر أمى ، أبحث عن مكان لأحفر فيه ، وعند ما حملت القطة ، سرت قشعريرة قاسية فى جسمى ، وما كدت أنتهى من دفنها ، حتى تنفست الصعداء ، وأخذت أعود أدراجى إلى المنزل ، ولكن أمى أمسكت بيدى ، وقادتنى ثانية إلى قبر القطة ، وقالت : أقفل عينيك وأعد ورائى .

وأغلقت عينى ، وازداد تشبثى بأمى .

– يا إلهى العزيز ، يا أبانا ، اغفر لى ، فلم أكن أعلم ما أفعل .

وقلت خلفها : يا إلهى العزيز ، يا أبانا ، اغفر لى ، فلم أكن أعلم ما أفعل .

– وأنقذ حياتى ، برغم أنى لم أحاول أنا إنقاذ حياة القطة المسكينة .

– ولا تأخذ أنفاسى وأنا نائم الليلة .

وفتحت فمى ، ولكن لم يخرج منه أى صوت ، فقد تجمد ذهنى رعبًا وتخيلت نفسى وأنا أجاهد فى نومى ثم أموت .

وجريت بعيداً عن أمى فى الظلام الدامس ، وأنا أهز رأسى قائلا :

– كلا .

ونادتنى أمى عدة مرات ، ولكنى لم أطعها .

وأخيراً قالت :

– حسنًا ، أحسب أنك تلقيت درسًا .

أما أنا فقد أويت إلى فراشى وأنا أدعو الله ألا أرى قطة ثانية طيلة حياتى .

وتسلل الجوع إلى ببطء شديد ، حتى إننى لم أدرك – فى بادئ الأمر – معنى الجوع .

كنت أشعر بالجوع وأنا ألعب أحيانًا ، ولكن شعورى به هذه

المرة أنه يقف بجوار سريرى وينظر إلى من عل ، ولم يكن الجوع الذى شعرت به قبل ذلك يتمثل فى شكل غريب كريه الشكل ، بل كان جوعاً عادياً ، دعانى فى كثير من الأحيان أن أتوسل للحصول على قطعة خبز ، كنت أقضم منها قضمة أو اثنتين فأشعر بالشبع . ولكن هذا الجوع الجديد أذهلنى ، وأخافنى ، وأغضبنى . وكنت كلما توسلت إلى أمى أن تعطينى قطعة من الخبز ، أعطتنى بدلا منها كوباً من الشاى ، يخفف قليلا من صراخ معدتى ، ولكنها ما تفتأ تعاود الصراخ بعد قليل ، ويحز الجوع ضلوعى ويلوى أمعائى الخاوية حتى أشعر بألم ، ودوخة ، ويهتز بصرى . وبطؤت حركتى فى اللعب ، ولأول مرة فى حياتى توقفت لأفكر فيما يحدث لى .

وشكوت لأمى ذات يوم قائلا : إنى جائع يا أمى .

وحاولت أمى أن تنسينى الجوع فطلبت منى أن أذهب للعب ، وللبحث عن شىء خيالى .

وشعرت أنها تغيظنى ، وزاد ذلك من غضبى .

وقلت : ولكنى جوعان وأريد أن آكل .

— عليك أن تنتظر .

— ولكن أريد أن آكل الآن .

— لا يوجد ما يؤكل .

— لماذا ؟

– لأنه لا يوجد .

– ولكنى أريد أن آكل :

– وأخذت أبكى .

– عليك بالانتظار .

– ولماذا ؟

– إلى أن يرسل الله طعاماً .

– ومتى سيرسل الله طعاماً ؟

– لا أعلم .

– ولكنى جائع .

وكانت أمى تكوى بعض الملابس ، ونظرت إلى والدموع تملأ عينيها ، وسألتنى :

– أين أبوك ؟

ونظرت إليها فى ذهول . حقًّا لم يحضر أبى للنوم فى المنزل منذ عدة أيام ، وكنت قادراً على إثارة أى قدر من الضوضاء ، كما يحلو لى ، وبرغم أنى لم أكن أعلم سبب غيابه ، إلا أنى كنت أشعر بالسرور لغيابه ، ولكن لم يخطر لى أبداً أن معنى غيابه أن لا يكون فى المنزل طعام .

وأجبتها قائلا : لا أعلم .

وسألتنى أمى : من يجلب الطعام إلى المنزل ؟

– أبى . كان دائمًا يجلب الطعام .

ـ حسنًا . إن أباك ليس هنا الآن .

ـ وأين هو ؟

ـ لا أعلم .

وقلت وأنا أنشج : ولكنى جائع . وضربت بقدمى على الأرض .

وقالت أمى : انتظر حتى أحصل على عمل ، وأشترى لك طعامًا .

ومرت الأيام وارتبطت صورة أبى بنوبات الجوع التى تهاجمنى ، وكنت كلما شعرت بالجوع فكرت فيه بمرارة شديدة ، مرارة جسمانية .

وأخيراً عثرت أمى على عمل كطاهية ، وتركتنى أنا وأخى وحدنا فى الشقة ، وليس لدينا سوى رغيف من الخبز ، وإناء من الشاى . وكانت تعود فى المساء منهكة متعبة وتظل تبكى طويلا . وفى بعض الأحيان كانت تشعر باليأس لدرجة أنها كانت تدعونا وتظل تحدثنا لساعات طويلة ، وتخبرنا أننا الآن بلا أب ، وأن حياتنا ستختلف عن حياة الأولاد الآخرين ، وأنه ينبغى علينا أن ندرك من الآن أن مسئولية حياتنا تقع على عاتقنا وحدنا ، فيجب أن نرتدى ملابسنا وحدنا وأن نتولى إعداد طعامنا ، وأن نعنى بالشقة أثناء غيابها فى عملها . وكنا نعدها بكل هذا والخوف يملؤنا ؛ فلم نكن نفهم ما حدث بينها وبين أبينا ، وكل ما كان لهذه الأحاديث من أثر علينا كان الخوف ، ولم نكن حتى نفهم سبب هذا الخوف . وكنا كلما سألناها عن أبينا ومقره أجابت بأننا ما زلنا أصغر من أن نفهم ما حدث .

وفى أحد الليالى أبلغتنى أمى أن من واجبى أن أقوم بالمشتريات ، من طعام ولوازم ، وأخذتنى إلى المحل الذى يقع على ناصية الشارع . وشعرت أنا بالزهو ، فقد أحسست أنى كبرت فى السن . وفى اليوم التالى حملت السلة على كتفى وتوجهت إلى الدكان . وعندما وصلت إلى الناصية أمسك بى بعض الصبية وضربونى واختطفوا السلة والنقود منى . وعدت أجرى إلى المنزل فى ذعر .

وفى المساء أخبرت أمى بما حدث ، ولكنها لم تبد أى تعليق ، بل جلست وأعطتنى نقوداً وأرسلتنى ثانية إلى محل البقالة . ولما رأيت الأولاد واقفين أمام الباب عدت إلى المنزل أجرى .

وسألتنى أمى : ما الخبر ؟ .

وقلت : إن الأولاد الذين ضربونى بالحارج .

وأجابت : يجب أن تتغلب على خوفك هذا . واذهب الآن .

وقلت : ولكنى خائف ! .

وقالت : اذهب ولا تعرهم أى التفات .

وخرجت من المنزل وسرت فى خطوات سريعة إلى الناصية ، وأنا أدعو الله أن يتركنى الأولاد وشأنى ، ولكن ما إن شاهدونى حتى قال أحدهم :

ــ ها هو ذا .

وانقضوا علىَّ ، وأسرعت أنا أجرى نحو المنزل ، ولكنهم لحقوا بى

وألقوا بى على الرصيف ، وصحت وصرخت بأعلى صوتى . وأخذت أضرب بيدى ورجلى فى الهواء ،ولكنهم تمكنوا فى النهاية من انتزاع النقود منى ، ثم جرونى واقفًا ، وصفعونى على وجهى ، وأرسلوا بى إلى المنزل ثانية ، وقابلتنى أمى عند الباب .

وشهقت أقول : لقد ضربونى ، وأخذوا النقود .

وأسرعت أصعد الدرج لأحتمى بالمنزل ، ولكن أمى قالت محذرة :

ـ إياك أن تأتى هنا !

وتسمرت فى مكانى ونظرت إليها ، وقلت : ولكنهم يتبعونى .

وقالت فى صوت مخيف : قف حيث أنت ، سأعلمك الليلة كيف تدافع عن نفسك .

ودخلت إلى المنزل وعادت ، بعد أن أخذت منى الدهشة كل مأخذ ، وكان معها بعض النقود وورقة أخرى ، كما كان معها عصا ثقيلة .

وقالت : خذ النقود والورقة والعصا واذهب إلى البقال واشتر طلباتنا ، وإذا ضايقك هؤلاء الأولاد فقاتلهم .

ودهشت أن أمى تطلب منى أن أقاتل ، تطلب منى أمراً لم يسبق لها أن طلبته من قبل .

وقلت : ولكنى خائف .

وقالت : لا تعد ثانية إلى هذا المنزل إلا ومعك المشتريات .

وقلت : سيضربوننى ، سيضربوننى .

ـ إذن ابق فى الشوارع ، ولا تعد إلى هنا !

وأسرعت إلى أعلى السلم أحاول أن أدخل المنزل ، ولكنى لم أشعر إلا ويدها تصفعنى على وجهى ، فوقفت أبكى .

وتوسلت إليها : أمهلينى إلى الغد ، أرجوك .

وقالت : كلا ، اذهب الآن ، وإذا عدت دون المشتريات فسأضربك بالكرباج .

وأقفلت الباب فى وجهى ، وسمعت المفتاح يدور فى القفل ، ورحت أرتجف فقد كنت وحيداً فى هذه الشوارع المظلمة ، وفى أثرى جماعة من المتشردين . ولم يكن أمامى سوى طريقين ، إما أن أضرب فى الشارع ، وإما أن أضرب فى المنزل . . . وأمسكت بالعصا وأنا أبكى ، وأحاول أن أجد معنى لهذا الموقف . إذا ضربتنى أمى فليس هناك ما أستطيع أن أفعله ، أما إذا ضربنى الأولاد فأمامى الفرصة للقتال والدفاع عن نفسى . وسرت ببطء والخوف يملؤنى . ولما اقتربت من الأولاد أمسكت بالعصا بقوة . وحبس الخوف أنفاسى ، واقتربت منهم .

وسمعتهم يصيحون : ها هو ذا ثانية .

وأحاطوا بى بسرعة ، وأخذوا يحاولون اقتناص ما بيدى .

وهددتهم قائلا : سأقتلكم .

وأطبقوا علىّ ووجدت العصا دون وعى منى تنزل على رأس أحدهم ، ثم الثانى ، ثم الثالث . وأدركت أنى لو توقفت ثانية واحدة فستكون هى

القاضية ، فأخذت أنزل بالعصا دون توقف، محاولاً أن أوقفهم عند حدهم ، أن أقضى عليهم تماماً حتى لا يستطيع واحد منهم أن يهاجمنى ثانية . وضربت والدموع تملأ عينى ، وأسنانى مطبقة على بعضها ، والخوف يدفع كل ضربة من ضرباتى ، ويوجه العصا فى يدى ، وأخذت أضرب وأضرب بعد أن ألقيت بالنقود والورقة . وانفض الأولاد من حولى يصرخون ويضمدون جراحهم وينظرون إلىّ دون تصديق . فلم يروا مثل هذا العنف ، ووقفت ألهث وأستفزهم ، ولكنهم رفضوا ، فجريت خلفهم ، فجروا هلعين إلى منازلهم يصرخون، وخرج آباؤهم يهددوننى : ولأول مرة فى حياتى صرخت فى وجه الكبار ، وقلت لهم إنى سأضربهم هم أيضاً إذا ما حاولوا مضايقتى . وعثرت على قائمة المشتريات والنقود وذهبت إلى محل البقالة . وفى طريق عودتى حملت العصا على أهبة الضرب ، ولكنى لم أشهد ولداً واحداً فى الشارع . ومن هذه الليلة تفتحت أمامى شوارع ممفيس وأصبح لى حق التنقل فيها .

وصباح أيام الصيف ، وأمى فى عملها ، كنت أذهب مع مجموعة من الأطفال الملونين — الذين تركهم آباؤهم وأمهاتهم إلى أعمالهم — إلى أسفل التل ، فننظر جميعاً إلى المنازل المبعثرة على جوانبه ، ونسترق النظر إلى الرجال والنساء الذين يقطنون فيها . ونظل هكذا نضحك ونهمس ونتعرف على كل واحد وواحدة منهم ، وذلك بمراقبة أشكالهم وميزاتهم الجسمانية . وإذا ما رآنا أحدهم ، طردنا وهو ينعتنا بكل النعوت القاسية .

وكان الأطفال فى الثانية والثالثة يزحفون من منازلهم وقد تلطخت وجوههم وشاعت منهم رائحة نتنة . وأخيراً طلب السكان من البوليس أن يبعث بأحد أفراده ليراقب المنازل ، وانتهت تسليتنا فى هذه الناحية .

وكانت أمى كثيراً ما تصحبنى أنا وأخى معها إلى عملها حتى تجنبنا الشقاوة . وكنا نقف فى المطبخ نرقبها وهى تنتقل بين الوابور وحوض الغسيل، وبين الموائد المختلفة ، وكنت أنا أحس بالزهو وأنا أقف فى مطبخ البيض ، فقد كان هذا يعنى أننا سنحظى بفتات الخبز واللحم . ولكن كثيراً ما كنت أتأسف على حضورنا ؛ لأن رائحة الطعام كانت تخترق خياشيمى ، وكنت أعلم أن هذا الطعام ليس لنا ، وأننا محرومون من تناوله . وفى المساء كانت أمى تحمل الأطباق إلى صالة الطعام حيث يجلس الزبائن البيض ، وكنت أنا أقف بجوار الباب لأحظى بنظرة — ولو عابرة — إلى وجوههم البيضاء ، وهم جالسون حول الموائد يأكلون ويضحكون ويتحدثون . وكنا نحظى ببعض بقايا الطعام إذا ما تركوا بعضها ، أما إذا أتوا على الطعام كله ، فكان نصيبى أنا وأخى الخبز والشاى فقط .

وكنت وأنا أرقبهم أشعر بالمرارة وبالألم يحز فى معدتى الخاوية . وكنت أسائل نفسى غاضباً : « لماذا لا يمكننى أنا أن آكل مثلما يأكلون ، كلما شعرت بالجوع ؟ لماذا ينبغى على الانتظار حتى يفرغوا هم من طعامهم ؟ ولم أستطع أن أفهم السبب الذى يجعل بعض الناس ينالون كل ما يبغون من طعام فى حين لا يجد آخرون ما يسد رمقهم .

واعتدت أن أتجول فى الحى فى ساعات النهار ، وأمى منهمكة فى عملها ، وكان يوجد بالقرب من مقر عملها حانة كنت ألعب أمامها طيلة النهار . وكلما نظرت إلى داخل الحانة ، تعجبت وازدادت دهشتى وأحسست ببعض الخوف . وكنت أتسول البنسات من الداخلين والخارجين ، وأسترق النظر إلى الزبائن وهم يمرحون ويضحكون . وإذا ما طاردنى الجرسون كنت أجرى متتبعاً السكارى الذين يخرجون من الحانة ، محاولا أن أفهم تمتماتهم المبهمة ، وألوح بيدى لهم وأعاكسهم وأسخر منهم . وكان أجمل منظر شاهدته حينئذ منظر امرأة مخمورة ، لم تتمالك نفسها فى الشارع وبللت جواربها وفستانها . وكنت أقف أتفرج على السكارى وهم يتقيأون ويأتون أعمالا غريبة . ولما علمت أمى بنشاطى هذا ضربتنى ، ولكن ضربها هذا لم يمنعنى من الذهاب إلى الحانة والنظر إلى ما يجرى بداخلها وخارجها .

وفى يوم من أيام الصيف — وكنت فى السادسة من عمرى — أمسك بى رجل ملون وأنا أنظر داخل الحانة ، فأخذنى من يدى وجرنى إلى داخلها . ولذعت رائحة الخمر خياشيمى ، وصرخت وحاولت التخلص من قبضته ؛ فقد شعرت بالخوف من نظرات الموجودين ، ولكنه رفض أن يطلق سراحى ، بل رفعنى وأجلسنى على البار ، ووضع قبعته على رأسى وطلب لى مشروباً ، وانفجر السكارى ضاحكين مهللين ، وأصر أحدهم أن يضع سيجارة بين شفتى ، ولكنى مانعت فى ذلك .

وسألنى أحد الرجال : ما شعورك وأنت تجلس هنا كالكبار ؟ .

واستطرد آخر : دعوه يسكر ، وعندئذ سيكف عن مراقبتنا .

وقال ثالث : فلنشتر له بعض المشروبات .

ونظرت حولى وأخذ الخوف يتركنى ، ووضع أحدهم كأساً من الويسكى أمامى .

وقال آخر : اشرب يا ولد .

وهززت رأسى رافضًا ، ولكن الرجل الذى جرنى إلى داخل الحانة أمرنى أن أشرب قائلا إن المشروب لن يضرنى ، ولكنى رفضت .

وقال : اشربه فسيجعلك تحس بالسعادة .

وأخذت رشفة وسعلت ، وضحك الرجال والنساء ، وتجمع الزبائن حولى محاولين إرغامى على الشراب ، وأخذت رشفة ثانية ، ثم ثالثة : وأخذ رأسى يدور ، وضحكت ، وأنزلونى من على البار ، وخرجت أجرى وأضحك وأصيح . وكنت كلما مررت بكوب به شراب أخذت منه رشفة ، وبعد قليل أخذت منى الخمر كل مأخذ .

وناداني واحد منهم وهمس ببعض الكلمات فى أذنى وطلب منى أن أنقلها إلى إحدى السيدات الموجودات ووعدنى بعشرة سنتات لقاء ذلك ، فوعدته بأن أنفذ طلبه وأعطانى السنتات العشرة وأسرعت أنا إلى المرأة ، وصحت فى وجهها بالكلمات ، وضج المكان بالضحك .

وصاح أحدهم : لا تلقنه مثل هذه الأشياء .

وقال آخر : إنه لا يفهم معناها .

ومن تلك اللحظة احترفت هذه المهنة ، كلما أراد أحدهم أن يقول شيئاً أعطانى عشرة سنتات وطلب منى أن أكرر أقواله ، وظللت أقوم بهذه اللعبة والخمر تملأ رأسى ، وأنا أضحك وأجرى بين الموائد ، وأتقاضى أجرى عن كل ما أفعل . وكانت الكلمات الغريبة تهزنى برغم أنى لم أكن أفهم معناها .

وأخيراً صاح رجل : دعوا هذا الولد وحده .

وأجابه ثان : لن يؤذيه ذلك .

وقالت امرأة : يا للعار! .

وصاح آخر فى وجهى : عد إلى منزلك يا ولد .

وفى المساء تركونى أخرج ، ورحت أتخبط خارج الحانة وأنا مخمور أكرر الكلمات التى سمعتها ، والنساء ينظرن إلى برعب ، والرجال العائدون إلى منازلهم يضحكون من أعماقهم ويسخرون مما أقول .

وأصبحت هذه المهنة تأخذ على عقلى . وكانت أمى ترانى على هذه الحال فتضربنى وتأخذنى إلى المنزل . وفى الصباح بمجرد أن تذهب هى إلى عملها ، أذهب أنا إلى الحانة وأنتظر حتى يصحبنى أحد رواده إلى الداخل ويطلب لى مشروباً . واحتجت أمى باكية لدى صاحب الحانة الذى أمرنى بالابتعاد عن حانته ، ولكن رواد الحانة رفضوا أن يتنازلوا عنى ،

فكانوا يشترون لى الزجاجات ويعطونى الشراب خارج الحانة حتى أردد ما يقولون من نداءات !

وأصبحت سكيراً وأنا فى السادسة من عمرى ، قبل ان أدخل المدرسة . وكنت أتجول فى الشوارع مع عصابة من الأولاد ، أتسول على المقاهى وفى الطرقات ، وأبتعد شيئاً فشيئاً عن منزلى ، ورأيت كثيراً مما لم أفهمه ، وسمعت كثيراً مما لم أتذكره . وأصبح معنى الحياة عندى هو التسول لأشترى خمراً . وحزنت أمى لحالتى هذه وبكت كثيراً ، وضربتنى مراراً ، وأخيراً لجأت إلى الصلاة ، والتوسل إلى الله أن يصلح من حالى . ولكن كل هذا لم يؤثر فىّ قيد أنملة . وأخيراً اضطرت أن تعهد بى ومعى أختى إلى امرأة عجوز كانت تراقبنى فى كل دقيقة لتمنعنى من الخروج وتسول بنسات أشترى بها ويسكى . وأخيراً زايلتنى الرغبة فى الشراب ونسيت حتى مذاقه .

وكان أطفال الحى يتوقفون وهم عائدون من مدارسهم للعب ، وكثيراً ما كانوا يتركون كتبهم على الأرصفة ، فكنت أجلس أقلب فيها ، وأسألهم عن الكلمات المطبوعة بالحبر الأسود . ولما فهمت معنى بعضها طلبت من أمى أن تبعث بى إلى المدرسة لأنى كنت أريد أن أقرأ وأتعلم ؛ وشجعتنى أمى ، وأصبحت أقلب الكتب كل يوم ، وتعلمت بعض الكلمات وأحسست بالرغبة فى المعرفة ، معرفة كل ما يدور حولى ، وكنت أجلس أسأل أمى عند عودتها من عملها عما قرأت فى الكتب ، حتى إنها ضاقت بى وكانت ترفض محادثتى .

وصباح يوم من الأيام أيقظتنى أمى قائلة إنه لا يوجد بالمنزل فحم ، ولذا فهى ستصحب أخى إلى عملها . أما أنا فعلىّ أن أنتظر لأتسلم الفحم عندما يأتى . وتركت لى بعض النقود لأدفع بها ثمن الفحم الذى طلبته . وعدت أنا ثانية إلى النوم ، وأيقظنى صوت جرس الباب . وفتحت الباب وأدخلت الرجل الذى أحضر الفحم إلى المنزل ، وأعطيته النقود والرسالة التى تركتها أمى . ووضع هو الفحم فى مكانه ، ثم لاحظت أنه لم يخرج لحال سبيله ، بل بدأ يتلكأ ويسألنى :

— هل تشعر بالبرد ؟

وقلت وأنا ارتجف : نعم .

وأشعل هو ناراً وجلس يدخن ، وسألنى : هل لك فكة عندى ؟

وأجبت : لا أعلم .

وقال : يا للعار ، ألا تعلم كيف تحسب النقود ؟

— كلا يا سيدى .

وقال : اسمع وعد ورائى .

وأخذ يعد حتى العشرة . وكنت أستمع إليه ، ثم طلب منى أن أعد أنا وحدى ففعلت ، ثم جعلنى أتذكر الكلمات عشرين وثلاثين وأربعين . . . إلخ . وبعد ساعة كنت قد تعلمت أن أعد حتى المائة . وكان سرورى بهذا بالغًا .

وبعد أن رحل أخذت أرقص فرحًا ، وأقفز على السرير ، وأنا أعد

مرة وثانية وثالثة ، خائفاً أن تضيع الكلمات من ذاكرتى ، وجعلت أكرر الأرقام بلا توقف . وعند ما عادت أمى من عملها فى المساء أصررت أن أعيد على مسامعها ما تعلمت . وذهلت هى ، وبعد ذلك وافقت على أن تعلمنى هى القراءة ، وأخذت تقص على بعض القصص ، وفى أيام الآحاد كنت أقرأ الصحف وأمى ترشدنى وتوضح لى كتابة بعض الكلمات .

وضاقت أمى بأسئلتى التى لا تنتهى ، وضاق بى الناس جميعاً ، فقد كنت لا أكف عن السؤال . وأصبح كل ما يحدث فى الحى من اختصاصى ، مهما كان تافهاً . وفى هذه الآونة فقط بدأت أفهم العلاقة بين البيض والزنوج . وذعرت لما اكتشفت .

وبرغم أنى كنت أعلم أن هناك — أناساً يلقبون بالبيض ، إلا أنهم لم يكونوا فى نظرى سوى بشر ، ولم يحملوا لى أى معنى عاطفى . وكنت أراهم آلاف المرات فى الشوارع ، ولكنهم لم يبدوا لى بيضاً بالمعنى الخاص ، وكل ما كنت أشعر به تجاههم أنهم يبدون فى مظهر مختلف بعض الشىء عمن اعتدت الاختلاط بهم . ولكن لم يسبق لى أن تعاملت مع أحدهم . والواقع أنى لم أعطهم أى جزء من تفكيرى ، فكانوا بالنسبة لى موجودين فقط فى مكان ما بالمدينة .

ولعل السبب فى هذا أن كثيراً من أقربائى كانوا بيضاً ، على الأقل فى مظهرهم ، فقد كانت جدتى تبدو لى بيضاء . وعندما سرت فى الحى إشاعة تقول إن أحد الرجال البيض قد ضرب ولداً أسود لم أستغرب لها ، فقد

ظننت أن من حق الرجل الأبيض أن يضرب الولد الأسود ، لأنى اعتقدت بسذاجة أن الرجل الأبيض لا بد كان أبا الولد الأسود ، وكان للآباء حق ضرب أبنائهم كما كان أبى يفعل . وكانت علاقة الأبوة فى نظرى تعطى الحق للضرب .

ولكن عندما أخبرتنى أمى أن الرجل الأبيض لم يكن أبا الولد الأسود . بل لم يكن حتى من أقربائه — دهشت وسألتها :

— لماذا إذن ضربه بالكرباج ؟

وأخبرتنى أمى أنه لم يضربه بالكرباج ، بل ضربه فقط .

— ولكن لماذا ؟ .

— إنك صغير ولن تفهم .

وأجبت بشدة : ولكنى لن أسمح لأحد أن يضربنى .

— إذن امتنع عن الجرى فى الشوارع .

وفكرت مليًّا فى قولها هذا ، وفى ضرب الولد الأسود ، فلم أجد سببًا يدعو الرجل الأبيض لضربه ، وكانت دهشتى تزداد كلما زادت أسئلتى . وكنت كلما رأيت شخصاً أبيض أحملق فيه وأتعجب وأسائل نفسى عنه وعن شخصيته .

وبدأت أذهب إلى معهد « هوارد » فى سن متأخرة عن المعتاد ، فلم تكن أمى تستطيع دفع نفقات المدرسة من ملابس وكتب . وفى أول

يوم ذهبت فيه إلى المدرسة صحبنى الأولاد معهم ، وعندما وصلنا إليها شعرت بالخوف وبالرغبة فى العودة ثانية إلى المنزل ، ولكنهم أرغمونى على الدخول . ولم أستطع الكلام ، وقدمنى أصحابى إلى المدرسة وأخبروها عن اسمى وعنوان سكنى . وجلست أستمع إلى التلاميذ يقرءون وأنا أفهم ما يقال ، ولكن الدهشة عقدت لسانى فلم أنطق كلمة واحدة . وكنت أنظر إلى التلاميذ وهم واثقون من أنفسهم وقلت لنفسى : « لن أستطيع أن أكون مثلهم فى يوم من الأيام » .

وفى فترة الراحة عند الظهيرة انضممت إلى مجموعة من الأولاد يكبرونني سنًّا ، ومشيت وراءها ، أستمع إلى ما يقولون وأسأل أسئلة لا حصر لها . وفى هذه الفترة تعلمت كل ما يمكن أن أتعلمه من كلمات السباب البذيئة . وكنت أرددها فى الحانة دون أن أعلم معناها . وأخذ واحد من هؤلاء الصبية ينشد قصيدة تروى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وتذكرت كلماتها كلمة كلمة بعد أن انتهى منها . ولكن عند عودتى إلى الفصل انعقد لسانى مرة أخرى ولم أنطق كلمة واحدة . وعندما نادتنى المدرسة أمسكت بالكتاب ووقفت ، ولكن لم تخرج من فمى كلمة واحدة ، فقد تسمرت فى مكانى ولم أنطق حرفًا واحداً .

وبعد المدرسة جريت فرحًا إلى المنزل وأنا أشعر أن ذهنى قد امتلأ بالمعلومات ، ولكنى لم أحصل عليها من الكتب . وتناولت الطعام بسرعة وغسلت وجهى وأسرعت إلى الشوارع ، تواقاً أن أظهر كل ما تعلمت فى

المدرسة منذ الصباح . وأخذت معى قطعة من الصابون ، وأخذت أكتب على كل حائط كل الكلمات البذئية التى تعلمتها فى المدرسة .

وكنت قد انتهيت من الكتابة على كل نوافذ وحوائط الحى ، عندما رأتنى امرأة وقادتنى إلى المنزل . وفى المساء زارتنا هذه المرأة وقصت على أمى ما شاهدت . وغضبت أمى وطلبت منى أن أبلغها عن المكان الذى تعلمت فيه كل هذه الكلمات البذيئة ، ولما أخبرتها أنى تعلمتها فى المدرسة ، طلبت منى أن أحضر جردلا وفوطة وأمسح كل الحوائط والنوافذ التى لطختها بهذه الكلمات .

وتجمع أهالى الحى يضحكون ، ويسخرون ويسألون أمى كيف — بحق السماء — حصلت على مثل هذه الكلمات الكثيرة فى فترة وجيزة . وأخذت أزيل الكلمات والغضب يكاد يعمينى ، وأنا أبكى وأنتحب وأتوسل إلى أمى أن تدعنى لحال سبيلى ، واعداً إياها ألا أعود إلى مثل هذه الفعلة . ولكنها لم تلن لتوسلاتى حتى انتهيت من إزالة آخر كلمة كتبتها . وكان هذا درساً قاسياً لى ولم أكرره أبداً بعد ذلك . كنت أحتفظ بالكلمات لنفسى .

بعد أن هجرنا أبى أصبحت عقيدة أمى الدينية هى التى تسيطر على المنزل . وكانت كثيراً ما تأخذنى إلى مدرسة الكنيسة ، حيث فهمت أن القسيس الذى يرتدى الملابس السوداء الطويلة هو الله . وفى يوم من أيام الآحاد . دعت أمى هذا القسيس إلى عشاء من الدجاج المحمر ، وكنت

سعيداً جداً ، لا لقدومه ، بل بسبب الدجاج . ودعت أمى اثنين من جيراننا ، ولكن بمجرد أن حضر القسيس أحسست بالكراهية نحوه ، فقد فهمت من كلامه أنه مثل أبى ممن يتشبثون بوجهات نظرهم . ولما حانت ساعة الطعام جلست بين جماعة من الكبار يتحدثون ويضحكون . وفى وسط المائدة رأيت الدجاجة الذهبية ، وأخذت أقارن بين الحساء الموضوع أمامى وبين الدجاجة . واستقر صوتى إلى جانب الدجاجة ، ولما أخذ الآخرون يحتسون الحساء لم أستطع أن ألمسها .

وقال أخى : أشرب الحساء .

وأجبت : لا أريدها .

— ولكنك لن تأخذ شيئاً من الطعام ما لم تشرب الحساء .

وكان القسيس قد انتهى من الحساء ، ، فطلب من أمى أن تقرب له طبق الدجاج ، وأخذ هو ينتقى لنفسه أطيب وأشهى ما فى الدجاجة . أما أنا فأذعنت لأمر أمى وأخذت أبتلع الحساء ابتلاعاً ، وأحاول أن أجارى القسيس فى سرعته ، ولكن بلا جدوى ، فقد سبقنى هو إلى التهام معظم الدجاجة ، وكان الآخرون يتناولون بعض الأجزاء أيضاً ، ودب اليأس إلى قلبى ، وجاست أحملق فى طبق الدجاج الذى أوشك أن يضيع .

وحذرتنى أمى : اشرب الحساء وإلا فلن تحصل على أى شىء آخر .

ونظرت إليها باستعطاف ولم أستطع الجواب ، وكلما نفدت قطع الدجاج أمام عينى قطعة قطعة انسدت نفسى عن الطعام أو الحساء . أما القسيس

فكان يضحك ويتكلم ، وكان الآخرون ينصتون لكلماته بشغف واهتمام . وزادت كراهيتى له وفاقت خيبة أملى ولم أستطع أن أصبر ، فقفزت من الكرسى وجريت خارج الغرفة وأنا أصيح . وكنت أدرك تماماً أن ما أفعله سيكون مدعاة للخجل والعار . وصرخت :

— إن هذا القسيس سيأكل الدجاجة بأسرها !

ودفع القسيس برأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكاً ، أما أمى فقد غضبت منى وحرمتنى من العشاء بسبب سوء أخلاقى .

وفى صباح يوم من الأيام أبلغتنى أمى أننا ذاهبون إلى أحد القضاة الذى سيرغم أبى على إعالتنا أنا وأخى . وبعد ساعة كان ثلاثتنا يجلسون فى حجرة كبيرة غصت بالناس ، وكنت أجيل النظر فى الوجوه وأستمع إلى الأصوات دون أن أفهم ما يقال . وكانت صورة القاضى معلقة على الحائط . أما أبى فكان يجلس قبالتنا وهو يبتسم لنا بثقة واطمئنان . وحذرتنى أمى ألا أخدع لهذه الابتسامة ، وقالت إن القاضى سيسألنى بعض الأسئلة ، وينبغى علىّ أن أخبره بالحقيقة ، ووافقت برغم أنى كنت آمل ألا يسألنى القاضى أى سؤال .

وبدت لى المسألة بأسرها تافهة لا معنى لها . وإذا كان أبى سيصطحبنى فسيفعل ذلك دون أن يلقى بالاً إلى ما يقوله القاضى . وكنت فى الواقع لا أريد أن يتولى أبى إطعامى ، برغم أنى كنت جائعاً . وانتظرت قلقاً وأعطتنى أمى ساندوتشاً جافاً ، وأخذت أقرض فيه وأنا أحملق بعينى .

واشتقت إلى العودة إلى المنزل . وفجأة سمعت من ينادى باسم أمى، ووقفت هى وأخذت تبكى لدرجة أن الكلمات احتبست فى فمها . وأخيراً سيطرت على نفسها وأخذت تسرد قصتها ، وقصة ولديها ، وقصة هجر زوجها لهم . ونودى على أبى وتقدم بلا اكتراث وهو يبتسم ، وحاول أن يقبل أمى ولكنها ابتعدت عنه ، ولم أسمع مما قاله إلا جملة واحدة :

— إنى أفعل كل ما أستطيع يا سيادة القاضى .

وكان الألم يحز فى نفسى وأنا جالس أشاهد أمى تبكى وأبى يضحك . وحمدت الله عندما خرجنا إلى الشارع . وفى المنزل عاودت أمى البكاء والشكوى ، لأن القاضى أخذ بوجهة نظر أبى . وبعد هذه الجلسة حاولت أن أطرد ذكرى أبى من خاطرى ، ولم أكن أشعر له بالكراهية ، كنت أريد ألا أفكر فيه فقط ، وكنا كثيراً لا نجد ما يسد رمقنا ، وكانت أمى تطلب منى أن أذهب إليه حيث يعمل وأطلب منه دولاراً أو عشرة سنتات أو حتى خمسة سنتات ، ولكنى كنت أرفض ؛ فلم أكن أريد رؤيته .

ومرضت أمى وزادت مشكلة الجوع حدة ، وأصبح ملازماً لنا ، وكان الجيران يعطفون علينا أحياناً ، وكنا نحصل على دولار أحياناً أخرى من جدتى بالبريد . وكان الوقت شتاء فكنت أشترى فحماً وأحمله إلى المنزل . ولم أنتظم فى المدرسة ، فقد كنت مضطراً للعناية بأمى ، وجاءت جدتى لزيارتنا وعدت ثانية إلى المدرسة .

وفى المساء كانت تدور مناقشات طويلة عن ضرورة إقامتنا مع جدتى

ولكن دون جدوى ، ويبدو أننا لم نكن نستطيع ذلك ، فلم تكن معنا نفقات السفر . وأما أبى فقد امتنع عن مساعدتنا تماماً بعد أن جرته أمى إلى المحكمة . وكنت أسمع أمى وجدتى تهمسان عن امرأة يجب أن تقتل لأنها هدمت أسرة . وكنت مغيظاً محنقاً للكلام الكثير الذى لم ينتج عنه عمل ما . ولو اقترح أحدهم قتل أبى لسررت لذلك ، ولو اقترح أحدهم ألا يذكر اسمه بتاتاً لوافقت ، ولو اقترح أحد أن ننتقل إلى مدينة أخرى لسررت . ولكن كل ما كان هناك لم يتعد الثرثرة والكلام ، ولذا فقد آثرت التغيب عن المنزل مفضلا عليه الشوارع .

وأخيراً لم نتمكن من دفع إيجار المنزل ، فقد نفدت الدولارات القليلة التى تركتها لنا جدتى قبل سفرها ، وأخذت أمى تطوف بالمؤسسات الخيرية تتوسل وتتسول ، وأخيراً عثرت على مؤسسة للأيتام وافقت على إيوائى أنا وأخى وعلى إيجاد عمل لها ، وكانت أمى لا تحب الافتراق عنا ، ولكن لم يكن أمامها حل آخر .

وكانت مؤسسة الأيتام تتكون من طابقين وتقع بين الأشجار الخضراء . وأخذتنا أمى إليها ذات صباح ، وتركتنا بين يدى امرأة طويلة نضف زنجية تدعى « مس سايمون » . وبمجرد أن رأتنى « مس سايمون » شعرت بحب لى . أما أنا فكنت أخاف منها من لحظة أن رأيتها ، فظل هذا الخوف منها يلازمنى طوال مدة إقامتى فى المؤسسة .

وكانت المؤسسة تعج بالأطفال وبأصواتهم ، وكان النظام غريباً علىّ لم أحس به ، وكل ما أذكره عن أيامى هذه هو الشعور بالجوع والخوف . ولم نكن نتناول سوى وجبتين ضئيلتين فى اليوم . ففى المساء كانوا يعطوننا قطعة من الخبز وعليها آثار من العسل الأسود . وكان الأطفال ينظرون إليها واجمين والعداء ينبعث من أعينهم . وكان الجو يسوده القلق ، فقد كان بعض الأطفال ينقلون قصصاً عن زملائهم إلى المشرفين فينتهى الأمر بحرمانهم من الطعام عقاباً لهم .

ولم تكن ميزانية المؤسسة تسمح بتشذيب الأشجار المحيطة بها فكنا نحن الذين نقوم بذلك . وكان يشرف علينا فى هذه العملية كل صباح ولد من الكبار سناً . وكانت « مس سايمون » تمر علينا للتفتيش ونحن نقلع الحشائش من الأرض ونقطع فروع الشجر بأيدينا الصغيرة . وكثيراً ما كانت تعنفنا أو تمتدحنا ، على حسب العمل . وكنت فى كثير من الأيام أحس بالتعب والضعف وينتابنى دوار فأغيب عن الوعى ولا أحس بشىء ، ثم أفيق وأنظر إلى الحشائش الخضراء ولا أفهم أين أنا ، بل كنت كمن يفيق من حلم مرعب .

وكانت أمى تأتى لزيارتنا فى المساء فى أول الأمر ، ولكن زياراتها لم تلبث أن انقطعت ، وأخذت أسائل نفسى : هل اختفت هى الأخرى مثل أبى ؟ فقد كنت أشك فى كل الناس ، وفى كل شىء . ولكنها عادت لزيارتنا ، وعند ما سألتها عن سبب تغيبها أبلغتنى أن « مس سايمون » طلبت

منها ذلك لأنها لم تكن توافق على زياراتها المتكررة لنا . وتوسلت إلى أمى أن تأخذنا من هذا المكان . وبكت هى وطلبت منى الانتظار ، وقالت إننا سننتقل إلى (أركانسو) قريباً . وتركتنى ، وغاص قلبى فى قدمى .

وحاولت « مس سايمون » أن تفوز بثقتى وسألتنى عما إذا كنت أوافق أن تتبنانى إذا ما وافقت أمى ولكنى رفضت ، وكانت تأخذنى إلى شقتها وتحدثنى طويلا ، ولكن كلماتها لم تؤثر فى ، فقد أصبح الشك والخوف جزءاً منى ، وازدادت حساسيتى ، وبدأت أرى نفسى شخصاً يقاتل الآخرين ويصارعهم . وأخذ خيالى يسرح بى وأحلم بالهرب ، وكنت أقسم كل صباح أنى لن أبقى يوماً آخر ، ولكن فى الصباح كان الخوف يدب إلى قلبى فأبقى .

وفى يوم من الأيام أخبرتنى « مس سايمون » أنها قد اختارتنى للعمل فى مكتبها . وكنت أتناول الغداء معها . وكنت كلما جلست قبالتها عند الأكل ذهب عنى الجوع ؛ فقد كانت قادرة على قتل شىء بداخلى ، وطلبت منى مرة أن أقترب منها وهى جالسة إلى مكتبها . ووقفت بجوارها ونظرت إليها مليًّا وطلبت منى أن أتولى تنشيف كل المظاريف المكتوبة ، ونظرت إليها ولم أتحرك .

وقالت : تناول النشافة .

وحاولت أن أمد يدى للنشافة ، وقالت هى بحدة : ها هى ذى.

وأخذت تكتب المظاريف وتدفع بها أمامى لأجففها ، ولكنى وقفت

أحملق فيها ، وقالت : جفف الحبر .

ولم أستطع أن أرفع يدى ، ووقفت أنظر إليها ، وصاحت فى أن أنظر إليها ، ولكنى لم أستطع رفع عينى .

وسألتنى : ماذا بك ؟

وأخذت أبكى وطردتنى هى من الغرفة . وقررت أن أهرب بمجرد حلول الليل . ولما دق جرس العشاء لم أسرع إلى المائدة بل اختبأت فى ركن من الصالة . وفتحت الباب وأسرعت إلى الخارج ، وكان الظلام قد بدأ ينشر غلالته على الشارع ، ووقفت برهة ، هل أعود ؟ لن أعود إلى الجوع والخوف . إذن أين سأذهب ؟ لا أعلم . وأدركت أنى أهرب من شىء إلى لا شىء . وتوقفت . . . وبدا لى الشارع مظلماً مخيفاً ، والأبنية المحيطة بى هائلة ، ورأيت القمر بين الأشجار وخفت . ولكنى لن أعود ، لن أستمر ، لن أعود . وكنت قد سرت طويلا دون أن أعى اتجاهى ، فأى الطرق يقود إلى المؤسسة ، لم أكن أعلم ، لقد تهت فضاعت منى معالم الطريق .

ووقفت فى وسط الشارع وبكيت ، فتقدم منى رجل بوليس « أبيض » . وخفت أن يضربنى . وسألنى عما بى ، وقلت له إنى أحاول العثور على أمى . وبدا لى وجهه الأبيض مخيفاً ، وتذكرت قصه الرجل الأبيض الذى ضرب الولد الأسود ، وتجمع حولنا بعض المارة وطلب منى بعضهم عنوان منزلنا . وكنت أشعر برغبة ملحة فى أن أخبر الرجل الأبيض

أنى هربت من مؤسسة الأيتام التى تديرها « مس سايمون » ولكنى خفت . وأخيراً اصطحبنى رجل البوليس إلى مركز البوليس حيث أطعمرنى ، وشعرت بتحسن ، وجلست فى كرسى كبير وأحاط بى رجال البوليس من البيض ، ولكنهم لم يشعروا بوجودى أو لعلهم حاولوا تجاهلى. ونظرت من النافذة ورأيت الليل وقد أسدل أستاره ، والأضواء تبدو من نوافذ المنازل ، ودب النعاس إلى عينى وغفوت . وهز أحدهم كتفى ، وفتحت عينى ونظرت إلى وجه أبيض يجلس بجوارى . وبدأ يسألنى فى صوت هادئ واثق ، وفجأة لم يعد الوجه أبيض ، وأخذت أتحدث إليه بثقة وأروى له قصة هربى من مؤسسة الأيتام التى تديرها مس سايمون .

وبعد لحظات كنت أسير بجوار رجل البوليس متجهين إلى المؤسسة . وقادنى إلى البوابة حيث وجدنا « مس سايمون » تنتظرنا . وتعرفت على ، وتركنى رجل البوليس معها . وتوسلت إليها ألا تضربنى ، ولكنها دفعت بى داخل غرفة خالية وانهالت على ضرباً . وجلست قابعاً فى ركن الغرفة وقد عقدت العزم على أن أهرب ثانية . ولكنهم ظلوا يراقبوننى عن كثب بعد ذلك .

وأبلغت القصة لأمى عند زيارتها وكانت فى غاية الألم لما سمعت ، وسألتنى :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فأجبتها : لأنى لا أريد البقاء هنا .

– ولكن يجب أن تبقى هنا ، إذ كيف يمكننى العمل وأنا دائمة القلق عليك ؟ يجب أن تذكر أنك محروم من الأب ، وأنى أفعل كل ما بوسعى .

وكررت على مسامعها : لا أريد البقاء هنا .

– إذاً سآخذك إلى أبيك !

– لا أريد أن أذهب إليه .

– ولكن سأطالبه بنقود حتى نستطيع الانتقال إلى (أركانسو) عند أختى .

ومرة ثانية ، واجهنى الاختيار ، وهو ما لم أحبه ، ولكنى وافقت فى النهاية ، لأن كراهيتى لأبى لم تكن تعادل كراهيتى لمؤسسة الأيتام . وبعد أسبوع وجدت نفسى أقف أمام أبى . وكانت معه امرأة غريبة . وكانا يجلسان أمام مدفأة ، أما أنا وأمى فقد كنا نقف بعيداً عنهما .

وسمعت أمى تقول : إنها ليست لى ، بل لأولادك .

فضحك أبى وقال : ليس معى نقود .

وتكلمت المرأة الغريبة تخاطبنى : اقترب يا ولد .

ونظرت إليها ولم أتحرك .

وقالت المرأة : أعطه خمسة سنتات ، فهو ظريف .

وقال أبى : تعال هنا يا ريتشارد .

ومد يده ، وتراجعت ، وأنا أهز رأسى وأحملق فى النار .

وقالت المرأة : إنه ولد ظريف .

وقالت أمى موجهة الكلام إليها :

ـ يجب أن تخجلى من نفسك ، فقد دفعت بأولادى إلى الجوع .

وقال أبى ضاحكًا : لاتتعاركا الآن .

وصرخت فى وجهه : سأضربك بهذه الماشة .

ونظر أبى إليها وضحك ثانية : ثم سألها :

ـ هل علمته أنت هذا ؟

وقالت أمى : لا تقل مثل هذا الكلام يا ريتشارد .

ثم وجهت كلامى إلى المرأة الغريبة : أنت تستحقين القتل !

وضحكت المرأة وألقت بذراعيها حول عنق أبى . وأحسست أنا بالخجل ، وتمنيت لو تركت المكان وذهبت .

وسألته أمى : كيف تقبل أن يتضور أولادك جوعا ؟

وأجاب أبى : اتركى ريتشارد معى .

وسألتنى أمى : هل تريد البقاء مع أبيك ؟

وأجبت : كلا .

وقال أبى : ستحصل على كل ما تريد من طعام .

وأجبته : أنا جائع الآن ، ولكن لن أبقى معك .

وقالت المرأة : أعطه خمسة سنتات .

ودس أبى يده فى جيبه وأخرج قطعة من ذات الخمسة سنتات ، وناولها لى قائلا : خذ يا ريتشارد .

وقالت أمى : لا تأخذها .

وأجاب أبى : لا تجعلى منه شخصًا ساذجًا ، خذها يا ريتشارد .

ونظرت أنا إلى أمى ، وإلى المرأة الغريبة ، وإلى أبى ، ثم نظرت إلى المدفأة ، وكنت أشعر برغبة فى أخذ قطعة النقود، ولكنى لم أحس برغبة فى أن آخذها من أبى .

وبكت أمى وقالت : يجب أن تخجل من نفسك ، وأنت تعطى ابنك خمسة سنتات ، وهو فى أشد الحاجة إلى الطعام ، سيعاقبك الله على كل هذا .

وضحك أبى ثانية وأعاد قطعة النقود إلى جيبه قائلا : إنها كل ما معى .

وغادرنا المكان ، وأنا أشعر أنى مررت بتجربة قبيحة ، وفى السنوات التى تلت ذلك كانت صورة أبى ومعه المرأة الغريبة تتمثل أمامى ، وكنت أرى وجهيهما وقد انعكست عليهما نيران المدفأة؛ تقترب منى حتى أكاد ألمسها. وكنت أحملق فى هذين الوجهين طويلا وأنا لا أفهم ما تحملان من معان .

ومر على هذه الحادثة ربع قرن قبل أن أرى أبى ثانية ، وكان فى هذه

المرة واقفاً فى وسط مزرعة من مزارع الميسيسبى يرتدى « عفريتة » من التى يرتديها العمال الزراعيون ويحمل فى يده شرشرة .

ربع قرن مررت فيها بأحداث غيرت من تفكيرى ووجدانى بشكل جذرى ، حتى إننى عند ما نظرت إلى وجهه وفهمت أن هذا الرجل الذى يقف أمامى هو أبى — وكنت أرى الشبه بيننا واضحاً ، وأسمع صوتى فى نبرات صوته — أحسست أنى أقف أمام رجل غريب عنى تماماً ، رجل لا يتكلم اللغة التى أتكلمها ، ويعيش فى آفاق بعيدة عن آفاقى . فى هذا اليوم — بعد مرور ربع قرن على مقابلتنا هذه — رأيته واقفاً وسط المزرعة يبتسم كاشفاً عن فم خال من الأسنان ، وقد ابيض شعره وتقوس ظهره ، وتسمرت عيناه وراحت عنه صفة الإرهاب .

ودهشت لما علمت أنه لم يفهمنى قط ، ولم يحاول أن يحلل التجارب التى مررت بها ، والتى قذفت بى بعيداً عنه إلى حياة أخرى لم يألفها قطّ . ووقفت أمامه وقد مددت قامتى أتأمل ما يرتسم على وجهه من دلائل ، أتأمل كيف كانت روحه حبيسة جسده طوال فصول السنة ، فى المطر والريح والشمس ، كيف ارتبطت ذكرياته بماض قاس ، وكيف خضعت عواطفه لشهوات جسده .

ولم يحاول الملاك من البيض أن يعطوه فرصة يتعلم فيها معنى الولاء ، ولا العاطفة ، ولا التقاليد . لم يمنح فرصة ليعرف معنى السعادة ولا اليأس بل عاش كمخلوق بشرى لا يشعر بالأمل ولا يحس بالأسى !

وسألنى بلهجة بطيئة عن أحوالى وأحوال أخى ، وأحوال أمى ، وضحك عند ما أخبرته بما فعل القدر بهما، وأحسست بالرثاء له ، وعيناى تجولان فى الحقول والأكواخ الخشبية . وأدركت أن أبى فلاح زنجى نزح إلى المدينة يطلب الحياة ، ولكنه فشل ، فلاح زنجى وقع فريسة لأحداث المدينة فهرب أخيراً منها، هرب من نفس المدينة التى حملتنى بين ذراعيها الملتهبتين إلى شواطئ بعيدة لم أكن أحلم بها .

الفصل الثانى

كانت الأيام التالية أيام تحرر وانطلاق ، مارست فيها كل رغباتى وانتقلت من حالة الضغط والقلق ، إلى جو من الانحلال وعدم الاكتراث : وفى يوم من الأيام أبلغتنى أمى أننا ذاهبون لنقيم مع شقيقتها فى بلدة اسمها (إلين) بولاية (أركانسو) وأننا سنزور فى الطريق جدتى التى انتقلت هى الأخرى من ناتشز إلى (جكسون) بولاية (ميسيسبى) . وشعرت بالراحة والسعادة لهذه الأخبار . وأخذت أجمع ملابسى المهلهلة جذلاً ، لأنى سأغادر هذا المكان الذى لم أعرف فيه سوى الجوع والخوف ، وأترك ورائى أياماً مظلمة كنت أشعر فيها بوحدة قاسية كالموت .

وبينما أحزم متاعى جاء أحد زملائى وأخبرنى أن لى قميصاً موضوعاً على حبل الغسيل ليجف ، وكان شعورى بالفرح لمغادرة المكان كبيراً حتى إنى تنازلت له عن هذا القميص ، إذ ما معنى قميص لى الآن ، والكل يقف حولى ينظرون إلى بحسد ، وأنا ألقى بحاجياتى فى حقيبة ، ولكنى لم ألق إليهم بالا . إذ أنى بمجرد أن سمعت أنى سأغادر المكان ، بعدت عواطفى عن كل ما بالمكان ، حتى إنى لم أكن فى الواقع أحس بوجود الأولاد حولى ، وكانت وجوههم تثير فى ذهنى ذكريات كنت أحاول أن أنساها .

كان شعورى بالفرح كبيراً حتى إنى بعد أن انتهيت من حزم حاجياتى وقفت فى الصالة ولم أفكر حتى فى توديعهم ، ولم أفكر فى توديع الأولاد والبنات الذين عشت معهم ، آكل وأشرب وأنام ، طوال أسابيع كثيرة .

وأنبتنى أمى على عدم انتباهى هذا ، وطلبت منى أن أودعهم ، وأطعتها برغم أننى ، وأنا أود لو أنها لم تفعل ذلك . وكنت أشد على أيديهم وأنا أشيح بوجهى ولا أنظر إليهم ، لا أريد أن أنظر إلى وجوه ارتبطت فى ذهنى بالجوع والخوف ، وكنت وأنا أصافحهم أفعل شيئاً سأضطر فى السنوات المقبلة أن أفعله كثيراً ، لأن الجميع ينتظرون منى أن أفعله ، برغم أنى لا أوافق عليه إطلاقاً .

وبعد أن مرت بى صدمات الطفولة ، وبعد أن اعتدت أن أطيل التفكير والتأمل ، كنت كثيراً أعجب لافتقاد الزنوج إلى الحنان الحقيقى ، افتقادهم إلى حرية التعبير عن شعورهم ، لما قاسوا من قلق ، وما حرموا من شعور حقيقى ، ومن أمل ، ولما كانوا يشعرون به من خجل كلما حاولوا إظهار سرورهم .

فهمت السبب فى نقص هذه العواطف الهامة بيننا ، هذه العواطف التى تربط بين البشر ، وفهمت أيضاً أن ما نشعر به من يأس كان ضحلاً غير عميق . وبعد أن تعلمت الكثير من الحياة ، كنت أعجب لسخف الرأى الذى يعتقد أن الزنوج يحيون حياة عنيفة مليئة بالعواطف

المتأججة . والواقع أن الكثير يظنون ـــ خطأ ـــ أن تصرفاتنا المضطربة السلبية قوة عاطفة .

وكلما دارت فى ذهنى حياة الزنجى الأمريكى ، وافتقارها إلى الكثير ، عرفت تماماً أن الزنوج لم يمنحوا إطلاقاً فرصة ، للتعرف على المدنية الغربية ، برغم أنهم يعيشون فى وسطها . وكلما فكرت فى افتقار الزنوج إلى حياة ثقافية ، فهمت تماماً أن الحنان والحب والشرف والولاء كلها من حق الإنسان لأنها تولد معه .

ولما وصلنا إلى (جاكسون) وجدت منزل جدتى مرتعاً للاستكشاف والتجول . وكان المنزل مؤلفاً من سبع غرف ، وله طابقان . وكنت أنا وأخى نلعب « الاستغماية » فى الصالات الفسيحة وعلى السلالم . وكان خالى « كلارك » هو الذى اشترى هذا المنزل لأمه . وكانت أعمدته البيضاء وواجهته المطلية باللون الأبيض تجعلنى أعتقد أنه أجمل منزل فى العالم كله !

وكانت الحقول الخضراء تحوطه من كل جانب ، وكنا نمرح ونلعب فيها مع أولاد الحى . وكنا نشعر أننا نعلم كثيراً ، ونزهو على الأولاد والبنات بهذه المعلومات ، وأخذنا نقص عليهم رحلتنا بالقطار ، ونشرح لهم كيف شاهدنا مياه (الميسيسبى) ، وتفاصيل رحلتنا على السفينة ، ونروى لهم ما رأينا فى (ممفيس) ، وكيف هربت من مؤسسة الأيتام . وكنا نقول إننا لن نبقى فى (جاكسون) أكثر من أيام معدودة ، ننتقل بعدها إلى أماكن أكثر روعة وجمالا ، ونحظى فيها بتجارب جديدة !

وكانت جدتى تؤجر إحدى غرف المنزل لمدرسة زنجية تدعى « إيلا » وكانت فتاة حالمة لا تتكلم كثيراً . وكنت أخاف منها وأحبها فى نفس الوقت . وكنت أريد أن أسألها أن تقص علىّ كل ما تقرؤه فى الكتب ، فقد كانت تقرأ كثيراً ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة لأفعل ذلك . وفى ذات يوم وجدتها جالسة وحدها فى الشرفة ، وكانت تقرأ فى أحد الكتب .

وقلت لها متوسلا :

— إيلا ، أخبرينى من فضلك عما تقرئين .

وأجابت محاولة التهرب : إنه كتاب .

وسألتها : ما موضوعه ؟

وأجابت : لن ترضى جدتك إذا ما عرفت أنى أحدثك عن الروايات .

وكان فى صوتها رنة عطف .

فأجبت بصوت عال وبشجاعة : لا يهمنى كل هذا .

وقالت : اصمت ولا تتفوه بمثل هذه الأقوال .

— ولكن أريد أن أعرف .

— عندما تكبر ستستطيع أن تقرأ كل ما تريد ، وتعرف ما تحويه كل هذه الكتب .

— ولكنى أريد أن أعرف الآن .

وفكرت قليلا ، ثم طوت الكتاب وقالت : اقترب إلى هنا .

وجلست عند قدميها ورفعت وجهى إليها . وبدأت هى تقص على فى صوت خافت .

ـ زمان كان هناك رجل اسمه ذو اللحية الزرقاء . . .

وسردت على قصة ذى اللحية الزرقاء وزوجاته السبع ، وسرحت أنا حتى لم أعد أرى شيئًا ، لا الحديقة ، ولا الفناء ، ولا حتى وجهها .

وأخذت تقص على كيف أن ذا اللحية الزرقاء خدع زوجاته حتى تزوجهن ، وكيف أحبهن ثم قتلهن ، وعلقهن من شعورهن فى دولاب مظلم . وأحسست بالدنيا حولى تعج بالحياة وبالمخلوقات السحرية ، وزاد عمق شعورى هذا ، وكنت أقاطعها لأستفهم عن بعض التفصيلات . وعندما قاربت من نهاية روايتها ، وعند ما وصل اهتمامى إلى الذروة ، ظهرت جدتى فى الفناء، وصاحت :

ـ كفى عن هذا أيتها الشريرة ، لا أريد مثل هذه الموضوعات فى منزلى !

وشهقت أنا مذعوراً ، ولفترة من الزمن لم أفهم معنى ما يدور أمامى .

وتلعثمت « إيلا » وهى تقول :

ـ أنا آسفة يا مسز ويلسون ، ولكنه طلب منى .

ـ إنه ولد غرير وأنت تعلمين ذلك .

وأطرقت إيلا ، ودخلت المنزل .

وعارضت أنا قائلا : ولكنها لم تنته من القصة يا جدتى .

وكشرت جدتى عن أنيابها وصفعتنى على وجهى بظهر يدها ، وقالت : أقفل فمك ، فأنت لا تدرك ما تقول .

وبكيت وأنا أقول : ولكن أريد أن أسمع بقية القصة .

— إنها قصص شريرة .

وكان وجه جدتى أبيض بشكل غريب ، لم يسبق لى أن شهدت مثله على وجه أى زنجى . وكانت عضلاتها ترتعش وعيناها تحدق فى ، وقد قطبت جبهتها .

وقلت : ولكن القصة أعجبتنى .

وقالت : ستتعذب بنار الجحيم .

وكانت الثقة التى قالت بها هذه الجملة مقنعة لدرجة أننى صدقتها وشعرت بالضيق لأنى لم أسمع بقية القصة ، ولذا أقسمت إنى بمجرد أن أكبر سأشترى كل ما يوجد فى السوق من روايات ، وسأقرؤها كلها حتى أشفى غليلى إلى العنف ، وإلى التدبير والدسائس ، والإبهام والقتل ، لقد أثرت فى هذه القصة حتى إنى لم أهتم لتهديدات أمى وجدتى ، وكانا يظنان أن إصرارى هذا ليس سوى سذاجة سرعان ما تمر ، فلم يدر بخلدها أن القصة التى روتها لى « إيلا » ، وما تحويه من خداع وقتل ، كان لها أول أثر عاطفى على . وشعرت أنى قد تذوقت الحياة ، ولن أتوقف عن

النهل من مناهلها ، بأية طريقة كانت . ولكنى بقيت صامتاً بعد هذا الحادث ولم أتكلم عنه لئلا تشكا فىَّ . ولكنى كنت أتسلل إلى غرفة « إيلا» وأسرق أحد كتبها وآخذه معى إلى الجرن لأقرأ فيه . وكنت لا أفهم كل ما تقوله كلماته ، ولكن رغبتى فى قراءة الروايات أخذت تنمو وتنمو ، حتى إنى كنت أطلب من أمى أن تشرح لى معنى الكلمات التى كانت تصعب على ، لا لأن الكلمة نفسها كانت تهمنى ، ولكن ، لأنها ستفتح أمامى آفاقاً وعوالم جديدة .

وفى يوم من الأيام مرضت أمى لدرجة جعلتها تبقى فى الفراش ، وفى المساء قامت جدتى بما كانت تقوم به أمى من مساعدتنا أنا وأخى فى الحمام ، ووضعت حوضين فى غرفتنا وطلبت منا أن نخلع ملابسنا ، وفعلنا ، وجلست هى فى أحد أركان الغرفة ، تطرز وترفع رأسها بين آن وآخر لترقبنا . وأخذنا نلعب فى الماء ، ونضحك ، ونقذف بعضنا بالصابون حتى اتسخت الغرفة ، وعنفتنا جدتى وصاحت :

— كفا عن هذه السخافات ، واغتسلا .

ولكننا لم نتوقف عن اللعب ، فصاحت جدتى :

— ريتشارد كف عن هذا وأكمل حمامك .

ونادتنى جدتى إليها عندما لم أكف عن اللعب ، وسرت إليها عارياً ، وخطفت هى الفوطة من يدى ، وأخذت تنظف أذنى ووجهى وعنقى .

وأمرتنى أن أنحنى ، وأخذت تنظف مؤخرتى ، فإذا بى أطلب منها

أن تقبلنى فى مؤخرتى ، وقد قلتها دون أن أعى معنى ما أقول . وبدا على جدتى الذهول ودفعتنى بشدة عنها ، والتفت إليها ورأيت وجهها وقد شحب وعينيها تقذفاننى بجحيم من نار . ومن كل هذه العلامات أدركت أنى قلت شيئًا فاحشًا ، برغم أنى لم أكن أفهم مدى بذاءته . ورفعت جدتى يدها وضربتنى بكل قوة الستين عاماً التى تحملها على كتفيها ، وصحت وبكيت ، لأنى لم أفهم سبب الضرب ولم أفهم المعنى القبيح لما قلت .

ولم تتوقف عن ضربى بيديها وبالفوطة وبكل ما تقع عليه عيناها أو يداها . وأخذت أجرى بعيداً عنها ، وأتت أمى على صوت بكائى وسألتها عما جرى . ووقفت أنا فى الصالة أرتعد من الخوف ومن أثر الضرب . أما جدتى فقد بدا عليها أنها فقدت عقلها نهائيًّا ، لأنها وقفت دون حراك تنظر إلى دون أن تقول كلمة واحدة . وسألتنى أمى :

ـ ماذا فعلت يا ريتشارد ؟

وهززت رأسى ولم أجب .

وسألت أمى الجدة ، وأخى : بحق السماء ماذا فعل ؟

ورمت جدتى بالفوطة على الأرض ، وقالت والدموع تملأ عينيها :

ـ « لقد كنت أساعده فى الحمام » . . .

ـ وأشارت إلى المكان الذى كانت تنظفه من جسدى واستطردت تقول :

ـ وإذا بهذا الشيطان الأسود يطلب منى أن أقبل مؤخرته !

وهنا بدت الدهشة على أمى ولكنها وقفت صامته برهة ، ثم قالت :

ـ كلا ، هذا لا يمكن .

ـ ولكنه قال هذا .

ـ لم يقل هذا .

ـ بل قاله .

وأنصت أنا دون أن أفهم إلا أنى ارتكبت جرماً شنيعاً ، وأنى تفوهت بألفاظ لا يمكننى الآن استعادتها ، ولا أستطيع إنقاذ نفسى . والتقطت أمى الفوطة المبتلة واتجهت نحوى وأسرعت أنا إلى المطبخ عارياً وأنا أصيح . ولكن أمى طاردتنى ، فركضت إلى الفناء الخارجى ، واصطدمت بالسور ، وأصيب رأسى . وجريت بين الأشجار دون أن أهتم بما أصابنى من جروح فى قدمى ، جريت وأنا أصيح ، فقد أدركت أن ما فعلته لا يمكن إصلاحه .

وصاحت أمى :

ـ تعال هنا أيها الشرير البذىء !

ولكنى واصلت الجرى داخل المنزل وخارجه ، وأخيراً احتميت فى أحد الأركان المظلمة . فلما عثرت علىّ أمى جريت ، فصاحت تقول :

ـ سأضربك مهما جريت ، فتوقف عن الجرى ، سأضربك لوكان هذا آخر شىء فى حياتى !

وجريت داخل غرفتى ولحقت بى الجدة ، وحاولت إمساكى ولكنى زحفت إلى تحت السرير . وصاحت أمى : اخرج من عندك .

– كلا .

– اخرج وإلا ضربتك حتى الموت .

وقالت الجدة : استدعوا الجد .

وارتجفت لأنى كنت أخاف منه جداً ، فقد كان طويلا ، صامتاً ، جاداً . . . رجلاً أسود اشترك فى الحرب الأهلية مع الجيش الاتحادى . وعندما يغضب يجز على أسنانه محدثاً صريراً مزعجاً ، وكان يحتفظ ببندقية فى غرفته .

وسمعت أخى يجرى خارج الغرفة وأدركت أن المسألة لن تستغرق أكثر من دقيقتين ويحضر جدى ، ولذا فقد أخذت أصيح وأبكى .

وحضر الجد ، وطلب منى الخروج من مخبئى ، ولكنى رفضت أن أتحرك .

وصاح : أخرج من عندك أيها الشاب .

– كلا .

– هل أحضر البندقية ؟

– كلا ، يا سيدى ، أرجوك لا تقتلنى .

– إذن اخرج .

وظللت ساكناً ، وأمسك جدى بالسرير وهزه ، وتشبثت أنا بأحد

أعمدته، ولكنه تمكن من أن يمسك بإحدى رجلى، وأخذ يجرنى وأنا أقاوم . وتحرك السرير قليلا وتحركت معه . لم أكن أفكر ، ولا أرسم خطة ، بل لقد دلتنى غريزتى على الخطر الداهم الذى ينتظرنى ، وكان لا بد أن أتجنبه. وأخيراً يئس جدى ، وغادر الغرفة ، وقالت أمى :

ـ لن أحرمك من العلقة عندما تخرج، مهما طال بقاؤك حيث أنت . ولن تحصل على طعام الليلة .

وسألها أخى الذى لم يكن يعلم سبب كل هذا :

ـ ولكن ماذا فعل ؟

وأجابت جدتى : فعل شيئًا يستحق عليه القتل .

وبقيت تحت السرير إلى ساعة متأخرة من الليل ، حتى بعد أن أوى الجميع إلى الفراش . وأخيراً اضطرنى الجوع والعطش إلى الخروج ، فلما خرجت شاهدت أمى تنتظرنى عند الباب . وقالت : تعال إلى المطبخ .

وتبعتها وضربتنى ، ولكنها لم تستخدم الفوطة المبتلة ، فقد منعها جدى من ذلك . وكانت وهى تواصل لطماتها تسألنى أين تعلمت مثل هذه الكلمات البذيئة، ولكنى لم أستطع الإجابة ، ولذا فقد واصلت ضربى وهى تقول :

ـ لن أتوقف حتى تخبرنى .

ولم أستطع إخبارها ، لأنى أنا نفسى لم أكن أعلم ، فلم أكن متأكداً

أين تعلمت هذه الكلمات ، فى المدرسة أو أثناء تجوالى بين السكارى والمخمورين فى الحانة . وفى اليوم التالى أكدت جدتى أن الكلمات البذيئة قد وصلت إلى من « إيلا » ، ومن كتبها التى تحتوى على كل الشذوذ . ولما سألت عن معنى كلمة شذوذ ضربتنى أمى ثانية : ولم يصدقونى عندما أخبرتهم أنى لم أستق الكلمات من كتاب ، وأخيراً وجهت جدتى التهمة إلى « إيلا » التى اضطرت وهى باكية إلى حزم أمتعتها ومغادرة المنزل .

أما أنا فقد أخذت أفكر فى احتمالات معنى هذه الكلمات ، وأيقنت أنها تحمل أكثر مما أفهم ، وإلا لما عاقبونى بهذا الشكل . وعقدت العزم على محاولة فهم معناها مستقبلا .

ومرت الأيام وكانت كل تجربة تحملها فى طياتها تنير أمامى الطريق . وكنت أجرى وراء الفراشات أثناء ليل الصيف ، وأمشى بين الزهور أشم عبيرها ، وأتجول بين الحشائش الخضراء التى تلمع فى ضوء الشمس ، وأنظر إلى مزارع القطن وقد حان جنيها ، وأفرح لمنظر الإوز وهو يختال فى الفناء الخلفى للمنزل ، وأنصت لطنين النحل وهو يحوم حول الورود ، وأحس بالرضا وأنا أشرب زجاجات اللبن المليئة ، أحس بالرضا والقناعة لأول مرة فى حياتى .

وكنت أمرح كلما صحبتنى جدتى إلى المدينة ، وأنا أرقب البيض ينظرون إلى المرأة العجوز السوداء تجر فى يديها طفلين زنجيين داخل وخارج محلات المدينة .

وكنت أشم رائحة بذور القطن ونحن نقوم بطهوها ، ونذهب مع جدى لصيد السمك فى الجداول الموحلة .

وإن أنس فان أنسى الخوف الذى انتابنى عندما صحبنى جدى إلى أحد مغازل القطن ، وشاهدت الآلات الضخمة تدور وتنهش فى القطن ، لن أنسى اليوم الذى جرحت فيه يدى وأنا ألتقط التوت الأسود ، وعدت إلى المنزل وفمى يقطر عصيراً ، ويداى تقطران دماً .

ولن أنسى أول يوم أكلت فيه ساندويتشاً من السمك المقلى ، ولا الأيام التى كنت أتسلق فيها أشجار الجيران لأسرق الخوخ قبل أن ينضج . وأذكر جيداً اليوم الذى ظننت فيه أنى سأموت لا محالة بعد أن وطئت قدمى ثعباناً أخضر .

ومرت الأيام والليالى الممطرة بطيئة مملة ، وأخيراً ذهبنا إلى المحطة ومعنا الحقائب ، وانتظرنا القطار الذى سيقلنا إلى (أركانسو) . ولأول مرة لاحظت أن هناك صفين من الناس أمام شباك التذاكر ، واحد أبيض وواحد أسود ، وكنت أثناء إقامتى مع جدتى قد بدأت أحس بهذه التفرقة بشكل حاد سيظل معى حتى اليوم الذى تنتهى فيه حياتى . وعند ما ركبنا القطار لاحظت أن الزنوج يجلسون فى جانب والبيض يجلسون فى جانب آخر . وبكل سذاجة كنت أريد أن أذهب إلى المكان الذى يجلس فيه البيض لأرى كيف يجلسون ، وسألت أمى :

— هل أستطيع أن أتوجه إلى حيث يوجد البيض ؟

وأجابت : اجلس فى مكانك .

ـ ولكن هل يعتبر هذا خطأ ؟

ـ اصمت .

ـ ولكن لماذا لا تسمحين لى بالذهاب ؟

ـ صه ، ولا تكن ساذجًا .

وبدأت ألحظ الضيق الذى انتاب أمى عندما انهالت عليها أسئلتى عن البيض والسود . ولم أفهم السبب ، وكنت أريد أن أفهم هذين النوعين من الناس اللذين يعيشان جنباً إلى جنب ولكنهما لا يتلامسان إلا بالعنف . لنأخذ جدتى مثلا: هل هى من البيض ؟ وما مدى بياض وجهها ؟ وماذا يظن البيض بجدتى ؟

وسألت أمى والقطار يخترق الظلمات :

ـ قولى لى يا أمى ، هل جدتى من البيض ؟

وأجابت : إذا كانت لك عينان فإنك تستطيع لا محالة أن ترى لونها .

ـ ما أريد أن أقوله هو : هل يعدها البيض بيضاء ؟

ـ ولماذا لا تسأل البيض ؟

ـ ولكنك أنت تعلمين .

ـ ولماذا أعلم ؟ لست من البيض .

واستطردت أسألها وأنا آمل أن أقرر على الأقل حقيقة :

ـ إن جدتى تبدو بيضاء ، لماذا إذن تعيش مع الملونين ؟

وسألتنى أمى متجاهلة سؤالى : ألا تريد أن تعيش معنا جدتك ؟

ـ بلى ، أريد .

ـ إذاً لماذا تسأل ؟

ـ أريد أن أعرف .

ـ ألا تعيش جدتك معنا ؟

ـ بلى .

ـ ألا يكفى هذا ؟

ـ ولكن هل تريد هى أن تعيش بيننا ؟

وأجابت أمى متجنبة سؤالى ثانية : ولماذا لا تسألها هى ؟

ـ هل أصبحت جدتى ملونة عند ما تزوجت من جدى ؟

ـ كف عن هذه الأسئلة السخيفة .

ـ ولكن هل أصبحت ملونة بالزواج ؟

ـ لم تصبح جدتك ملونة عند ما تزوجت جدك .

واستمرت فى صوت يبدو فيه الغضب : لقد ولدت بلونها الحالى .

وأحسست مرة ثانية أنها تحاول إخفاء سر ما عنى ، تحاول إخفاء حقيقة كنت أحس بها وراء كل الكلمات ، بل وراء الصمت ذاته ، وسألت :

ـ ولماذا لم تتزوج جدتى من رجل أبيض ؟

ـ لأنها لم ترغب فى ذلك .

وسألت أنا : لماذا ترفضين الكلام معى ؟ .

وضربتنى أمى فبكيت ، ولكن يبدو أنها أسفت على فعلتها هذه ؛ فقد أبلغتنى بعد ذلك أن جدتى تنحدر من أصل إيرلندى وإسكتلندى وفرنسى ، به بعض الدم الزنجى . وقد شرحت لى كل هذا بطريقة مختصرة لا دخل للعواطف فيها .

وواصلت أنا أسئلتى :

ـ ماذا كان اسم جدتى قبل أن تتزوج جدى ؟

ـ بولدن .

ـ ومن الذى منحها هذا الاسم ؟

ـ الرجل الأبيض الذى كان يملكها .

ـ هل كانت ملكًا لأحد ؟

ـ نعم .

ـ وهل كان اسم بولدن هو اسم أبيها ؟

ـ إن جدتك لا تعرف من هو أبوها .

ـ إذاً أعطوها هذا الاسم ، أى اسم .

ـ أعطوها اسمًا وكفى .

ـ ألم تحاول جدتى أن تعرف من هو أبوها ؟

ـ ولماذا تفعل ذلك ؟

ـ حتى تعلم .

ـ ولماذا تريد أن تعلم ؟

ولم أستطع الإجابة عن هذا السؤال ، ولذا فقد تهربت من الإجابة بتوجيه سؤال آخر :

ـ أخبريني يا أمي ، أين حصل أبي على اسمه ؟

ـ من أبيه .

ـ وأين حصل أبوه على اسمه ؟

ـ كما حصلت جدتك على اسمها ، من رجل أبيض .

ـ أيعرفون من هو ؟

ـ أنا لا أعرف .

ـ ولماذا لا يحاولون معرفته ؟

ـ ولماذا ؟

ولم أجد جواباً أيضاً عن هذا السؤال ، إذ لا أعتقد أن هناك سبباً عملياً يدعو أبي للبحث عن اسم جد أبيه . وسألت :

ـ ما نوع دم أبي ؟

ـ بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أسود .

هندي وأبيض وزنجي ؟

ـ نعم .

ـ إذاً من أكون أنا ؟

ـــ سيدعونك رجلا ملونًا عندما تكبر .

ونظرت أمى إلى ببعض السخرية ، وسألت :

ـ هل يضايقك هذا يا مستر رايت ؟

وغضبت ولم أجب . لم يكن يضايقنى أن أكون رجلا ملونًا ، ولكنى كنت واثقًا أن ثمة شيئًا تحجم أمى عن الإدلاء به . إنها تخفى عنى بعض الحقائق ، بعض المشاعر ، بعض السلوك والمعتقدات ، لا تريدنى أن أدركها ، ولذا فقد كانت تغضب عند ما أصرّ على استجوابها . حسنًا ، سأحاول أنا أن أصل إلى كل هذا دون معرفة منها . أنا ملون ، حسنًا . ولم أكن أفهم سببًا لشعور التحدى الذى انتابنى . لقد سمعت أن بعض الملونين يتعرضون للضرب والتعذيب والقتل ، ولكن باستطاعتى أن أواجه كل هذه الحقائق عند ما يحين وقتها ، المسألة بسيطة ، إذا حاول أحد قتلى فسأبدأ أنا بقتله !

ولما وصلنا إلى (إلين) اكتشفت أن خالتى ماجى تعيش فى كوخ مريح يحيط به سور . وشعرت بالسعادة ، وكنت أعتقد أننا لن نبقى فى ضيافتها سوى أيام معدودات .

وكان هناك خارج الكوخ طريق ملىء بالأتربة ، تنمو على جانبه الحشائش وكان الوقت صيفًا ، وكنت أشم رائحة الطين ليلا ونهاراً . وكنت أستيقظ فى الصباح وأسير فى هذا الطريق حافى القدمين .

وبمجرد طلوع الشمس يمتلئ المكان بالنحل الذى كنت أصطاده بيدى .

وحذرتنى أمى من مواصلة لعبتى هذه قائلة إن النحل ينتج العسل ، وإن قتله أمر سيئ ، لأنه يصنع لنا طعاماً ، وإنه سيلذعنى فى يوم من الأيام . ولكنى كنت واثقاً من قدرتى على التغلب على النحل ، وفى يوم من الأيام أمسكت بنحلة ضخمة بين يدى ، فلذعتنى وجريت إلى المنزل باكياً ، وقالت أمى دون شعور :

ـ تستحق ما يجرى لك .

ولم أقتل نحلة واحدة بعد ذلك .

وكان زوج خالتى « ماجى » يدعى هوسكنز ، وكان يملك حانة يرتادها كثير من الزنوج الذين يعملون فى محالج القطن . وكنت أذكر جيداً الحانة التى كنت أرتادها فى ممفيس ، ولذا فقد توسلت إلى العم هوسكنز أن يأخذنى إلى حانته . ووعدنى هو بذلك ، ولكن أمى رفضت ، فقد كانت تخشى أن أشب سكيراً . وقلت لنفسى : ما دمت لن أزور الحانة ، فلا بد لى أن أعوض ذلك بالأكل ، وكانت مائدة خالتى ماجى حافلة بأنواع الأكل المختلفة ، ولم أفهم سبباً لكثرة الأنواع ، ولم أصدق أن هناك كل هذه الأنواع من المأكولات . وفى المرة الأولى التى جلست فيها إلى المائدة لم أمد يدى إلى الأكل قبل أن أسأل :

ـ هل آكل كل ما أريد ؟

وأجابنى العم هوسكنز : كل بقدر ما تريد .

ولم أصدقه ، ولكن أكلت حتى أحسست بألم فى معدتى ، وبرغم ذلك لم أحاول ترك المائدة ، وقالت أمى :

— إن عينيك أكبر من معدتك .

وأجابها العم هوسكنز : « اتركيه يأكل ما يشاء ، ليعتاد الأكل .

وبعد العشاء لاحظت طبقًا مليئًا بالبسكويت ، وكان منظره غريبًا على عينى .

وخفت أن أمد يدى إليه ظنًّا منى أنى إذا فعلت ذلك فلن يكون هناك دقيق يكفى لخبز الصباح ، وخفت من أن يختفى البسكويت أثناء الليل وأنا نائم . وكنت لا أريد أن أستيقظ فى الصباح غاضبًا لأن المنزل خال من الطعام . كما كان يحدث فى الماضى . ولذا فقد أخذت بعض البسكويت وأخفيته فى جيبى ليكون لى حصنًا منيعًا ضد غائلة الجوع فى المستقبل . وعندما كانت أمى تغسل ملابسى عثرت على البسكويت وعنفتنى . وتوقفت عن سرقة الخبز والبسكويت وإخفائه عندما وثقت تمامًا أن الطعام موجود فى كل وجبة .

وكان العم هوسكنز يملك عربة يجرها حصان ، وكان يأخذنى معه إلى بلدة (هيلنيا) حيث يقوم بتسويق بضاعته . وسألنى أثناء الرحلة فى يوم من الأيام :

– هل تريد رؤية الحصان وهو يشرب من النهر يا ريتشارد ؟

وأجبت ضاحكاً : نعم ، ولكنه لا يستطيع ذلك ؟

– بل يستطيع ، انتظر وسترى .

وحول اتجاه العربة نحو نهر الميسيسبي فصحت فيه مذعوراً : إلى أين نحن ذاهبان ؟

– إلى وسط النهر حتى يستطيع الحصان أن يشرب .

ونزلت العربة بالحصان إلى وسط النهر ، ونظرت إلى المياه المترامية ، وصحت فى رعب : كلا ، كلا .

وأجاب العم هوسكنز وهو يضرب الحصان : يجب أن يشرب .

– ولكن النهر عميق .

وسارت العربة وأخذ الحصان يبطئ من سرعته ، وأمسكت أنا بالعربة على استعداد للقفز منها ، برغم أنى لم أكن أستطيع السباحة ، فصاح العم :

– اجلس مكانك وإلا وقعت .

– أخرجنى من هنا .

وارتفعت المياه إلى عجلات العربة ، وحاولت أن أقفز إلى النهر ، ولكن العم أمسك برجلى ، وكانت المياه تحوطنا من كل جانب . وصرخت ثانية : أخرجنى من هنا .

وتوقف الحصان بمجرد أن طلب منه العم هوسكنز ذلك ، وضحك العم ونظر إلى قائلا :

– هل ظننت حقا أنى سآخذ العربة إلى منتصف النهر ؟

وكان الخوف قد عقد لسانى . وحاول العم أن يخفف من هذا الرعب ، وأدار العربة ثانية ، واتجهنا نحو الشاطئ ، وكنت لا أزال ممسكًا بالعربة بكلتا يدى .

وقال العم : إننا فى أمان الآن .

ولكن الخوف لم يزايلنى وطلبت من عمى إنزالى من العربة ، ولما سألنى عن السبب – ولاسيما أننا عدنا إلى الشاطئ – لم أرد بل صممت على النزول ، ولكنه لم يوقف العربة ، بل لم ينظر إلى ، ولذا فقد قفزت منها إلى الأرض ، وأوقف هو العربة وسألنى برقة :

– هل خفت إلى هذا الحد ؟

ولم أرد على سؤاله ، لم أستطع نطق كلمة واحد ، ونظرت إليه كمن لا يعرفه ، وأحسست أنه رجل غريب منى ، لا يمكننى أن أعيش معه دقيقة واحدة .

وقال :

– عد إلى العربة يا ريتشارد وسآخذك إلى المنزل .

وهززت رأسى وأخذت أبكى ، وسألنى :

ـ اسمع يا بنى ، ألا تثق بى ؟ لقد ولدت على شواطئ هذا النهر ، ولهذا فأنا أعرفه جيداً ، إن قاعه ملىء بالأحجار ، ويستطيع الشخص أن يسير فى مياهه مسافة نصف ميل دون خطر .

ولم تحمل كلماته أى معنى لى ، ورفضت أن أعود إلى العربة .

وسرت فى الطريق ونزل هو من العربة وسار بجانبى ، ولم يقم بأية تجارة أو تسويق فى هذا اليوم ، وحاول جاهداً أن يشرح لى السبب فيما قام به ، ولكنى رفضت أن أستمع إليه ، بل رفضت أن أكلمه ، ولم أثق فيه بعد ذلك أبداً . وكلما وقعت عيناى على وجهه تذكرت هذه الحالة التى كانت فاصلا منيعاً بينى وبينه .

وكان العم « هوسكنز » يذهب إلى حانته كل مساء ولا يعود إلا فى ساعات الصباح المبكرة ، وكان كأبى ينام فى ساعات النهار ، إلا أن الضوضاء لم تكن تقلقه على الإطلاق . فكنت أنا وأخى نصيح ونجرى ، بل ندخل غرفته وهو نائم ، ونمتع أنظارنا بالمسدس اللامع الذى كان يضعه دائماً بجوار رأسه ، ولما سألت خالتى « ماجى » عن سبب وضع المسدس بجانبه ، قالت إن بعض البيض قد هددوه بالقتل .

وفى ذات صباح ، استيقظت وعلمت أن العم هوسكنز لم يرجع إلى المنزل وكان القلق يبدو على الخالة « ماجى » ، ومر اليوم وحان ميعاد العشاء وقالت خالتى :

ـ سأذهب لأستطلع الخبر .

وقالت أمى : لعل من الأوفق ألا تذهبى ، فقد يكون فى هذا خطر عليك .

وظل الطعام على الموقد ، فى حين وقفت خالتى تحدق فى الظلام خارج الكوخ ، ومرة ثانية عبرت عن رغبتها فى الذهاب ، ولكن أمى أقنعتها مرة ثانية بالبقاء ، وساد الظلام ولكنه لم يعد . وظلت خالتى على حالها من القلق والسكون ، وأخيراً قالت :

ـ أرجو ألا يكون البيض قد ضايقوه .

ودخلت غرفة النوم وخرجت منها تقول باكية :

ـ إنه لم يأخذ المسدس . ماذا حدث له يا ترى ؟

وأكلنا فى صمت ، وبعد ساعة سمعنا وقع أقدام فى الفناء الخارجى ثم طرقًا على الباب ، وأسرعت خالتى تفتح الباب ، ورأينا ولداً طويلا أسود والعرق يتصبب منه والرعشة تسرى فى جسده ، ورفع قبعته وقال :

ـ لقد أطلقوا عليه النار يا مسز هوسكنز . لقد قتله رجل أبيض ، لقد مات !

وصرخت خالتى «وأسرعت خارج الكوخ ، واندفعت تجرى فى الطريق المترب فى وسط الليل .

ونادت عليها أمى بأن تعود .

فقال الولد : لا تذهبي إلى الحانة . . . سيقتلونك إذا ذهبت إلى هناك .

إن البيض يقولون إنهم سيقتلون أقرباءه .

واندفعت أمى وراء خالتى وجرتها ثانية إلى المنزل ، وطغى الخوف على الحزن . وأخذنا نحزم متاعنا الذى وضعناه فى عربة أحد الفلاحين ، وقبل أن يبزغ الفجر كنا فى طريقنا نهرب بأرواحنا . وعلمت فيما بعد أن البيض قتلوا العم هوسكنز لأنهم كانوا يريدون الاستيلاء على تجارته الرابحة ، وقد هددو ه بالقتل ، وحذروه مراراً ، وطلبوا منه مغادرة البلدة ، ولكنه رفض حتى يستطيع أن يجمع ما يكفيه من النقود . واستأجرنا غرفة فى بلدة (هيلينا) القريبة ، وكانت أمى وخالتى لا تخرجان من الغرفة حتى لا يشاهدهما أحد فى الشوارع . وأخيراً تغلبت الخالة على مخاوفها وقامت بعدة رحلات إلى (إلين) ، ولكنها كانت تقوم بها بالليل ولا تخبر أحداً سوى أمى عنها .

ولم نقم جنازة ، ولم تعزف موسيقى ، ولم نمر بفترة حزن ، ولم نجلب زهوراً ، لم يكن هناك سوى الصمت والهمس والمخاوف . ولم أعلم متى ولا أين دفن العم «هوسكنز» ، ولم يسمح لخالتى أن ترى جثته ولا أن تطالب بممتلكاته — وأصبحت ذكراه بعيدة عنا ، وكنا نحن كمن أخفى وجهه ليتجنب النظر فى وجه الرعب الأبيض الذى كان يطل علينا من مكان ما .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقترب منها من هذا الرعب ، ودار فكرى يسأل لماذا لم نقاتل ، وسألت أمى ، ولكن الخوف الذى ملأها جعلها تضربنى وتطلب منى الصمت .

ولما وجدت أمى وأختها أنهما أصبحتا وحيدتين بلا زوج ولا أصدقاء فقدتا الثقة بأنفسهما أيضًا ، وبعد كثير من التداول قررتا العودة إلى جدتى حيث ترسمان خطة جديدة للعيش . وكنت قد اعتدت الانتقال والترحال فجأة ، فلم أسعد لفكرة رحلة جديدة . كنت قد تعودت ترك الأماكن دون أسف ، وتقبل الأماكن الجديدة على ما هى عليه . وكنت قد بلغت التاسعة من عمرى ولم تمر على سنة واحدة دون انقطاع عن المدرسة ،ولكنى لم أهتم بذلك ، فقد كنت أستطيع القراءة والعد ، وكان هذا أحسن مما يستطيعه كثيرون ممن أقابلهم وأتقابل معهم ، كباراً كانوا أم صغاراً . ومرة ثانية بعنا ممتلكاتنا أو تركناها وراءنا وبدأنا رحلة جديدة .

وبعد أن وصلنا إلى منزل جدتى بأيام معدودة ، كنت ألعب فى الحقول المحيطة بالمنزل وأحفر الأرض بسكين قديم ، عندما سمعت صوتًا غريبًا متناسقًا جعلنى أدير رأسى ناحيته ، ورأيت قادمًا نحوى جماعة من السود يرتدون ملابس صفراء غريبة ، ووقفت وقلبى يدق ، ما هذا ؟ من أين أتى كل هؤلاء الرجال ؟ هل أنا مطلبهم ؟ ومر الرجال أمامى صفًّا صفًّا وهم يدقون الأرض بأقدامهم . وكنت على وشك الجرى إلى المنزل ، ولكنى تسمرت إلى الأرض .

— الألمان .

— ومن هم الألمان ؟

— إنهم العدو .

— وما هو العدو ؟

— الأناس الذين يبغون قتلك ويغتصبون منك بلدك .

— وأين يعيش هؤلاء الناس ؟

— عبر البحار ، ألا تذكر أنى أخبرتك أن الحرب قد أعلنت ؟

نعم ، أذكر ، ولكن كل المسألة لم تبد على جانب من الأهمية عند ما أخبرتنى أمى بها .

ولما سألتها عما تدور حوله الحرب ، أخذت تحدثنى عن إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا ، وعن الرجال الذين يموتون فى الحرب . ولكن كل هذه الحقائق كانت بعيدة عنى ، بل غريبة عنى بشكل جعلنى لا أهتم بها بعد ذلك .

وفى يوم آخر كنت ألهو خارج المنزل ، وفجأة نظرت عبر الشارع وخيل إلى أنى أرى سربًا من الفيلة يتجه نحوى. ولم أشعر هذه المرة بالخوف الذى انتابنى عند ما رأيت الجنود، لأن هذه المخلوقات كانت تتحرك ببطء نحوى ولم يبد فى مظهرها أى نوع من التهديد لى. وبرغم هذا فقد انتحيت ناحية المنزل ، وأعددت نفسى للجرى إذا ما بدا منها أى خطر . واقترب السرب منى ، ولما أمعنت النظر وجدت أن وجوه أفراده تشبه وجوه الرجال

العاديين ، وحاولت أن أربط بين الحقيقة والخيال ، ما نوع هؤلاء الرجال ، الذين يسيرون فى صفين . والذين يضمون بينهم رجالا من البيض والسود ؟ ولما دققت النظر وجدت أن الرجال البيض لم يكونوا سوى رجال عاديين يرتدون ملابس عادية .

أما السود فكانوا يرتدون ملابس جعلتهم يشبهون الفيلة فى مظهرهم. ولما اقترب هؤلاء السود منى لاحظت أن أقدامهم مربوطة بسلاسل غليظة ، وأن أذرعهم أيضًا مربوطة بهذه السلاسل ، وكانت السلاسل تحدث أصواتًا موسيقية ثقيلة كلما تحركوا . ورأيت أن الرجال السود كانوا يحفرون ما يشبه النفق على جانبى الطريق ، وكانوا يهيلون التراب إلى منتصفه . ونظر إلىّ واحد منهم ، واحد من هؤلاء الحيوانات .

واقتربت منه وسألته بهمس : ماذا تفعلون ؟

وهز الرجل رأسه ونظر بحذر إلى الرجل الأبيض واستمر فى الحفر. وفجأة لاحظت أن الرجال البيض يحملون على أكتافهم نفس العصى السوداء ، نفس البنادق . وبعد أن مروا جريت لاهثًا إلى المنزل ، وصحت مناديًا : « ماما » .

وأجابتنى أمى من المطبخ متسائلة : ماذا تريد ؟ .

— إن الشارع ملىء بالفيلة !

وخرجت أمى من المطبخ وحملقت فىّ :

— فيلة ؟

– نعم ، تعالى وانظرى ، إنهم يحفرون فى الشارع .

وجففت أمى يديها وخرجت إلى الباب وتبعتها محاولاً أن أشرح لها ما رأيت .

ونظرت هى ثم هزت رأسها وقالت : هؤلاء ليسوا فيلة .

– ما هم إذاً ؟

– إنهم طابور سجن .

– وما هو طابور السجن ؟

– ما تراه أمامك الآن مجموعة من الرجال تربطهم السلاسل وهم يعملون .

– لماذا ؟

– لأنهم ارتكبوا جرماً يعاقبون عليه .

– ما نوع الجرم الذى ارتكبوه ؟

– لا أعلم .

– ولكن لماذا يبدون بهذا المنظر ؟

– حتى لا يهربوا ، وحتى يعرف الجميع من أرديتهم أنهم مساجين .

– ولماذا لا يرتدى البيض مثل هذا الرداء ؟

– لأنهم الحراس .

– هل يرتدى البيض هذا الرداء أحياناً ؟

– نعم ، أحياناً .

– هل رأيتهم يوماً يرتدونه ؟

– كلا .

– ولماذا يرتدى الكثير من السود هذا الرداء ؟

– إن الناس قساة على السود .

– أكثر مما هم قساة على البيض ؟

– نعم .

– إذاً لماذا لا يقاتل السود البيض ، إنهم أكثر منهم عدداً .

– ولكن البيض معهم السلاح .

ونظرت أمى إلى وسألتنى : ولكن ما الذى جعلك تظن أنهم فيلة ؟

ولم أستطيع الإجابة عن سؤالها فى حينه . ولكن بعد أن طال تفكيرى فيه تذكرت أنى رأيت فى كتاب بعض صور لحيوانات الغابة ، وقد لفت نظرى من بينها حمار الوحش ذو الجلد المخطط ، كما لفت نظرى الفيل . وقد ربطت بين الفيل وحمار الوحش إلى درجة أن اختلط الأمر على ، حتى إنى عندما رأيت المساجين بملابسهم المخططة ظننتهم فيلة . حيوانات مفترسة .

وبعد فترة من الزمن أعلنت أمى أننا سننتقل ثانية ، سنعود إلى بلدة (هيلينا الغربية) لأنها سئمت الحياة الروتينية الجامدة التى كان بيت جدتى يسير عليها ، فقد كانت جدتى تصر على إقامة الشعائر الدينية كل يوم ، وكانت هذه الشعائر تبدأ عند شروق الشمس وتنتهى عند غروبها ،

قراءات لا تنتهى من الإنجيل ، وهمهمات لا تتوقف عند الطعام ، واعتبار يوم الأحد عطلة دينية ، لا يعمل فيه أحد . أما فى هيلينا فكنا قادرون على أن نملك منزلاً خاصًّا بنا ، لا يفرض أحد علينا فيه آراءه . وبدا لنا كل هذا مبهجًا بعد الفترة التى مرت بنا مع جدتى ، والتى كانت هى لا تفتأ تعبر فيها عن قلقها عما وصلت إليه أرواحنا . وسررت أنا لخبر هذه الرحلة . وحزمنا حقائبنا وودعنا جدتى وركبنا القطار ، ووصلنا ثانية إلى (هيلينا الغربية) .

واستأجرنا نصف منزل كان أمامه ما يشبه المستنقع الذى تنبعث منه روائح كريهة . وكان الحى مليئًا بالفئران والقطط والكلاب ، والأفاقين والعجزة ، وبائعات الهوى ، والأطفال . وكان أمام منزلنا مخزن لإصلاح القاطرات ، وكان الدخان ينبعث منه على الدوام ، وتدق الأجراس والصفارات بلا توقف . أما رماد القاطرات فكان يصل إلى السرير الذى ننام عليه ، وإلى الطعام الذى نأكله ، وكان الهواء فى المنزل مشبعًا برائحة القار .

وكنت أقف مع أخى ومجموعة من أطفال الحى نرقب الرجال وهم يعملون فى هذا المخزن . وكنا نتسلل إلى القاطرات ونمثل دور الكبار محاولين تسييرها ، ونصرخ ونهلل .

ولكن اللعبة المفضلة عندنا كانت الخوض فى مياه المستنقع الراكدة ، نبحث عن صفائح وزجاجات فارغة ، أو قطط ميتة ، أو سنتات ضائعة .

وكنا نصنع القوارب من خشب الصناديق ، ومعها المجاديف ، ونلهو بها فى مياه المستنقع .

وكانت أمى وخالتى تعملان فى مطابخ البيض ، وتتركاننى مع أخى حرّين نلهو ونلعب كما يحلو لنا ، بعد أن تتركا لنا قطعة من النقود لا تتعدى العشرة سنتات لغدائنا . وكنا نحلم ونفكر فيما ننفقها فيه . فكنا فى العاشرة نذهب إلى مشرب عند الناصية ، كان يملكه أحد اليهود ، ونشترى حلوى ومشروبات. وكان هذا طعام الغداء بالنسبة لنا .

ولم يكن قد سبق لى أن رأيت يهودياً ، ولا سمعت لغة غريبة ، فكنت أقف أمام المحل أنصت للغة صاحبه ، وكنا جميعاً نكره اليهود ، لا لأنهم يستغلوننا ولكن لأن تعاليمنا الدينية أخبرتنا أن اليهود هم الذين قتلوا المسيح . ولذا فقد كان من هوايتنا إغاظة اليهود والسخرية منهم .

وكنا نجرى إلى بقالة اليهودى ونصيح :

أيها اليهودى .

ماذا تمضغ ؟

أو نلوح بأيدينا أمام المحل ونغنى :

أيها اليهودى .

إنك تأخذ اثنين بدلا من خمسة .

وهذا ما يبقيك حياً .

أو نقول :

يا قتلة المسيح .

لا تأمن ليهودى .

يا قتلة المسيح .

إن اليهودى لا يستحى أن يفعل أى شىء .

أما الأطفال اليهود ذوو الشعر الأحمر فكنا نصيح فيهم :

شعر أحمر .

خبز يهودى .

خمسة سنتات .

ثمن رأس اليهودى .

ولنسائهم كنا نقول :

أحمر أو بيض أو أزرق .

لا يهم فقد كان أبوك يهودياً .

أمك كلبة قذرة .

فما أنت إذاً ؟

وعند ما يمر أمامنا صاحب المحل كنا نقول له :

إن البيضة الفاسدة لا تصلح .

ولا الكلب المخادع يعيش .

وكان آباؤنا وأمهاتنا يوافقوننا على كل هذه الآراء ، بل كانوا يربون

كراهية اليهود فينا من الصغر .

وفى يوم من الأيام بينما كنا نقف نلعب ونضحك ونلهو مر أمامنا رجل أسود يرتدى ملابس العمال ، فدخل المنزل المجاور لمنزلنا ، وقالت لى إحدى الفتيات : اليوم يوم السبت .

— ولماذا تخبرينني بذلك ؟

وسألتنى الفتاة غير مصدقة : ألا تعلم أنهم سيحصلون على مال وفير اليوم؟ .

وأشارت بيدها إلى الباب الذى دخل فيه هذا الرجل . وسألتها : كيف ؟

وعندئذ جاء آخر ودخل من نفس الباب . وسألتنى الفتاة وهى غير مصدقة : ألا تعلم ؟

— أعلم ماذا ؟

— ما يبيعونه .

— أين ؟

— داخل هذا المنزل الذى يدخلون إليه .

— لا يبيع أحد شيئًا بداخل المنزل .

— ألا تعلم ماذا يبيعون ؟

— كلا .

— إنك طفل إذاً .

وتركتنى بعد أن رمقتنى بابتسامة خبيثة .

وعجبت لأمرها . ماذا يحدث فى المنزل المجاور لمنزلنا ؟ ما الذى يجرى داخل هذا المنزل من سر لا أعلمه ، برغم أنى كنت أعتقد أنى دسست أنفى فى كل ما يدور فى الحى ؟ إذا كان هناك شىء يباع داخل هذا المنزل فلا بد لى من معرفة أمره .

وكان المنزل الذى نقطنه مقسماً إلى شقتين بينهما باب يمكن منه الولوج من شقة إلى أخرى ، وكان هذا الباب مغلقاً بقفل ضخم ، ولم يسبق لنا أن سمعنا أصواتاً تأتى من ورائه من الشقة المجاورة . كل ما كنا نراه رجالاً يأتون ويخرجون ، ولكن هذا لم يبدُ غريباً لعينى . أما الآن — وبعد أن لمّحت الفتاة إلى ما يدور داخل المنزل — فقد صممت على اكتشافه . فدخلت منزلنا وأغلقت الباب ورائى ووضعت أذنى على الحائط أسترق السمع . ولم أسمع إلا أصواتاً خافتة لم أميز من بينها شيئاً .

وبهدوء جررت كرسياً ووضعت عليه صندوقاً وصعدت عليه ونظرت من خلال فتحة فى أعلى الباب ، ورأيت رجلاً وامرأة على السرير ، ودهشت لهذا المنظر واهتززت ووقعت من على الصندوق ، ورقدت على الأرض ساكناً دون حركة حتى لا يشعر بى الرجل والمرأة . ولكن الهدوء ساد ، وعاد إلىّ حب الاستطلاع ، وكنت على وشك الصعود ثانية على الصندوق عندما سمعت دقاً عنيفاً على زجاج النافذة ، ورأيت صاحبة المنزل المجاور تنظر

إلىّ . وسقط قلبي فى قدمى وأسرعت أنزل ثانية من على الصندوق . وكان وجه صاحبة المنزل الأسود ملتصقاً بالنافذة يشع بالغضب ، وفمها يتحرك بأقوال لم أسمعها . وخفت أن أبقى حيث أنا أو أخرج ، لماذا لم أفكر فى إنزال الشيش قبل أن أفعل ما فعلت . يبدو أنى ارتكبت خطأ فادحاً لأن الغضب المرتسم على وجهها كان ينذر بالخطر . واختفى وجهها من النافذة ، وبعد قليل سمعت طرقاً على باب شقتنا ، وصوتاً يقول : افتح الباب يا ولد :

وارتجفت ولم أجب .

ــ افتح وإلا كسرت الباب .

وصحت : أمى ليست هنا .

ــ هذا منزلى وأنا آمرك بفتح الباب .

وتغلب علىّ صوتها وفتحت الباب ، واندفعت هى إلى الداخل ونظرت إلى الكرسى وفوقه الصندوق . لماذا لم أزل جسم الجريمة . وسألتنى : ماذا تفعل بهذا يا ولد ؟ ولم أستطع الإجابة .

ــ إنك تخيف زبائنى .

وسألت بلا فهم : زبائنك ؟

ــ أيها الحقير ، بودى لو ضربتك !

ــ كلا ، لن تضربينى .

ــ إذن سأطلب من أهلك أن ينتقلوا من هنا ، لا بد لى من أكل عيشى ، وقد أفسدت على أنت ربحى يوم السبت .

ـ كنت أنظر فقط .

ـ تنظر ؟

وابتسمت فجأة وقد خفت حدة غضبها قليلا .

ـ لماذا لا تأتى أنت أيضًا وتنفق بعض النقود ؟

ـ لا أريد أن أذهب إلى منزلك .

ـ إذاً أنت لا تريد سوى المشاغبة ، وسأطرد أهلك من هنا .

وعندما عادت أمى وخالتى من العمل مساء هذا اليوم دارت بينهما وبين المرأة مناقشات عديدة ، وسمعت صياح المرأة ، وتجمع الجيران ، وانتهت المناقشة بالرضوخ لطلب صاحبة المنزل فى أن تضربنى أمى ، ولكن أمى رفضت للمرة الأولى فى حياتها ، وقالت للمرأة :

ـ ينبغى عليك أنت أن تقلعى عن ممارسة مثل هذه المهنة فى منزلك .

ـ إنه منزلى وسأفعل فيه ما يحلو لى .

ـ لو علمت أنك تديرين مثل هذا المنزل لما انتقلت إليه .

ـ لا تكلمينى بهذه اللهجة أيتها الحقيرة .

ـ ماذا تنتظرين من الأطفال إذا كنت توافقين على مثل ما يدور فى منزلك .

ـ إن أطفالك ليسوا ملائكة .

وتدخلت خالتى فى المناقشة وصاحت فى المرأة :

ـ ما أنت إلا عاهرة من نوع رخيص .

– وأى نوع من العاهرات أنت ؟

وقالت أمى للمرأة محذرة : لا تكلمى أختى بهذه اللهجة .

وصاحت صاحبة المنزل متوعدة : احزموا متاعكم واخرجوا من منزلى فى الحال .

واضطررنا إزاء إصرارها أن نحزم متاعنا وننتقل من المنزل فى نفس الليلة إلى منزل آخر يقع فى نفس الشارع . وبرغم كل ما دار فى هذه الليلة فإننى لم أفهم تماماً نوع التجارة التى كانت تمارسها هذه المرأة . وأخبرنى الأولاد باسم هذه التجارة ، ولكن لم أفهمها تماماً ، برغم شعورى بأنها أمر سيئ للغاية .

وزادت رغبتى فى المعرفة ، وأجلتها إلى وقت آخر .

وكان هناك أمر على درجة كبيرة من السرية يدور فى منزلنا ، وقد وصل إلى مرحلة خطيرة جداً قبل أن أتبينه ، فقد كنت أسمع كل ليلة قبل أن آوى إلى فراشى طرقاً خفيفاً على نافذة غرفة خالتى ماجى ، ثم أسمع الباب يفتح خلسة ثم يسود الصمت . وفى مرة نزلت من سريرى وتسللت إلى الباب ونظرت ورأيت رجلاً حسن الملابس يحادث خالتى بصوت خفيض . وتساءلت : لماذا لا يسمحون لى بمقابلة هذا الرجل ؟ وعدت إلى سريرى ، ولكن الأصوات أيقظتنى بعد قليل ، أصوات الوداع . وفى الصباح سألت أمى عن هذا الرجل ، ولكنها أنكرت وجوده .

فقلت : ولكنى سمعته يتكلم .

– كلا ، لقد كنت نائمًا .

– ولكنى رأيت رجلاً ، يجلس فى الصالة .

– لقد كنت تحلم .

وتبينت جزءاً من هذا السر عندما نادتنى خالتى أنا وأخى إلى غرفتها ، وقدمتنا إلى رجل قالت إنه سيصبح عمنا ، ويدعى البروفسور ماثيوز . وكان يرتدى ملابس نظيفة ويضع على وجهه نظارة ، وكانت شفتاه رقيقتين وعيناه باردتين . وشعرت بأنه بارد الحس ، ولما نادانى رفضت أن أذهب إليه . وأحس هو بشعورى تجاهه ، ولذا فقد حاول استرضائى بإعطائى قطعة من ذات العشرة سنتات ، ثم ركع وأخذ يصلى من أجلى أنا وأخى ويدعونا بالشبان اليتامى . وبعد الصلاة أخبرتنا خالتى أنها ستسافر مع البروفسور ماثيوز إلى الشمال . وحزنت لهذا الخبر ، لأنى كنت أعتبر الخالة ماجى أمًّا ثانية لى .

ولم أقابل عمى الجديد بعد ذلك برغم أنى كنت أرى شواهد عديدة على حضوره إلى المنزل . ولم أفهم نوع عمله ، ولم أفهم السبب فى أنه يأتى لزيارتنا بالليل دائمًا ، ولم أفهم سبب صوته الخفيض الذى لا يكاد يسمع ، ولم أفهم من أين يأتى بالمال الذى يشترى به هذه الملابس النظيفة . وزاد فى دهشتى أنا وأخى أن أمنا استدعتنا فى يوم من الأيام وحذرتنا من أن نخبر أحداً بزيارات هذا العم ، لأن بعض الناس يبحثون عنه .

وسألتها : من الذى يبحث عنه ؟

— بعض البيض .

وزاد قلقى . وبدا لى الخطر الأبيض ثانية . وسألتها : ماذا يريدون منه ؟

— لا شأن لك بهذا .

— ولكن ماذا فعل ؟

— أقفل فمك وإلا تعرضت أنت أيضًا للبيض .

ويبدو أن أمى لمست شعورنا بالحيرة من أمر هذا العم فطلبت من الخالة ماجى أن تحثه على رشوتنا . ففى كل صباح بعد ذلك كان الأمر يبدو كأننا فى عيد الميلاد ، لما كان يجلبه من طعام . وفى يوم من الأيام أهدانى كلبة فأطلقت عليها اسم « بيتس » وأصبحت زميلتى ورفيقتى .

وبعد ذلك بدأ العم يزورنا بالنهار ، ولكن كانت أمى تسدل كل ستائر النوافذ ، وتمنعنا من الخروج إلى أن يغادر هو المنزل . وأخذت أسألها آلاف الأسئلة ، ولكنها كانت ترد عليها جميعها بقولها :

— إن الأمر أكبر من أن تفهمه . واصْمُتْ الآن واذهب للعب .

وفى ليلة من الليالى استيقظت على صوت نحيب . وتسللت إلى الباب ونظرت ؛ فرأيت العم يجلس على الأرض بجانب النافذة وينظر منها بحذر . أما أمى فقد كانت تعد حقيبة سفر . واعتصرنى الخوف . هل ستغادرنا أمى ؟ لماذا تبكى خالتى ؟ هل يطاردنا البيض ثانية ؟

وسمعت صوت العم يقول : أسرعى ، يجب أن نغادر هذا المكان .

وقالت أمى : أرجوك يا ماجى ، لا تغادرينا .

وقال العم لأمى : لا تتدخلى فى هذا الموضوع .

وسألت الخالة : ولكن ماذا فعلت ؟

وقال العم : سأخبرك فيما بعد ، والآن يجب أن نغادر هذا المكان قبل أن يأتوا .

وقالت الخالة : ولكن لا بد أنك أتيت أمراً خطيراً ، وإلا لما اضطررت للهرب بهذا الشكل .

وقال العم : إن المنزل اشتعل بالنيران ، وعند ما يرونه سيدركون من فعل هذا العمل .

وسألت أمى : ولكن هل أشعلت أنت النار فى المنزل ؟

ورد العم بضيق : لم يكن أمامى غير هذه الوسيلة ، فقد أخذت النقود وضربتها ، وفقدت هى الوعى ، وإذا وجدوها فستخبرهم ، وأضيع أنا ، ولذا فقد أشعلت النار فى المنزل .

وقالت خالتى وهى تبكى : ولكنها ستحترق .

ورد العم : لم يكن أمامى من مفر ، لم أكن مستطيعاً أن أتركها ، ليجدها أحد ، ويعرف أن أحداً ضربها ، أما إذا احترقت فلن يعرف السر أحد ! .

وملأنى الرعب . ماذا يحدث ؟ هل يطاردنا البيض ؟ هل ستتركنا أمى ؟

وصرخت أجرى مناديـًا أمى ، وقفز العم ، وبندقيته فى يده ، وصوبها نحوى ، وحملقت فى وجهه ، وأحسست أنى سأموت بعد لحظة .

وهمست أمى برعب : ريتشارد !

وصرخت أنا : إنك ستغادرينا .

وأسرعت أمى إلىّ ووضعت يدها على فمى ، وسألتنى : أتريد أن يقتلونا جميعـًا ؟

وهدأت قليلا ، وقالت أمى : عد إلى النوم .

ـ إنك ستغادرينا .

ـ كلا .

ـ بل ستفعلين ذلك ، وأنا أرى الحقيبة .

وأمسكت أمى بذراعى بشكل قاس حتى إن الألم جعلنى أتوقف عن البكاء .

ـ عد إلى سريرك .

وقادتنى ثانية إلى غرفتى ، ورقدت على السرير أستمع إلى الهمس ، ووقع الأقدام ، وصرير الأبواب فى الظلام ، ونحيب خالتى ماجى . وأخيراً سمعت صوت حصان وعربة تقترب من المنزل ، ثم سمعت صوت جر الحقيبة . ودخلت خالتى إلى الحجرة وودعتنى هامسة ، وقبلتنى ،

وقبلت أخى الذى كان نائماً ، ثم رحلت .

وفى الصباح نادتنى أمى إلى المطبخ ، وأخذت تحدثنى طويلا وتحذرنى من أن أخبر أحداً بما رأيت ؛ وإلا قتلنى البيض إذا ما شكوا أنى أعرف . ولم أتمالك هنا أن أسألها : أعرف ماذا ؟

ـ انس ما رأيت بالأمس .

ـ ولكن ماذا فعل العم ؟

ـ لا أستطيع إخبارك .

ـ هل قتل أحداً ؟

ـ إذا سمعك أحد تقول هذا فستموت أنت .

وكان هذا فصل الخطاب بالنسبة لى . لن أذكر شيئاً أبداً . وبعد بضعة أيام زارنا رجل أبيض يضع على صدره شارة تلمع ،وأخذ يتحدث مع أمى طويلا . ولم أسمع خلال المحادثة إلا صوت أمى تقول :

ـ أنا لا أعلم شيئاً مما تتحدث عنه . أمامك المنزل فقم بتفتيشه . ونظر الرجل الأبيض إلىَّ وإلى أخى ولم يفه بكلمة واحدة . وأخذت لفترة أسابيع أفكر فى المسألة وأديرها فى ذهنى ، ولكن لم يقدر لى أن أعرف أبداً ، حتى فى السنوات التالية .

* * *

ولما رحلت خالتى ماجى ، أصبح دخل أمى لا يكفى لإطعامنا ،

وبقيت أمعاؤنا تتاوى من الجوع ورؤوسنا تدور من وطأة الحرمان . واشتد على الجوع فى يوم من الأيام حتى إنى قررت أن أبيع كلبتى بيتس وأشترى بثمنها طعاماً. وحملتها تحت إبطى بعد أن غسلتها ومشطت شعرها وأصبح منظرها جميلا ، وتوجهت إلى الحى الذى توجد به المنازل البيضاء النظيفة ، وطرقت الأبواب ، وكان بعض سكانها يغلقون الباب فى وجهى ، والبعض الآخر يطلب منى أن أذهب إلى الباب الخلفى ، ولكن كبريائى منعتنى من ذلك . وأخيراً صادفتنى امرأة بيضاء ، ابتسمت فى وجهى وسألتنى : ماذا تريد ؟ .

— هل تريدين شراء كلبة جميلة ؟ .

— دعنى أراها .

وأخذت الكلبة بين يديها وداعبتها وقبلتها وسألت : ما اسمها ؟

— بيتس .

— إنها ظريفة ، وماذا تريد ثمناً لها ؟

— دولاراً .

— انتظر برهة .

وأخذت الكلبة إلى داخل المنزل وانتظرت أنا ، وأخذت أجول بنظرى فى نظافة المكان وهدوئه . وشعرت أنى غريب عن هذا المكان ، ولم أشعر برغبة فى أن أقيم فيه . وتذكرت أن هذه مساكن البيض ، البيض الذين يطاردون السود ويجعلونهم يهربون فى وسط الليل . وتجمدت فى مكانى ،

هل سيقتلنى أحد لأنى أقف فى هذا المكان ؟ ما الذى أخر هذه المرأة ؟ هل ستزعم أن الولد الأسود أهانها ؟ لعلها تأتى بالبيض الآخرين الآن ! وزاد قلقى فأنسانى الجوع . وددت لو أسرعت من هذا المكان إلى أمن السود وطمأنينة حيهم .

وانفتح الباب وظهرت المرأة تبتسم وتحمل بيتس بين ذراعيها ، ولكنى لم أر ابتساستها ، فقد أعمانى الخوف .

وقالت : إنى أحب هذه الكلبة ، وسأشتريها ، ولكن ليس معى دولار . ليس معى سوى ٩٧ سنتا .

ولم تكن تعلم أنها بقولها هذا قد أعطتنى الفرصة لأرفض بيع الكلبة للمرأة البيضاء .

— كلا يا سيدتى ، إنى أريد دولاراً .

— ولكن ليس معى دولار .

— إذاً لن أبيع الكلبة .

— سأعطيك السنتات الثلاثة عند ما تعود أمى الليلة .

— كلا يا سيدتى .

وأطرقت برأسى إلى الأرض .

— اسمع ، لقد قلت دولاراً .

— نعم ، يا سيدتى .

— إذن خذ ٩٧ سنتاً .

ومدت يدها بالنقود ، وأمسكت بالكلبة .

ـ كلا يا سيدتى ، أريد دولاراً ، لقد طلبت منى أمى أن أبيع الكلبة بدولار .

وشعرت أنى أخذت أتصرف بعداء ، فخففت من لهجتى ، وحاولت أن أضع اللوم على كتف أمى .

ـ سأعطيك الدولار الليلة .

ـ كلا يا سيدتى .

ـ إذن اترك الكلبة وعد فى المساء لتحصل على الدولار .

ـ كلا يا سيدتى .

ـ ولكن ماذا تريد شراءه بدولار الآن .

ـ أريد شراء شىء أقتات به .

ـ إذن ستكفيك الـ ٩٧ سنتاً ، يمكنك أن تشترى الكثير بها .

ـ كلا يا سيدتى ، أريد كلبتى .

ونظرت إلى واحمر وجهها ، وألقت بالكلبة إلى وقالت :

ـ ها هى ذى كلبتك ، وامش من هنا ، إنك زنجى مجنون .

وأخذت بيتس وأسرعت أجرى إلى الحى الزنجى ، والسعادة تغمرنى ، والجوع يعاودنى . هل كان من الأفضل أن آخذ الـ ٩٧ سنتاً ؟ ولكن الوقت فات الآن . وأمسكت ببيتس وانتظرت . ولما عادت أمى أخبرتها بما حدث ، وسألتنى :

ـ ورفضت أن تأخذ النقود ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ لا أعلم .

ـ ألا تعلم أن ٩٧ سنتاً تكاد تكون دولارا ؟

ـ نعم ، أعلم ، ولكنى شعرت أنى لا أريد بيع بيتس للبيض .

ـ لماذا .

ـ لأنهم بيض .

ـ إنك غرير .

وبعد أسبوع قتلت بيتس تحت عجلات لورى . وبكيت طويلا ودفنتها فى الفناء الخارجى . وكان تعليق أمى الوحيد على موتها هو : كان بإمكانك أن تحصل على دولار ، أما الآن فلن تفيدك كلبتك .

ولم أجب .

ومرت الأيام وأخذت تحمل لى إمكانيات جديدة وأفكاراً خرافية . . .

إذا ريت إحدى الراهبات الكاثوليكيات فى الشارع ورأت أسنانى ؟ فسأموت لا محالة ! . .

إذا مشيت تحت سلم فسيكون هذا معناه خطأ سيئ بالنسبة لى !

إذا تمكنت من تقبيل مرفق فسأنقلب إلى بنت !

إذا أحسست برغبة فى هرش إذنى اليمنى فمعنى هذا أن بعضهم يتكلم كلاماً حسناً عنى !

إذا لمست أحد العجزة ، فلن أمرض أبداً .

إذا وضعت دبوساً على قضيب السكة الحديد ومر عليه القطار ، فسينقلب الدبوس إلى مقص !

إذا سمعت صوتاً ولم أر شخصاً ، فالله أو الشيطان لا بد يناديني !

إذا شعرت بهرشة فى أنفى ، فسيزورنا زائر !

إذا سخرت من أحد العرج ، فسأعاقب بأن أصبح أعرج أيضاً !

إذا نطقت باسم الله دون سبب ، فسأموت !

إذا أمطرت السماء والشمس مشرقة ، فهذا يعنى أن الشيطان يضرب زوجته !

إذا زاد بريق النجوم ، فهذا دليل على أن الملائكة فى حبور وسعادة. وبما أن النجوم هى الثقوب التى تؤدى إلى الجنة ، فلا بد أن الإشعاع يأتى من مرور الملائكة بها !

إذا كسرت مرآة ، فستمر بى سبعة أعوام من الحظ السيئ !

إذا عاملت أمى برعاية ، فسأحيا طويلا وأثرى كثيراً !

إذا أصبت ببرد وربطت جورباً حول عنقى ، فسأشفى !

إذا ربطت حول عنق كيساً به بعض نبات (أبو كبير) ، فسيشفيني هذا من نزلة البرد !

إذا نظرت إلى الشمس من خلال نظارة فى يوم عيد الفصح ، فسأراها تهتف فى مدح المسيح !

إذا اعترف المريض وهو على فراش المرض ، فلا بد أنه يقول الحقيقة ، لأن الإنسان لا يكذب وهو يواجه الموت !

إذا بصق الشخص على وجه الأذرة عند غرسها ، فسيكون الحصاد وفيراً !

إذا غطيت المرآة والعاصفة تهب ، فلن يصيبنى البرق !

إذا مررت على مكنسة ملقاة على الأرض ، فسيصادفنى حظ عثير !

إذا سرت أثناء نومى ، فمعنى هذا أن الله يقودنى إلى مكان أقوم فيه بعمل يرضيه !

كان كل شىء يبدو ممكناً ، لأنى أردته كذلك . لم تكن لى القدرة على أن أجعل شيئاً خارجاً عنى يحدث ، فركزت اهتمامى على ما يحدث بداخلى . ونظراً إلى أن الجو المحيط بى كان عارياً ومملا ، فقد ملأته بالاحتمالات المسلية .

وأصبح الخوف من البيض يلازمنى كظلى فى شعورى وخيالاتى . وعند قرب انتهاء الحرب اشتعلت نيران الصراع العنصرى فى الجنوب بأسره . وبرغم أنى لم أشترك أو أشهد بعينى هذا الصراع إلا أنى كنت أحس به .

ولقد كانت الحرب ذاتها تبدو غير حقيقية لى، ولكنى كنت قد دربت نفسى على أن أتفاعل مع كل إشارة أو همسة أو كلمة أو خبر — أو حتى إشاعة — تمس الصراع العنصرى . ولم يمس شغاف قلبى شىء كشعور الكراهية الذى كان يشع من البيض ، حتى لو لم يظهروا على مسرح حياتنا . وكنت أقف ساعات طويلة على أبواب الجيران أسترق السمع لما يقولون ، وأفهم كيف أن امرأة بيضاء صفعت امرأة سوداء على وجهها ، وكيف قتل الأبيض الأسود . وكنت أزداد خوفاً وعجباً لما أسمع ، ولم أتوقف عن السؤال .

وفى ذات ليلة ، سمعت قصة جعلتنى أسهر الليالى دون نوم ، قصة امرأة زنجية اختطف البيض زوجها وقتلوه ، وكيف أن هذه المرأة أقسمت أن تنتقم لموته ، وكيف أنها أخفت بندقية فى ملاءة سرير ، وذهبت تتوسل إلى البيض ليتركوا لها جثة زوجها . ولما سمحوا لها بالاقتراب من الجثة ، ركعت بجوارها وأخذت تصلى ، ثم تناولت الملاءة ، وقبل أن يدرك البيض ما تنويه أطلقت النار عليهم ، وكان عددهم أربعة ، وقتلتهم جميعاً وهى راكعة !

ولم يمكنى أن أتبين ما إذا كانت القصة حقيقية أم لا ، ولكنى كنت أشعر أنها حقيقية ، لأنى بدأت أفهم وأحس أن هناك رجالاً من البيض يقف الشخص منا أمامهم ولا حول له ولا طول . وأقسمت أنا الآخر إنى أحذو حذو هذه المرأة إذا ما دفعتنى الظروف إلى مثل موقفها ،

فأقتل البيض فى اللحظة التى يظنون أنى قد خضعت لقسوتهم .

واقتنعت أن هذه القسوة هى قانون حياتى . وكان لقصة هذه المرأة أثر بعيد على شعورى العدائى الذى كان رابضًا داخل نفسى المضطربة .

ولم يكن لكل هذه الخيالات أية قيمة فعلية ، لأنى كنت أشعر بمدى ضعفى فى وجه الخطر الأبيض الذى قد ينقض على فى أية لحظة ، وبرغم أنى كنت واثقًا أنه لا سبيل أمامى للخلاص إذا ما واجهت هذا الخطر الداهم . ولم تكن هذه الخيالات سوى حائط أدبى يسندنى ويعزز شخصيتى حتى أستطيع أن أمر وأعيش تحت وطأة هذا التهديد .

وأصبحت هذه الخيالات جزءاً من حياتى العاطفية ، بل أصبحت هى ثقافتى ومعتقداتى ودينى . ولم تعد مجرد عداء ، لأنها فقدت الصلة بينها وبين أحداث الحياة اليومية وانغرست فى كيانى ، وأخذت تنمو وتكبر وتتغذى على ما أسمعه من أخبار البيض . كنت أحس بالضيق لمجرد سماع اسم واحد منهم يذكر ، وأشعر كأن الطبيعة — بأحد عناصرها القاسية — قد أطبقت على دون أن أتوقع ، برغم أن البيض لم يكونوا قد اعترضوا طريق حياتى أنا شخصياً .

وأمضيت فترة طويلة فى (هيلينا الغربية) قبل أن أعود إلى المدرسة وأواصل دراساتى المنتظمة . وحصلت أمى على عمل فى عيادة أحد الأطباء البيض ، كانت تتقاضى عنه خمسة دولارات فى الأسبوع . وكان هذا أجراً خيالياً ، ولذا فقد تمكنت من إدخالنا إلى المدرسة . وكنت سعيداً .

ولكنى كنت لا أزال خجولاً فى حضرة الجماهير . وكنت موضع ضحك وسخرية التلاميذ فى اليوم الأول من الدراسة ، فقد طلبت منى المدرسة أن أكتب اسمى على السبورة وأضيف إليه عنوان سكنى . وبرغم أنى كنت أعرف الاثنين تماماً ، إلا أنى تجمدت وشلت حركتى ولم أستطع كتابة حرف واحد .

وصاحت بى المدرسة : اكتب اسمك .

ورفعت قطعة الطباشير وهممت أن أبدأ الكتابة ، ولكن ذهنى توقف ولم أستطع أن أتذكر لا اسمى ولا عنوانى ، أو حتى أول حرف من اسمى . وضحك الأولاد وتجمدت أنا . وحثتنى المدرسة بقولها :

— لا تبال بنا واكتب اسمك وعنوانك .

ولكن يدى رفضت الحركة ، وأخذ الأولاد يضحكون ويسخرون منى ، وسألتنى المدرسة : ألا تعرف اسمك ؟

ونظرت إليها ولم أرد ، وتقدمت هى نحوى مبتسمة ووضعت يدها بعطف على كتفى وسألتنى : ما اسمك ؟

وهمست : ريتشارد .

— ريتشارد ماذا ؟

— ريتشارد رايت .

قل لى الحروف التى يتكون منها اسمك .

وقلتها ، وقالت هى : قلها ببطء .

وفعلت .

ـ والآن هل يمكنك كتابتها ؟

ـ نعم يا سيدتى .

ـ اكتبها إذن .

والتفت إلى السبورة ورفعت يدى لأكتب ، ولكن ذهنى أظلم ، وحاولت أن أسترجع حواسى ولكن بلا جدوى . وأدركت مدى فشلى وخيبتى وخاصة وأنا أسمع أصوات الضحك ـ وطلبت منى المدرسة العودة إلى مكانى .

وجلست ألعن نفسى . لماذا أبدو كالبُلهاء إذا ما طلب منى أحد أن أقوم بعمل شىء أمام الناس ؟ أنا أعرف تماماً كيف أكتب اسمى ، وأعرف أنى أستطيع الكتابة والقراءة أحسن من أى ولد فى الفصل ، وأعرف كيف أعبر بطلاقة عما يجول فى خاطرى . إذاً ما الذى يحدث لى ؟ وجلست وأذناى تكادان تشتعلان ، جلست صامداً صامتاً كالصخر والعاطفة تتأجج بداخلى !

وفى يوم من الأيام سمعت وأنا جالس فى الفصل أصوات صفارات وأجراس ، واقتربت هذه الأصوات ، وارتعدت المدرسة وغادرت الفصل . وعندما عادت طلبت منا أن نحزم كتبنا ونعود إلى بيوتنا . ولما سألنا عما حدث أعلنت أن الحرب قد انتهت .

وتبعت الأولاد خارج المدرسة ، ورأيت البيض والسود يضحكون

ويهللون ويغنون ، وعند ما وصلت إلى الحى الذى أقيم فيه كانت الابتسامات تعلو الوجوه ، ولم أفهم ما هى الحرب وما معناها . وشاهدت بعض الأولاد والبنات يشيرون إلى شىء فى السماء ، ونظرت معهم فرأيت ما يشبه الطائر الصغير يدور فى السماء ، وسمعتهم يقولون إنها طائرة . ولم يكن قد سبق لى أن شاهدت طائرة . وضحك الأولاد منى .

وقال أحد الرجال : إنها طائرة يا ولد .

وقلت أنا : إنها طائر وأنا أراه أمامى الآن !

ورفعنى رجل على كتفه ، فقال : تذكر يا ولد أن ما تراه الآن هو رجل يطير .

ولم أصدق ما يقول ، فقد كان هذا الشىء يبدو كالطائر . وفى المساء أقنعتنى أمى أن باستطاعة الإنسان أن يطير .

وحل عيد الميلاد ولم يكن معى سوى برتقالة واحدة ، وتألمت ورفضت أن أخرج من المنزل حتى لا أرى الأولاد يمرحون بلعبهم وصواريخهم . وأكلت البرتقالة فى المساء قبل أن آوى إلى فراشى ، مصصتها أولاً ثم قشرتها وأكلت ما بداخلها .

الفصل الثالث

كبرت وانضممت إلى شلل الأولاد الكبار ، وكانت الرابطة بيننا جميعاً هى الشعور بالكراهية للبيض، وكان الواحد منا يقاس بمدى كراهيته وعدائه للبيض . وكل هذا لم يأت نتيجة لتفكير أو تدبير ، بل كان شعوراً منبثقاً منا ، ومن أحاديثنا مع أولاد الأحياء الأخرى .

وكنا نأنف من اللعب مع البنات ، وأبعدناهن إلى جزيرة نائية من الحياة . وبدأ دور الجنس يظهر بيننا . وكنا نتبادل البذاءات ونعتقد أنها الدليل على رجولتنا ، وندعى أننا نتحدى أوامر آبائنا وأمهاتنا لنقنع أنفسنا أننا مسئولون عن تصرفاتنا . ولكننا مع ذلك كنا نحاول إخفاء مدى اعتمادنا على بعضنا .

وكنت أنضم إلى الشلة بعد ساعات الدراسة ، ونجلس فى الحقول أو الشوارع ونتبادل الحديث . مثال ذلك :

ـ هل أكلت ؟

ـ نعم .

ـ ماذا أكلت ؟

ـ بطاطس وكرنب .

ـ لن أقف بجوارك أيها الزنجى .

ـ لماذا ؟

ـ لأن رائحتك كريهة !

ثم نضحك على أقوالنا ، ونواصل الكلام :

ـ إن البيض لن يتركوك أيها الزنجى ، سيمسكون بك ويرسلونك إلى حديقة الحيوانات ، ويحتفظون بك هناك حتى تأتى الحرب التالية ، وإذا ما بدأ القتال أرسلوك إلى المعركة لتموت .

ويزداد الضحك .

ـ إن الحروب لن تكسب إلا إذا اكتشفوا نوعاً جديداً من الغازات السامة .

ـ إن الغاز السام مفيد ، وسأقتل كل البيض بواسطته .

ـ إن البيض يخافون منا .

ـ نعم ، يبعثون بك إلى الحرب لتهزم الألمان ، يعلمونك كيف تقاتل وتقتل ، وعندما تعود يخافون منك لدرجة أنهم يريدون قتلك أنت الآخر !

ـ لقد أخبرتنى أمى أن السيدة البيضاء التى تعمل عندها هددتها بالضرب .ولكن أمى هددتها بالقتل إن هى ضربتها .

ـ لو قالت هذا لى لقتلتها .

ـ يا رجل ، إن هؤلاء البيض أوغاد بلا شك .

— ولهذا يغادر كثير من السود الجنوب .

— والبيض لا يريدونك أن ترحل ، يريدون إبقاءك لتعمل لهم حتى الموت .

— سأقتل أول أبيض يحاول مضايقتى .

— لن يجديك هذا ، سيمسكونك .

— إن البيض يجلسون طوال اليوم يفكرون فى الإمساك بالسود .

— هل تعتقد أن هناك أملاً فى أن يتغير هؤلاء البيض ؟

— كلا ، لقد ولدوا بهذا الشكل .

— لن أبقى هنا ، سأرحل إلى الشمال عندما أكبر .

— إن الأسود يعامل معاملة حسنة فى الشمال .

— يقولون إن أحد البيض ضرب أحد السود فى الشمال ، ولما قتله الأسود لم يعاقب على جريمته .

— إن الشمال يؤمن بالعدالة .

— إنهم يشيدون مبانى عالية فى الشمال . يقولون إن هناك بناء فى نيويورك يتألف من أربعين طابقاً ، هل هذا صحيح ؟ !

— كلا ، لا يمكن .

— اسكت أيها الزنجى ، إنها حقيقة .

— لا تردد مثل هذه الأقوال ، إن مثل هذا البناء ستطيح به الريح ويسقط .

ـ لا تجعل البيض يهزءون منك .

ثم نعود ثانية إلى مشكلة البيض والسود ، ويقول واحد منا :

ـ لماذا يعاملنا البيض بهذه النذالة ؟

ـ سأبصق كلما رأيت واحداً منهم .

ـ إنهم قبيحون جداً .

ـ هل سبق لك أن اقتربت من رجل أبيض وشممت رائحته ؟

ـ إنهم يقولون إن رائحتنا نحن كريهة ،ولكن أمى تقول إن البيض تنبعث منهم رائحة تشبه رائحة الموت .

ـ إن السود يعرقون وتنبعث رائحة عرقهم ، أما البيض فرائحتهم دائمة . . .

ويستمر مثل هذا الكلام ، دون هدف أو اتجاه ، يمس كل نواحى الحياة ويعبر عن كل رغبات الطفولة . المال ، الله ، الجنس ، اللون ، الطائرات ، الآلات ، القطارات ، السباحة ، المصارعة ، أى شىء . وتنتقل ثقافة بيت أسود إلى البيت الآخر ، وتقاليده ، من جماعة إلى جماعة . وفى هذا الكلام اكتشفت أفكارنا ، احتفظنا ببعضها ، وألقينا بالبعض الآخر بعيداً ، وتقبلنا بعضها ورفضنا البعض الآخر . وعندما يسدل الليل أستاره ،ونسمع أصوات الضفادع ،ونشاهد أضواء مصابيح الكيروسين فى نوافذنا ، تنادى علينا الأمهات لنعود . ولا يرد أحد على نداء الأمهات ؛فقد كان هذا دليلاً على الاعتماد عليهن . ولكننا نعود ونسرع

نلبي طلباتهن ، ونحمل الماء ، أو نقوم بإحضار المشتريات من البقالة .

وفي أيام الآحاد كانت أمي تأخذنا إلى مدرسة الكنيسة ، ولم نكن نعترض ؛ ليس لأن الكنيسة هي المكان الذي نواجه في تعاليمه الله ، بل لأننا كنا نلتقي فيها بأصدقائنا ونواصل اللعب والحديث . وبرغم أن بعض قصص الإنجيل كانت مسلية إلا أننا كنا نحور ونغير فيها بما يتفق وحياة الشوارع التي كنا نحياها ، ولا نتقبل المعاني التي لا تتفق وبيئتنا .

وكنا قد وصلنا إلى سن تجعل الأولاد البيض يخافون منا ، ودار الصراع بيننا وبينهم ، الصراع الذي دفعتنا إليه الغريزة . وكنا نتبادل الشتائم والأوصاف ، وكنا قد اتفقنا مع البيض على أن نبقى داخل حدود أحيائنا ، ويبقوا هم داخل حدودهم ، وإذا ما أمسكنا بواحد منهم يتخطى الحد المعين كنا نقذفه بالحجارة ، وإذا ما تخطى واحد منا حدوده كانوا يقذفونه بالحجارة .

وكانت معاركنا حقيقية تسيل فيها الدماء ، كنا نلقى بالحجارة والعصى والزجاجات المكسورة . وكنا نتوق إلى أسلحة أكثر خطورة . وإذا ماجرح واحد منا كنا نتقبل الهزيمة بهدوء ، ونحاول إخفاء جروحنا عن أهلنا إذا ما كانت طفيفة . لقد كانوا يضربوننا إذا ما علموا أننا قاتلنا .

وفي أثناء إحدى المعارك مع البيض جرحت خلف الأذن جرحًا عميقًا ، وسال دمي ، وحاولت إيقافه ولكن أمي لاحظته ، ولما سألتني

وأصرت على المعرفة ، أخبرتها ،لأن الحالة كانت تستدعى علاجاً طبياً ، وفعلا قام الطبيب بعمل خياطة لتضميد جرحى . ولكن أمى ضربتنى حذرتنى من القتال مع البيض ، وإلا قتلونى ، وقالت إنها تعمل ليل نهار ولا وقت لديها لمثل هذه الأفعال . ولكن كلماتها راحت هباء ، لأنها لم تتفق وقانون الشارع . وبرغم أنى وعدتها بعدم القتال إلا أنى كنت أعلم أن وعدى هذا لن ينفذ، فلم أكن أرغب فى أن أفقد مكانتى بين الشلة . . . وكانت هى حياتى !

ومرضت أمى مرضاً شديداً وأصبحت غير قادرة على العمل ،وأخذت أقوم ببعض الأعمال فى الحى لأكسب عيشى . وكان أول عمل قمت به هو عمل طعام الغداء للرجال الذين يعملون فى المصنع . وكنت أحصل منه على ٢٥ سنتاً فى الأسبوع ، وكنت أجمع فتات الأكل بعد أن ينتهى الرجال منه . ثم حصلت على عمل فى أحد المقاهى الصغيرة ، أحمل الخشب للمدفأة وأنظف الموائد ، وأحمل الأكل للزبائن ، وكنت أحصل منه على دولار فى الأسبوع . ولكن يبدو أن العمل كان أكبر من سنى ؛ ففى يوم من الأيام سقطت ووقعت منى الصوانى وطردنى صاحب المقهى .

ولم نتمكن من دفع إيجار المنزل واضطررنا إلى الانتقال إلى منزل أحقر يقع فى وسط مياه الفيضان . ولكن حتى هذا لم نستطع أن ندفع إيجاره ، فانتقلنا قرب وسط المدينة . وهناك وجدت عملاً عند أحد الكوائين ، وكنت

أحمل الملابس إلى الفندق وأكنس الأرض وأستمع إلى الكبار يتكلمون عن حياتهم وعن أمجادهم مع النساء .

ولكننا انتقلنا ثانية إلى خارج المدينة بجوار السكك الحديدية ، وكنت أنقل الفحم المتبقى بها لندفئ به منزلنا .

وساءت صحة أمى ، وأخذت تبدى رغبتها فى الانتقال إلى منزل جدتى ، وكيف أنها تريد أن تحيا لترانا وقد كبرنا وأصبحنا رجالا . وكانت قد ضعفت لدرجة أن حديثها بدا غير مفهوم . وبدأت أنا أحس بوطأة الفراغ الذى ستتركه . وتملكنى الخوف ، وكنت أجلس بجوارها أطيل النظر إليها ، وزادت وطأة المرض عليها ، ووقفت أنا وأخى ننتظر والجوع ينهش أحشاءنا .

وفى صباح أحد الأيام استيقظت على صوت يصيح : « ريتشارد ريتشارد » .

ورأيت أخى يدخل مهرولاً إلى الغرفة ويقول :

ـ أسرع يا ريتشارد ، إن أمى مريضة جداً .

وجريت إلى غرفة أمى ورأيتها نائمة على السرير مرتدية ملابسها ، وقد فغر فاهها وحملقت عيناها . وناديتها وأنا لا أصدق أنها لن تستطيع أن تجيبنى .

ولكنها لم تجب أو تحرك رأسها ، وهززتها ، ولكنها لم تتحرك . وتراجعت

خائفاً أن تكون قد ماتت . وصحت ثانية : « ماما » .

وهززتها مرة أخرى وتحركت وندت منها أنة ، وناديتها أنا وأخى مراراً ، ولكنها لم تتكلم ، وقلنا لبعضنا : « يحسن بنا أن نستدعى أحداً » .

وجريت وناديت إحدى الجارات ، وأنت ونادت أمى ، وأخذت تتحسس يدها . وأخيراً قالت : « إنها لم تمت ، ولكنها مريضة ، ويجب أن أستدعى بعض الجيران » .

وأتت ست أو سبع نساء وانتظرت مع أخى فى الصالة بينما خلعت النساء الملابس عن أمى . وعندما عدنا إلى الغرفة قالت لنا واحدة منهن :

ـ يبدو أنها أصيبت بشلل .

وقالت أخرى : إنها ما زالت شابة .

ووقفت أنا وأخى بظهورنا إلى الحائط ولم نفهم معنى هذه الكلمات . هل ستموت أمى ؟ وسألتنى واحدة إذا كان بالمنزل نقود . ولم أكن أعلم . وبحثت النساء فى الدواليب ووجدن دولاراً وسنتين ، واستدعينا أحد الأطباء . وحضر الطبيب وقال إن أمى أصيبت بشلل ، وإن حالتها خطيرة ، وإنها بحاجة إلى من يعنى بها ليلا ونهاراً ، وإلى دواء ، وسألنا عن زوجها وأخبرته بالقصة وهز هو رأسه .

وأخذت أبحث فى الدواليب وعثرت على عنوان جدتى ، وكتبت إليها متوسلا أن تحضر لرعاية أمى . وبقيت النساء معنا يمرضن أمى ويعنين بنا أنا

ونسير بخطى حذرة . وكان الجو مشبعًا برائحة الدواء والأطباء يأتون ويروحون وكنت أسمع أمى تتألم ليل نهار ، فأظن أنها ستموت بين لحظة أو أخرى .

وأتت خالتى « كليو » من شيكاجو ، وخالى « كلارك » من جرينوود بولاية (ميسيسبى) ، وخالى « إدوارد » من كارترز بميسيسبى وخالى « تشارلس » من (موبايل) بولاية (الأباما) ، وخالتى « آنبى » من مدرستها الدينية (بآلاباما) ، وخالى « توماس » من (ميسيسبى) . وكنت أسمع همسهم وهم يتساءلون عما سيحدث للأطفال . وخفت لأن الأغراب — لأنهم كانوا أغرابًا برغم قرابتهم لى — يدرسون مستقبلى . ولم يكن قد سبق لى أن شاهدت إخوة أمى . وفى يوم من الأيام استدعانى الخال « إدوارد » وأخذ يتحسس ذراعى ورجلى التى أضعفها الجوع ، ثم قال إنى بحاجة إلى غذاء .

وشعرت بالخجل ، وقالت جدتى إنى إذا ما أكلت جيداً فستشتد ساعداى . وبعد مداولات العائلة استقر الرأى على أن يفرق بينى وبين أخى ، لأننا كنا حملا ثقيلا إذا ما أخذنا أحد الأقارب نحن الاثنين . أين سأذهب يا ترى ؟ من منهم سيأخذنى ؟ وزاد قلقى . . .

وأخذت أحلم أحلامًا مزعجة ، واستيقظت صائحًا برعب ، فيسرع إلى الكبار ، وأحملق فيهم ثم أعود للنوم ثانية . وفى ليلة من الليالى وجدت نفسى واقفًا فى الفناء الخارجى ، وكان القمر ساطعًا بنوره ، والصمت

والسكون يحيطان بى ، وفجأة شعرت أن شخصاً ما يمسك بيدى ونظرت ورأيت أحد أخوالى يكلمنى فى صوت رقيق ويقول :

— ماذا بك يا بنى .

وحملقت فى وجهه محاولا أن أفهم ما يقول ، واستطرد هو : ماذا تفعل هنا يا ريتشارد ؟

ولم أجب ، وهزنى هو ، وأفقت ونظرت أمامى نظرة فارغة !وسألته :

— أين نحن ذاهبان !

— لقد كنت تسير وأنت نائم .

وأخذت جدتى تعتنى بغذائى وتأمرنى أن أستريح بعد الظهر ، وبعد فترة شفيت من مرض السير فى أثناء اليوم . وضاقت نفسى وقررت أن أغادر منزل جدتى بمجرد أن أستطيع أن أكسب عيشى . ولم أقرر هذا لأن أحداً أساء إلىّ أو عاملنى بقسوة ، ولكن لأنى كنت أعلم أن الجميع يفتقرون إلى المال . وتجنبت الدخول إلى حجرة أمى حتى لا أرى ألمها وشحوبها ، وكانت لا تزال فاقدة النطق تحملق فى الفضاء .

وفى إحدى الليالى استدعيت أنا وأخى إلى مؤتمر من الخالات والأخوال ، وقال أحدهم : ريتشارد ! إنك تعلم مدى مرض أمك .

— نعم يا سيدى .

— وتعلم أن جدتك أضعف من أن تعنى بكما أنتما الاثنين .

— نعم يا سيدى .

وانتظرت القرار : الخالة ماجى ستأخذ أخاك معها إلى ديترويت وتدخله المدرسة .

وانتظرت . من يا ترى سيأخذنى أنا ؟ لقد كنت أود الذهاب مع الخالة ماجى . ولكنى لم أجرؤ على معارضة قرار العائلة .

وسألنى خالى : أين تريد أنت الذهاب ؟

ودهشت للسؤال ، فقد كنت أتوقع قراراً ، أما الآن فأمامى فرصة الاختيار ولذا قلت : أى مكان .

ــ إننا جميعاً على استعداد لأن نتولى أمرك .

وأخذت أفكر سريعاً فيمن يسكن قريباً من (جاكسون) ووجدت أن الخال « كلارك » هو الذى يسكن فى (جرينوود) وهى قريبة من جاكسون ، وقلت :

ــ أريد الذهاب مع الخال كلارك ، لأنه يسكن قريباً من هنا .

ــ هل هذا حقاً ما تريده ؟

ــ نعم يا سيدى .

وتقدم منى الخال « كلارك » ووضع يده على رأسى ، وقال :

ــ حسناً سآخذك معى وأدخلك إلى المدرسة ، وسنذهب غداً لشراء بعض الملابس لك .

وخفّت حدة قلقى قليلا ولكنها لم تذهب تماماً . إن أخى أسعد منى فسيذهب إلى الشمال .

وبعد سفر قصير بالقطار وجدت نفسى فى مدينة أخرى من مدن الجنوب . . . مدينة (جرينوود) . وكان خالى يسكن فى كوخ يتكون من أربع حجرات . وكانت زوجته تدعى « جودى » . وعند وصولنا وجدنا أنها قد أعدت لنا عشاء ساخناً . وكانت نصف زنجية ولها جسم متوسط وكانت دائماً متحفظة معى . وهذا ما دعانى إلى الظن أنها لا توافق كثيراً على ، وكنت فى نظرها طفلاً لا منزل له ولا عائلة ، ولذا فقد كنت أحس بالخجل وأنا فى حضرتها وكان خالى « كلارك » وهى تحدثاننى وكأنى رجل كبير ، ولكن لم أشعر معهما بالدفء الذى كنت أشعر به وأنا مع أمى ، برغم معيشتنا الفقيرة .

وأثناء العشاء قرر الاثنان أن أذهب إلى المدرسة غداً ، لأنهما كانا يعملان ، وأخبرانى أنى سأجد طعام الغداء على الموقد عند عودتى من المدرسة ، وقال خالى : اعتبر هذا منزلك يا ريتشارد .

— نعم يا سيدى .

— وبعد المدرسة أحضر الخشب والفحم للمدفأة .

— حاضر يا سيدى .

— ثم قم بإشعال الموقد الموجود فى المطبخ .

— حسناً يا سيدى .

— وأحضر جردلاً من الماء من الفناء الخلفى حتى تستطيع « جودى » أن تستخدمه فى الطهو فى الصباح .

ـ نعم يا سيدى .

ـ وبعد أن تنتهى من مهامك امض بعد الظهر فى الاستذكار .

ـ حسناً يا سيدى .

ولم يكن قد سبق لى أن اعتدت حياة منتظمة قبل ذلك ، ولذا فقد آويت إلى فراشى والفزع يملؤنى ، وظللت مستيقظاً أناقش قرارى بأن أعيش هنا ، فى مكان به أناس غرباء وشوارع غريبة ومنازل غريبة . ما الذى سيحدث لى ؟ وأى نوع من النساء « جودى » هذه ؟ وهل سيسمح لى خالى بالاختلاط بأولاد الحى ؟ واستيقظت فى الصباح لأجد الشمس تملأ غرفتى ، وسمعت خالى يناديني .

واغتسلت وارتديت ملابسى وجلست إلى المائدة ، دون أن أنطق كلمة واحدة وقالت « جودى » : صباخ الخير يا ريتشارد .

ورددت عليها تحية الصباح بصوت منخفض .

وسألت هى : ألا يقول الناس لبعضهم صباح الخير فى بلدك ؟

ـ نعم يقولون يا سيدتى .

وأخذ الاثنان يسألانى عن حياتى ، وضقت أنا بهذه الأسئلة حتى إنى لم أشعر بالجوع . وبعد الإفطار صحبنى خالى إلى المدرسة وقدمنى إلى الناظر . ومر نصف اليوم الدراسى الأول دون أى حادثة . وكانت الدروس تبدو سهلة بسيطة ، ولكنى كنت أرقب الأولاد ، وأسأل نفسى هل سيصادقوننى ، وهل يقاتلون فى الشوارع .

وفى وقت الفسحة تبعنى بعض الأولاد وأخذوا يفحصوننى بأعينهم من رأسى إلى قدمى . وحاولت أنا إخفاء اضطرابى وسألنى واحد منهم : من أين أتيت ؟

— جاكسون .

— ولماذا تبدون بهذا القبح يا أهل جاكسون ؟

وساد ضحك ، وأجبت أنا : إنك لا تبدو جميلا .

— هل سمعت ما يقول ؟

وسألنى واحد منهم : أتظن نفسك شيئاً ؟

— لا أريد القتال ، ولكن إذا دفعتمونى إليه فلن أتردد .

— شجاع حضرتك ؟

— أشجع منك .

— قل هذا لأمك .

— بل قله لأمك انت .

وكان هذا امتحاناً لى ، ولو لم أعرفه لرسبت نهائياً فى المدرسة ، لأن الرسوب ليس فى الكتب بل فى نظرة زملائك إليك . وهددنى الولد بقوله : اسحب كلامك هذا .

— أرغمنى على سحبه .

وعلا صياح الأولاد ، وترقبوا المعركة . ولكن الولد المعتدى تردد وأخذ يزن فرصته أمام فرصتى . وحاول بعضهم أن يدفع به إلى المعركة فقال :

– إنك لن تسمح لهذا الولد الجديد أن يسبك .

واقترب منى الولد ولكنى صمدت أمامه واقترب وجهانا وسألنى : هل تعتقد أنى أخاف منك ؟

– لقد أخبرتك برأيى .

ودفع أحدهم الولد فاصطدم بى ، ودفعته أنا بعيداً بعنف ، وقال : لا تدفعنى .

– إذاً ابتعد عنى .

ودفعته ثانية ومددت يدى وصفعته بقوة على فمه ، وعلا الصراخ والضجيج .

وتدخل الأولاد بيننا ، ولكن الضرب استمر . وأدركت أنا أنى إن لم أفز فى هذه المعركة فسأضطر إلى القتال مع ولد جديد كل يوم ، ولذا فقد استمت فى القتال ، محاولاً كل جهدى أن أثبت أنى شجاع ، وأن بوسعى أن أدافع عن نفسى . ودق الجرس ، وانتهت المعركة وصاح الولد الذى كنت أقاتله :

– إنى لم أنته معك بعد .

وفى الفصل بدأ الأولاد يسألوننى أسئلة عديدة ، وأحسست أنى أصبحت شخصية هامة . ولما انتهت الدراسة أعددت نفسى للقتال ثانية ، ولكن الولد كان قد اختفى .

وفى الطريق عثرت على خاتم به حجر أحمر ، واحتفظت به لأستخدمه فى معاركى المقبلة . ولكن لم تتح لى الفرصة لاستخدامه ، فبعد أن أظهرت

سلاحى الجديد ، وانتشر خبره بين الأولاد ، لم يجرؤ واحد منهم على أن يتحدانى . لقد قبلت بين الجماعة .

ولكن خطراً جديداً ظهر فى الأفق . ففى إحدى الليالى كنت أجلس فى الصالة أستذكر دروسى ، وكان الحال « كلارك » يجلس إلى مائدة الرسم ، لأنه كان يعمل نجاراً يرسم النماذج ، أما جودى فكانت جالسة تطرز . وفجأة دق جرس الباب ولما فتحت « جودى » دخل صاحب المنزل ، وكان اسمه « بوردن » ، ولما قدمنى خالى إليه وقفت لأصافحه ، وقال هو لى : إن من دواعى السرور أن نرى ولداً آخر بالمنزل .

فسألته : هل هناك ولد آخر ؟

— نعم ، لقد كان ابنى هنا ولكنه ذهب .

— وماذا كان عمره ؟

— نفس عمرك .

— وأين ذهب ؟

— لقد مات .

ولم أكن قد فهمت ما يريد أن يقوله ، ولذا فقد أعقبت المناقشة فترة صمت طويلة .

ونظر إلى مستر « بوردن » وقال : هل تنام فى هذه الحجرة ؟

— نعم يا سيدى .

— إنها نفس الحجرة التى كان ينام فيها ابنى .

— على نفس السرير ؟

— نعم ، لقد كان هذا سريره ، وقد أعطيته لخالك عندما سمعت أنك قادم إلى هنا .

ورأيت خالى يحاول أن يحذر مستر « بوردن » ولكن بعد فوات الأوان. وفى الحال بدأ خيالى ينسج الأشباح ، ورغم أنى لم أكن أومن بالأشباح إلا أن تعاليمى الدينية كانت تقول إن هناك إلهاً ، ولذا فلا بد أن تكون هناك أشباح . وشعرت بالكراهية للغرفة ولعدم الرغبة فى أن أنام فيها . لقد بدا الولد الميت أمامى حيًّا يرزق . وبعد أن غادرنا مستر « بوردن » وجهت كلامى إلى خالى : إنى خائف من أن أنام فى هذه الحجرة .

— لماذا ؟ لأن الولد مات بها ؟

— نعم يا سيدى .

— ولكن ليس هناك ما تخاف منه يا بنى .

— أنا أعلم ، ولكنى خائف مع ذلك .

— إننا جميعاً سنموت فى يوم من الأيام ، فلماذا نخاف ؟

ولم أجد جواباً على كلامه هذا واستطرد هو :

— إذا مت أنت ، هل تريد الناس أن تخاف منك ؟

ولم أجد جواباً على كلامه هذا أيضاً وواصل هو .

— هذه خرافات .

— ولكنى خائف .

– ستتغلب على خوفك هذا .

– هل أستطع أن أنام فى مكان آخر ؟

– لا يوجد مكان آخر .

– هل أستطيع أن أنام هنا على الأريكة ؟

وأجابت « جودى » : كلا ، لا تستطيع .

ودخلت غرفتى فى الظلام أتحسس طريقى إلى السرير ، وكنت أشعر أنى إذا لمست السرير فسأجد جثة الميت راقدة عليه . فارتعشت ، ولكنى قفزت إلى السرير مرة واحدة وجررت الغطاء وأخفيت به وجهى . ولم أنم طوال الليل ، وفى الصباح كانت عيناى محمرتين ومتورمتين وسألنى خالى : هل نمت جيداً ؟

– لا أستطيع أن أنام فى هذه الغرفة .

وسألتنى جودى : لقد كنت تنام فيها ملء جفنيك قبل أن تسمع بأن الولد مات بها .

– نعم يا سيدتى .

– إذاً لماذا لا تستطيع النوم فيها الآن ؟

– لأنى خائف .

– إنك تتصرف كالأطفال .

وكان الأمر هكذا فى اليوم التالى . وبعد أن أوى خالى وزوجته إلى الفراش تسللت من الغرفة ونمت على الأريكة بلا غطاء . وفى الصباح وجدت خالى يهزنى ويقول :

ـ لماذا تفعل هذا ؟

ـ إنى خائف من أن أنام فى الغرفة .

وأمرنى هو قائلا :

ـ اذهب إلى الغرفة ونم فيها الليلة ، يجب أن تتغلب على خوفك هذا .

وأمضيت عدة ليال بلا نوم أرتجف من ذكرى الولد الميت . ولم تعد الغرفة غرفتى ، وكان العرق يتصبب منى كلما دخلتها ، وكلما سمعت صوت الباب يهتز أصابنى الرعب القاتل . وكنت أذهب إلى المدرسة والغباء مرتسم على وجهى ، ويغلب علىّ النعاس فى الفصل . وإذا ما سألتنى المدرسة لا أحير جواباً ، وطال اشتياقى إلى منزلنا . وبعد أسبوع واحد من هذه الحال أصبحت كتلة من الأعصاب المنهارة .

وفى يوم الأحد رفضت أن أذهب إلى الكنيسة ، ودهش خالى وزوجته لرفضى ، ولم يفهما أنى أحاول أن أتوسل إليهما فى صمت أن يجعلانى أنام فى مكان آخر ، وتركانى وحيداً فى المنزل . وبقيت طوال اليوم جالساً على السلالم الأمامية . ولم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأدخل المطبخ لآكل ، وأحسست بالعطش وذهبت إلى الصنبور الموجود فى الفناء الخلفى ، وشربت منه ، مفضلا ذلك على الدخول إلى المنزل . وفى المساء أثرت مسألة الغرفة ثانية ، وقلت : أرجوكما اتركانى أنام على الأريكة فى الصالة .

وقال خالى : يجب أن تتغلب على خوفك هذا .

وعقدت العزم على أن أطلب منهما أن يتركانى أعود إلى أمى ، وذهبت إلى خالى برغم أنى أعلم ما تكبده من نفقات ليحضرنى إلى منزله ، وأنه كان واثقاً من أنه يخدمنى خدمة جليلة بشرائه الملابس والكتب لى .

وقلت له :

— أرسل بى ثانية إلى جاكسون يا خالى .

وسألنى : ألست سعيداً هنا ؟

وأجبت بصدق ، وأنا خائف من أن ينهار السقف على رأسى : كلا يا سيدى .

— وتريد حقاً العودة ؟

— نعم يا سيدى .

— لن تكون الأمور سهلة ميسرة هناك ، فلا نقود ولا أكل عندكم .

— أريد أن أبقى حيث توجد أمى .

— إن السبب هو الغرفة .

— نعم يا سيدى .

وتنهد خالى ثم استرسل قائلا : لقد حاولنا إسعادك ، ولكن يبدو أننا لم نسلك الطريق الصواب . وإذا كنت تصر على العودة فلا مانع عندى ؟

وسألته بتلهف : متى ؟

— بمجرد انتهاء الدورة الدراسية .

— لكنى أريد العودة الآن .

— ولكن معنى هذا أنك ستخسر السنة بحالها .

— لا يهمنى .

— سيهمك هذا مستقبلا ، لأنك لم تواظب حتى الآن على سنة دراسية كاملة .

— أريد العودة إلى منزلى .

— هل كان هذا شعورك من مدة ؟

— نعم يا سيدى .

ودهش خالى لهذا الخبر وقال :

— سأكتب إلى جدتك الليلة لأبلغها .

وكنت أسأله يوميًّا عما إذا كان قد تلقى ردًّا من جدتى ، ولكن دون جدوى .

واستمرت ليالى القلق ، وتأثرت دراستى ، وكانت النتيجة رسوبى فى جميع المواد .

وفى إحدى الليالى بينما كنت أقوم بملء الجردل من الصنبور الخارجى ، وكنت أشعر بالتعب والنعاس حتى إن الجردل سقط على وأغرقنى بالماء ، وأخذت أسب وألعن ، سمعت صوت « جودى » خلفى تنادينى وقد استولى عليها الرعب لما تفوهت به ، وطلبت منى أن أعيد على مسامعها ما قلته .

ولكنى رفضت . وهددتنى بأنها ستخبر خالى . وشعرت بالكراهية العميقة لها وقلت لها : لا يهمنى .

— إنك ولد سيىء يا ريتشارد .

وتجنبت الرد عليها وذهبت إلى الفناء الخارجى وجلست على الباب . لم أكن أريدها أن تسمعنى وأنا ألعن ، ولكنها سمعت وحدث ما حدث . ولم يعد يهمنى شىء فقد كنت أريد العودة إلى منزلى . ولكن أين هو منزلى هذا ؟ نعم ، لا بد أن أهرب من هنا !

وناداني خالى كلارك إلى الصالة : وقال جودى تقول إنك تستخدم ألفاظ سباب فاحشة .

— نعم يا سيدى .

— إنك تعترف أيضًا .

— نعم يا سيدى .

— ولماذا تفعل هذا .

— لا أعلم .

— سأضربك بالكرباج . اخلع قميصك !

وخلعت قميصى دون أن أنطق بكلمة واحدة ، ولم أبك . وسألنى خالى : هل ستتفوه بمثل هذه الكلمات ثانية ؟

— أريد العودة إلى منزلى .

— ارتد قميصك .

وأطعته ، وقلت ثانية : أريد العودة إلى منزلنا .

ـ ولكن هذا هو منزلك .

ـ أريد العودة إلى جاكسون .

ـ ليس لديك منزل فى جاكسون .

ـ أريد الذهاب إلى أمى .

ـ حسناً ، سأبعث بك إليها يوم السبت .

ونظر إلىّ وسألنى : أين تعلمت مثل هذه الألفاظ .

ونظرت إليه ولم أرد . ومرت أمام عينى صورة كل الأماكن التى عشت فيها ، كيف يمكننى أن أخبره أنى تعلمت هذه الألفاظ قبل أن أتعلم القراءة ؟ كيف يمكننى أن أخبره أنى كنت سكيراً وأنا فى السادسة من عمرى ؟

ولما صحبنى إلى القطار يوم السبت ، شعرت بالإثم تجاهه وتجنبت النظر إليه ؛ وأعطانى التذكرة وأسرعت أنا داخل القطار ، ولوحت له بيدى من النافذة عندما بدأ القطار يتحرك ، ولما اختفى وجهه عن ناظرى تماماً شعرت بالراحة ، وامتلأت عيناى بالدموع ، وألقيت برأسى إلى الخلف ونمت ملء جفنى .

وكان سرورى برؤية أمى شديداً ، ووجدت أنها قد تحسنت بعض الشىء ، رغم أنها كانت لا تزال تلازم الفراش ، وقد نصح الطبيب بإجراء عملية جراحية ثانية ، ولكن لم يعدها بالتحسن . وتساءلت أنا : لماذا يريد

إجراء عملية أخرى ؟ وكنت أفضل أن تبقى أمى كما هى بما أنه ليس هناك أمل فى شفائها ؟ لقد علمتنى الحياة ألا أعتمد كثيراً على الأمل . وكانت إحساساتى تنذر بالخوف ولم أكلم أحداً عنها .

ولم أعد إلى المدرسة ، بل أخذت ألهو وألعب فى الفناء الخلفى ، وأقرأ ما أجده من كتب فى المنزل . وطال اشتياقى لأن أكبر لأتولى أمر نفسى .

وحضر الخال « إدوارد » من (كارترز) ليأخذ أمى إلى (كلاركسريل) لتجرى لها العملية الجراحية . وأصررت على أن أذهب معها ، وارتديت ملابسى ، وأسرعت إلى المحطة . وجلست طوال الرحلة أفكر ، وأخاف أن أنظر إلى أمى . ولما وصلنا إلى (كلاركسريل) استأجرنا تاكسياً إلى عيادة الطبيب . وكانت أمى تبتسم والشجاعة مرتسمة على وجهها ، برغم أنى كنت واثقاً من أنها لا تأمل كثيراً فى العملية . ولما وصلنا إلى عيادة الطبيب زاد اقتناعى بأن أمى لن تشفى أبداً . وحضر الطبيب مرتدياً ملابسه البيضاء ، وشد على يدى ، وأخذ أمى إلى الداخل . وتركنا الخال « إدوارد » ليعد الغرفة ويحضر ممرضة . وانتظرت ساعات طويلة إلى أن انفتح الباب ثانية وظهر الطبيب ، وسألته : كيف حال أمى ؟

— طيب .

— هل ستشفى ؟

— سنعلم كل شىء بعد بضعة أيام .

– هل أستطيع رؤيتها الآن ؟

– كلا ، ليس الآن .

وبعد قليل عاد خالى ومعه عربة إسعاف ورجلان يحملان نقالة ، ودخلا غرفة الطبيب ووضعا أمى على النقالة . وأخرجاها – ونظرت إلى وجهها ، ورأيت عينيها مغمضتين ووددت لو أنى لمستها وهى راقدة على النقالة ، ولكنى لم أستطع الحركة ، وسألت خالى : لماذا يحملون أمى هكذا ؟

– إن المستشفيات لا تقبل الملونين ! !

ونظرت إلى الرجلين وهما يسيران بالنقالة وعليها أمى ويضعانها فى عربة الإسعاف ويرحلان بها ، وأحسست أن أمى قد خرجت نهائياً من حياتى .

وأقمت مع خالى فى حجرة أجرناها وكنا نذهب كل صباح إلى المنزل الذى أخذت إليه أمى لنسأل عنها . وفى يوم من الأيام أخبرنى خالى أنه سيأخذ أمى ويعود بها من حيث أتينا ، وسألته : ما فرصتها فى الشفاء ؟

– إنها مريضة جداً .

وتركنا (كلاركسريل) ، ومعنا أمى على النقالة فى عربة البضاعة .

وفى منزلنا ظلت أمى هكذا راقدة تتألم وتتأوه لمدة أيام . وزارها الأطباء ، ولكنهم كانوا يغادرونها دون أن ينطقوا حرفاً واحداً . وأصاب الحزن جدتى . وأخبرنا الأطباء أن أمى مصابة بجلطة فى المخ ، بجانب إصابتها بالشلل .

وفى إحدى الليالى نادتنى أمى ، وأخبرتنى أنها لم تعد تحتمل الألم وأنها

تريد أن تموت. وأمسكت بيدها وتوسلت إليها أن تصمت؛ وفى هذه الليلة أحسست أن شعورى تجاه أمى قد تجمد وظلت سنوات عشراً أمرضها، تارة تتحسن وتارة تسوء حالتها. وحرمت عائلتها نفسها من كل شىء ليتمكن أفرادها من الإنفاق على أمى؛ وأصبح مرضها أمراً عادياً فى العائلة، أمراً لا نستطيع أن نفعل شيئاً إزاءه.

وأصبح مرض أمى رمزاً فى ذهنى للفقر والجهل واليأس، وأصبح يمثل لى محاولات لا جدوى وراءها، وقلقاً لا مفر منه. وكانت حياتها هى العنصر الذى أثر على حياتى فيما بعد، وعلى تصرفاتى إزاء من أقابله من رجال ونساء، وما أمر به من أحداث. وخلال سنوات مرضها أصبت بحالة من الهدوء الحزين، جعلتنى أقف وحيداً، وأنظر إلى السعادة والسرور نظرة شك، وفى نفس الوقت جعلتنى أتوق دائماً إلى التنقل كمن يريد الهرب من مصير لا يعرفه، مصير مبهم لا نجاة منه.

ولما بلغت الثانية عشرة من عمرى، كنت قد أمضيت سنة واحدة كاملة فى المدرسة، ولكن مفهومى للحياة من خلال تجاربى كان قد انطبع فى ذهنى بشكل لا يمكن إزاحته، وكنت قد كونت فكرة عن الحياة وما فيها، فكرة كانت تخصنى أنا وحدى، فكرة تبين لى معنى هذه الحياة بشكل لا تستطيع أكبر مدرسة أن تفعله. وأدركت أن معنى الحياة يتكشف للإنسان حين يحاول أن ينتزع بالقوة معنى لحياة مليئة بعذاب لا معنى له.

وفى سن الثانية عشرة، تملكنى شعور ظل معى طوال عمرى، بأن

الحياة مليئة بالشكوك ومليئة بالأحداث فى نفس الوقت ، وبأن جوانب عديدة منها تحتمل النقد . وبدأت ألمس ألم الآخرين وأفهمه ، وأنجذب إلى الذين يعانون من الحياة مثل معاناتى ، وأجلس أسمع إليهم ساعات طويلة ، بدأت أشعر بالحنان تجاههم ، وبالقوة تجاه الحياة .

وأصبحت أتوق إلى التعمق فى جوانب كل مشكلة ، وأبحث عن أسباب الألم ، وأشغف بقراءة الأدب الواقعى ، وأندس فى دوامات السياسة بشكل ملك على كل حواسى ، واتجهت بولائى إلى جانب الثورة ، أستمع إلى خطب ومقالات تبحث بلا هدف عن إجابات لأسئلة لا تساعد أحداً ، إجابات تشدنى وتجعلنى أدهش وأعجب وأخاف من المأساة البشرية ، والألم الذى يعانيه أبناؤها .

الفصل الرابع

كانت جدتى عضواً عاملا فى كنيسة السبتيين ، وحاولت أنا أن أتظاهر بعبادتها حتى تبقينى معها . وكان أعضاء الكنيسة يستخدمون إنجيلا مزيناً بصور بحيرات واسعة من النيران ووديان من العظام الجافة ، والشمس وهى تتحول إلى رماد ، والقمر وهو يتحول إلى دماء قانية ، والنجوم وهى تسقط من السماء ، وعصا تتحول إلى حية ، وأصوات تتكلم إليهم من السحب ، ورجال يسيرون على وجه الماء ، وماء يتحول إلى نبيذ معتق ، وموتى يبعثون ويعيشون من جديد ، وعميان يبصرون ، وعجزة يسيرون . وكانوا يعتقدون أن خلاصهم يقترن بحيوانات لها عدة رؤوس ، ويلقون المواعظ عن تماثيل لها رؤوس من ذهب وأكتاف من فضة وأرجل من نحاس . وكانت قصة الكون عندهم تبدأ قبل بدء الخليقة وتنتهى عند مجىء المسيح الثانى .

وكنت أستمع إلى كل هذا ، وأنا مفتون بلهجة الإيمان ، ولكن بمجرد أن أخرج من الكنيسة وأحس بأشعة الشمس ودفئها ، كنت أغير من وجهة نظرى .

وعرفت الجوع مرة أخرى ، الجوع القارس ، الذى جعل جسمى يتألم وأعصابى تهتز وأفقد صبرى ، الجوع الذى جعل الكراهية تنبعث من قلبى كالحية الرقطاء . وكان أحب أنواع الأكل إلى نفسى بسكويت

الفانيليا . وكنت كلما حصلت على خمسة سنتات أسرعت إلى البقالة لأشترى صندوقاً من هذا البسكويت ، وأعود إلى البيت أسير ببطء حتى آكله كله قبل أن يحاول أحد أن يشاركنى فيه . وعند ما أنتهى منه أجلس على سلالم المنزل وأحلم بصندوق آخر ، ويحز الحلم فى نفسى وأجد نفسى مضطرًّا للحركة حتى أنساه . وتعلمت أن أقضى على الجوع الكافر بأن أملأ بطنى بالماء حتى لو كنت غير عطشان . وكانت معدتى تؤلمنى أحياناً ولكنى كنت أحس أنها امتلأت لفترة ما .

وكانت جدتى لا تطهو لحم الخنزير أو لحم البتلو ، وقلما كنا نحصل على أى نوع من اللحم على الإطلاق . ولم نكن نأكل السمك إلا نادراً . وفى الإفطار كنت أتناول بعض الفطائر المصنوعة من الدقيق والسمن الصناعى ، وكانت رائحتها تظل ساعات طويلة فى فمى . وكنا نتعاطى بيكاربونات الصودا دائماً لتساعدنا على هضمها . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر كنت أتناول طبقاً من الخضراوات المطهوة بالسمن الصناعى . وكنا فى بعض أيام الآحاد نشترى قطعة ضيئلة من لحم البقر ، ولكنها كانت لا تؤكل لرداءتها . وكان الطبق المفضل لدى جدتى هو الفول السودانى المحمر ، وكانت تحاول به تعويضنا عن اللحم ولكنه كان أيضًا لا يؤكل لرداءته .

وكان مركزى فى العائلة حساساً للغاية ، فقد كنت قاصراً أعتمد فى مأكلى ومسكنى على الكبار . . . كنت أحد الأقرباء الذين لا يؤمنون ،

وكثيراً ما أخبرتنى جدتى أن وجود كافر بالمنزل قد يجلب غضب الله على الجميع ، ولا يفرق هذا الغضب بين المجرم والبرىء . وكانت كثيراً ما تعزو سبب مرض أمى إلى كفرى وعدم إيمانى . ولكنى مهرت فى التغاضى عن أقوالها هذه ، ولم أكن أكترث لها ، بل بالعكس زادتنى كفراً على كفرى ، وأصبحت أنظر إلى كل التعاليم الروحية بلا اهتمام ولا اكتراث .

ولكن جدتى تمكنت من الحصول على حليف لها لإقناعى بوجود إلهها ، وهى خالتى « آرى » التى كانت قد انتهت من دراساتها الدينية فى (هانتسفيل) بولاية (ألاباما) وحضرت للإقامة معنا . وكانت خالتى « آرى » تنصحنى بالانصياع لتعاليم العائلة التى تعولنى وتطعمنى ، واقترحت أن أدخل المدرسة الدينية ، وحاولت أن أعترض على هذا القرار . ولكن أمى انضمت إلى خالتى وجدتى واضطررت إزاء هذا التحالف أن أرضخ .

ودخلت المدرسة الدينية ... دخلتها مرغماً ، وكانت عبارة عن فصل يضم نحو عشرين ولداً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والتاسعة عشرة ، وتتراوح دراساتهم بين الابتدائية والثانوية . وكانت خالتى هى المدرسة الوحيدة بالمدرسة . ومن أول يوم للدراسة نبت بينى وبينها شعور شديد بالعداء . وكانت هذه أول مرة تحصل هى فيها على عمل كمدرسة ، وكانت مضطربة لأن بالفصل أحد أقربائها ، وهو فى نفس الوقت ليس منضماً إلى كنيستها . ويبدو أنها كانت مصرة على أن تجعل الجميع يعرفون أننى مارق مذنب لا توافق هى على تصرفاته ، وإن قرابتى لها لن تكون سبباً فى أى امتياز لى .

وكان التلاميذ فى مجموعهم هادئين ، لا يشبهون تلاميذ المدارس الأخرى ، لا قدرة لهم ولا إرادة . وكانوا يتكلمون بصوت خافت ويأتون بحركات غير مفهومة ، تلاميذ لا شخصية لهم ، ولا أمل ، لا يضحكون ولا يمرحون ولا يتحمسون ولا حتى يحزنون . وكانوا ينتمون إلى محيطهم انتماء تامًّا ، ولا يعرفون محيطاً غيره ، بينما كنت أنا أنحدر من جو آخر ، جو المقاهى ، والسكك الحديدية ، وشلل الشوارع ، وشواطئ النهر ، وملاجئ الأيتام ، وكنت قد تنقلت كثيراً من بلدة إلى أخرى ، واختلطت بالكبار . وكان على أن أتغلب على عادة السب والألفاظ البذيئة ، ولكنى لم أتمكن من ذلك قبل أن أنجح فى جعل نصف عدد التلاميذ يصعقون عند سماعهم الألفاظ التى كانت تخرج من فمى ، وقبل أن أضع خالتى « آرى » فى مركز حرج جدًّا !

وعند نهاية الأسبوع الأول من الدراسة كانت المعركة بينى وبين خالتى آرى قد وصلت إلى الذروة . وفى يوم من الأيام قامت من مكتبها وتوجهت إلى حيث أجلس فى الفصل ، وقالت وهى تضربنى على أصابعى بالمسطرة : يجب أن تكف عن كل هذا الذى تفعله .

ـ ماذا فعلت ؟

ـ انظر إلى الأرض .

ونظرت ووجدت بعض قشر البندق مبعثراً عند قدمى ، وقد أدى إلى اتساخ خشب الأرض ، وفى الحال أدركت أن الولد الذى يجلس أمامى هو

الذى كان يأكل وقلت : لا شأن لى بها .

— يجب أن تدرك أن الأكل فى الفصل ممنوع .

— ولكنى لم آكل .

— لا تكذب ، إن هذه ليست مدرسة فحسب إنها بيت الله !

— ما زال البندق الذى أحضرته فى جيبى يا خالتى .

— اسمى مس ويلسون !

وحملقت فى وجهها وقد انعقد لسانى ، وفهمت أنها تضايقت من مناداتى إياها بخالتى ، وكان قد سبق لها أن حذرتنى من أن أخاطبها إلا باسم مس ويلسون ، برغم أن جميع التلاميذ كانوا يعرفون تماماً أنها خالتى .

وقلت : أنا آسف ، وأخذت أفتح كتابى ولكنها صاحت فى :

— ريتشارد ، قم واقفاً .

ولم أتحرك ، وضغطت بأصابعى على الكتاب ، وأحسست أن عيون التلاميذ ترقبنى . وكنت أعلم أنى غير مسئول عن قشر البندق ، وأنى عبرت لها عن أسفى لأنى ناديتها بخالتى . وكنت أتوقع أن يبتكر الولد الجالس أمامى كذبة ما لينقذنى من هذه الورطة ، لأنه هو المذنب الحقيقى .

وصاحت قائلة : لقد طلبت منك الوقوف .

وكنت لا أزال جالساً أنظر إلى صفحات الكتاب ، وفجأة أمسكتنى

من رقبتى ورفعتنى من المعقد ، وتعثرت أنا ، وصاحت هى بلهجة هستيرية : إننى أتحدث إليك .

ووقفت ونظرت إليها ، والكراهية تملأ عينى ، وقالت :

ـ لا تنظر إلىّ هكذا يا ولد !

ـ لم ألق القشر على الأرض .

ـ إذن من الذى ألقاه ؟

ولم أشأ أن أبوح باسم الولد ، لأنه لم يسبق لى أن كسرت « قانون العصابة » ، وانتظرت أن يتدخل هو لإنقاذى . وكنت فى الماضى أتقبل العقاب على جرم لم أرتكبه فى الشلل التى كنت عضواً بها ، أما هنا وفى مدرسة دينية فقد ظل الولد صامتاً ، وأخيراً قلت : لا أعلم من المسئول .

وصاحت خالتى :

ـ تعال إلى هنا .

وسرت ببطء متجهاً نحوها ، متوقعاً أن تلقى على موعظة طويلة ، ولكن قلبى راح يخفق عند ما رأيتها تتناول مسطرة طويلة طويلة وتتجه نحوى . وفقدت السيطرة على أعصابى وصحت قائلا : لم أفعل شيئاً » .

وضربتنى ، وحاولت أن أتجنب الضربات التالية . وصاحت :

ـ قف ساكناً يا ولد .

ووقفت ساكناً ، وأنا أعجب لموقف الولد ، وصاحت هى :

ـ مد يدك .

ومددت يدى ، وأنا أقسم بينى وبين نفسى ألا أجعل مثل هذا الحادث يقع لى ثانية ، مهما كان الثمن . وضربتنى هى على كفى حتى احمر لونه ، ثم انتقلت إلى رجلى ، وضغطت على أسنانى حتى لا تفلت منى صيحة ألم واحدة . ولما انتهت ظللت مادًّا يدى ، محاولا أن أبين لها أن ضرباتها لا يمكن أن تؤلمنى ، وكنت طوال الوقت أحملق فى وجهها ، وقالت :

ـ أنزل يدك وعد إلى مكانك .

وأنزلت يدى وسرت إلى مكانى والغضب يكاد يعمينى .

وصاحت هى ورائى قائلة : لم أنته معك بعد .

وفجأة وجدت نفسى أستدير نحوها ، وأنظر إليها متحدياً ، ثم قلت :

ـ لم تنتهى معى ؟ لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

وصاحت : اجلس ولا تنطق حرفاً واحداً .

وجلست وأنا واثق من أمر واحد ، لن أسمح لها بضربى ثانية . لقد ضربت مراراً قبل ذلك وكنت أشعر أنى أستحق الضرب لأنى مخطئ . أما الآن فقد شعرت أنى ظلمت ، وأنها ضربتنى لذنب لم أرتكبه .

ـ إنك غاضبة غضباً أعمى ، حتى إنك لا تريدين أن تصدقى أى شىء أقوله .

ـ لا تكلمنى بهذه اللهجة .

ـ إذن بأية لهجة أكلمك ؟! إنك تضربينى لشىء لم أفعله .

ـ من فعله إذن ؟

ووجدت أننا وحيدان الآن ، وأن ولائى لا معنى له ، فأخبرتها باسم الولد المذنب .

وسألتنى : لماذا لم تخبرنى به من قبل ؟

ـ لا أريد أن أكون واشياً .

ـ ولذا كذبت .

ولم أخبرها أنى امتنعت عن الإدلاء باسم الولد لأنى أحس بالولاء لقانون العصابة . وقالت : مد يدك .

ـ لن تضربينى ثانية ، أنا لم أفعل شيئاً .

ـ سأضربك لأنك كذبت .

ـ لا تضربينى ، إذا ضربتنى فسأقاتلك .

وترددت هى لحظة ، ولكنها ضربتنى بالعصا ، وحاولت أن أتجنب الضربات ، ولكنها لم تلبث أن لحقت بى فى الركن الذى انزويت عنده ، وراحت تنهال على ضرباً ، وقفزت وصحت وجريت ، وفجأة وجدت

نفسى أفتح الدرج ، وشعرت به وقد سقط على الأرض وانتثرت محتوياته وأخذت من بينها سكيناً وأشهرتها فى وجهها صائحاً :

— الآن توقفى عن ضربى .

— ارم هذه السكين .

— اتركينى وإلا ذبحتك .

ووقفت هى تفكر ، ولكنها هجمت على وأسرعت أنا نحوها بالسكين وأمسكت هى بيدى ، وحاولت أن تنتزع منها السكين ، ولففت رجلى حول رجلها ودفعتها فسقطت ، وسقطت أنا معها ، وكانت هى أقوى منى وأحسست أنها لا بد ستتغلب على وتنتزع السكين من يدى ثم تستخدمها ضدى ، فعضضت يدها . وأخذنا نتمرغ على الأرض ونقاتل كأننا غريبان أو عدوان يقتتلان على حياتهما ، وصحت بأعلى صوتى :

— دعينى وشأنى .

— أعطنى هذه السكين يا ولد .

— سأقتلك ، سأقتلك إذا لم تتركينى وشأنى !

وأسرعت جدتى إلينا ووقفت مذهولة ، وقالت : ماذا تفعلين يا آرى ؟

— إن معه سكيناً ، خذيها منه .

وصاحت جدتى : ارم السكين يا ريتشارد .

ـ لن أرميها ، لن أدعها تضربنى .

وجاءت أمى على أصواتنا ، وطلبت من خالتى أن تتركنى وشأنى ، ثم استدارت نحوى قائلة :

ـ اعطنى السكين يا ريتشارد .

ـ ولكنها ستضربنى يا ماما ، ستضربنى لذنب لم أرتكبه ، ولن أسمح لها بذلك مهما حدث .

فقالت لها أمى : دعى الولد وشأنه يا آرى .

وقامت خالتى آرى ببطء وعيناها مثبتتان على السكين ، ثم استدارت وخرجت من المطبخ ، وصفقت الباب وراءها بشدة .

وقالت لى أمى : أعطنى السكين يا ريتشارد .

وقالت جدتى وهى تبكى :

ـ إنك ولد شرير يا ريتشارد ، شرير جداً .

وحاولت أنا أن أشرح لهما ما حدث ، ولكنهما رفضتا الإنصات ، وتقدمت جدتى نحوى لتأخذ السكين ولكنى جريت إلى الفناء الخارجى ، وجلست وحدى على السلالم وأنا أرتجف وأبكى وقد دهمتنى العواطف .

وأتى جدى بعد أن أخبرته خالتى بما حدث وقال : أعطنى السكين .

فأخفيت السكين تحت ذراعى وقلت له كاذباً : لقد أعدتها إلى مكانها .

– ما الذى جعلك تتصرف هكذا ؟

– لا أريدها أن تضربنى .

– إنك طفل ، مجرد طفل .

– ولكنى لن أسمح لأحد بضربى .

– ماذا فعلت ؟

– لا شىء .

– لكم تكذب بسهولة ، ولو لم أكن أعانى من الروماتزم لضربتك أنا علقة حقيقية ، فأنا لا أفهم كيف يستطيع طفل مثلك أن يهدد أحداً بسكين .

– لن أسمح لها بضربى ثانية .

– إنك شرير ، ويحسن بك أن تقلع عن هذه الطرق وإلا انتهى بك الأمر إلى حبل المشنقة .

ولم أهتم بما يقول ، فقد كنت لا أخافه ، فهو ليس سوى عجوز مريض لا يعلم شيئاً عما يجرى فى المنزل . وكان يجلس طوال اليوم يستعيد ذكرياته ، ويتذكر أيام الحرب الأهلية ، ويرقب بندقيته المحشوة والموضوعة فى ركن الغرفة ، وينظر إلى بدلته العسكرية الزرقاء التى كان قد احتفظ بها .

وتقبلت خالتى آرى الهزيمة بالحقد ، وأخذت تعاملنى باحتقار وبرود .

فأدركت بالتالى أنها نزلت إلى مستوى العاطفى ، فكنت أبادلها الاحتقار . وظللنا لا نكلم بعضنا حتى تزوجت ، برغم أننا كنا نجلس إلى نفس المائدة لنأكل . وننام تحت سقف واحد ، وبرغم أنى كنت ولداً ضعيفاً خائفاً وكانت هى سكرتيرة الكنيسة والمدرسة التابعة لها — لقد بارك الله منزلنا بالحب الذى يجمع بين القلوب ! !

ومع ذلك ظللت أتردد على المدرسة الدينية ، إلا أنى توقفت عن الاستذكار نهائياً ، فكنت أمضى نهارى فى اللعب مع الأولاد ، وكانت ألعابنا مقصورة على الألعاب العنيفة ، كالمصارعة والملاكمة والبيس بول ، ولعبة أخرى نطارد فيها بعضنا بعضاً .

وكانت خالتى آرى تنظم لنا أثناء الفسحة لعبة سخيفة ، كنا نقف فيها صفاً واحداً نمسك بأيدى بعضنا البعض ، ثم يبدأ كل واحد منا يقفز إلى اليمين ، ثم إلى اليسار وهو يحمل كرباجاً فى يده ، ويضرب به الهواء .

وفى ذات مرة وجدت نفسى وقد أحسست بالكرباج ينزل على جسدى ، وقفزت ووقعت على الأرض صارخاً ، وقد جرح رأسى وسالت منه الدماء ، ونظرت فرأيت خالتى آرى تضحك على ما أصابنى . وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها خالتى تضحك !

وكما قلت كانت جدتى تصر على اتباع التعاليم الدينية فى المنزل ، فكنا

نقيم الصلوات عند الفجر وعند الغروب ، عند الإفطار ، وعند العشاء ، وكانت هذه الصلوات يتبعها عادة موعظة يلقيها أحد أفراد العائلة . وكان الجميع يعتقد أنى أؤدى صلاتى قبل أن آوى إلى الفراش ، ولكن فى الواقع كنت أتهرب من كل هذه الواجبات الدينية ، كلما سنحت لى الفرصة متعللا بالاستذكار .

ولم يكن أحد يصدقنى فيما أقول ، ولكن الجميع كانوا يتقبلون أعذارى حسبما لأية منازعات معى . ولما كانوا يرغمونى على الركوع للصلاة كنت أحس بآلام شديدة فى ركبتى ، مما جعلنى أخترع طريقة طريفة للركوع ، فكنت أوازن نفسى على أصابع قدمى ، وأرتكز برأسى على الحائط . ولم يلحظ أحد هذه الطريقة سوى الله نفسه ولا أظن أنه كان يعترض عليها .

ولكن جدتى أصرت برغم كل هذا على أن أحضر اجتماعًا للصلاة يستغرق ليلة بأكملها . ولأنها كانت أكبر أعضاء الكنيسة سنًّا ، فقد كانت تعتقد أن من العار ألا يحضر أحد أفراد أسرتها هذه الصلاة ، ولهذا فقد حاولت أولا إقناعى وديًّا ، ثم أخذت تهددنى بالضرب إن لم أحضر .

وكانت جدتى تعد وجبة لنأكلها خلال هذه الصلاة ، وكنا نذهب نحن الثلاثة ، جدتى وخالتى وأنا ، ونترك أمى وجدى فى المنزل . وكنت

أجلس طوال الصلاة أتململ فى مكانى وأفكر فى اليوم الذى أكبر فيه حتى أتخلص من كل هذا ، فلا أضطر إلى سماع كلمة واحدة مما يقال ، وكنت أواصل النظر إلى جدتى ، وأتوق إلى أن أمدد جسدى على الكرسى وأستغرق فى نوم عميق . وفى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة كنت أتناول ساندوتشاً ثم تسمح لى جدتى بأن أنام قليلا ، وأنام نوماً متقطعاً تتخلله أصوات التراتيل ، ثم تهزنى جدتى لتوقظنى من جديد . فأفتح عينى لأرى الشمس وقد دخلت أشعتها خلال النوافذ .

وكنت أتذوق بعض التعاليم الدينية ، ومن بينها التى تقول إن الإنسان يعيش يوماً بعد يوم ينتظر الموت الذى سيأتى لا محالة ، وكنت أنظر إلى البشر بعطف لأنهم جميعاً سيموتون فى يوم من الأيام . ولكن الاعتقاد والإيمان الحقيقى النابع من الفكر والذهن لم أحظ بهما قط . وقد يكون السبب فى كل هذا أنى لم أحصل على معتقداتى من الكنيسة ، ولم أبدأ حياتى بالشعور بها ولم ترسخ هذه المعتقدات فى نفسى إلا بعد أن طبعت الحياة طابعها على شخصيتى وبعد أن أدركت أن شعورى بالحياة كبير وعميق .

ونما جسمى على الغذاء الضئيل الذى كنت أتناوله ، وتلك كانت معجزة لا بد أن للكنيسة دخلا بها ؛ فقد كبرت وبلغ عمرى الثانية عشرة برغم أن ما كنت أتغذى به لا يساعد كلياً على النمو . وأخذت غددى تفرز إفرازاتها فى دمى ، الإفرازات التى جعلتنى أداوم النظر إلى الفتيات

والنساء ، وأتعجب هذا المنظر .

ووقعت فى غرام زوجة القس وكانت تشترك فى تراتيل الصلاة وكان غرامى لها بمثابة عبادة شىء بعيد المنال . وكنت أحملق فيها وأفكر فى الزواج منها .ولم يزعجنى أن شعورى بالعاطفة الجامحة بدأ فى الكنيسة . ويبدو أن هذه التراتيل الدينية كانت تثيرنى . ولا بد أنى لوثت جو الكنيسة بأفكارى الدنسة ، فقد كنت أحس بالرغبة تسرى فى جسدى طوال الوقت ، ولا أكف عن النظر إلى المرأة محاولا أن أجذب نظراتها إلى ، وأنقل إليها أفكارى .

وأخيراً أعلنت أنى لن أذهب إلى مدرسة الكنيسة ، وذعر الجميع لقرارى هذا ، حتى خالتى أرى ، لأنهم كانوا يعتقدون أن خلاص روحى الضائعة أهم بكثير من كبريائهم . حتى أمى قالت لى :

– يجب أن تتعرف يا ريتشارد على الله من خلال الكنيسة .

وتحول شعور أفراد العائلة إلى العطف والرعاية لى ، ولكنى كنت أعلم سبب هذا التحول ، وأصررت على الابتعاد . وأخذ بعض زملائى فى المدرسة يتجنبوننى بناء على تعليمات آبائهم ، ولكن بعد أن أدرك الجميع الخطر الذى يحيق بى أخذوا يبعثون بهم لزيارتى . وذات يوم زارنى واحد منهم ونظرت إليه ، وأدركت المناورة التى يرمى إليها الجميع ، وخاصة عند ما قال لى :

– أنت تعلم يا ريتشارد أننا جميعاً قلقون عليك .

– قلقون ؟ لماذا ؟ ومن هم القلقون على ؟

– الجميع .

– لماذا .

– لأنك لم تحصل على الخلاص .

وضحكت وقلت : أنا بخير .

– لا تضحك يا ريتشارد . الأمر فى غاية الجدية .

– ولكنى بخير .

– اسمع يا ريتشارد ، أريد أن أكون صديقاً لك .

– أعتقد أننا بالفعل أصدقاء .

– أريد أن أقول ، أصدقاء ، وإخواناً فى الدين .

وقلت بصوت لا يخلو من السخرية : إننا نعرف بعضنا .

– ولكنا لسنا متفقين فى أمور الدين .

– الصداقة عندى هى الصداقة .

– ولكن ألا تبغى لروحك الخلاص .

– إنى لا أشعر بالدين .

ولم أحاول أن أقول له إن روحى ليست على ما يظن .

وسألنى : هل حاولت أن تحس بالله ؟

ـ كلا . لأنى أعلم أنه ليس بوسعى أن أفعل هذا .

ـ ولكنك لا تريد أن تنتهى المسألة عند هذا الحد يا ريتشارد .

ـ ولماذا لا تنتهى عند هذا الحد ؟

ـ لا تسخر من الله يا ريتشارد !

ـ لن أحس بالله أبداً . أقول لك ، لا فائدة !

ـ هل تترك مصير روحك معلقة على الكبرياء والزهو ؟

ـ لا أعتقد أن ما أشعر به له علاقة بالكبرياء والزهو .

ـ فكر يا ريتشارد كيف مات المسيح من أجلك، كيف أراق دمه ، دمه الغالى ، على خشبة الصليب .

ـ كثيرون غيره أراقوا دماءهم !

ـ ولكن بشكل آخر . إنك لا تفهم .

ـ ولا أعتقد أننى سأفهم يوماً ما .

ـ يا أخى ، يا ريتشارد، إنك ضائع فى ظلام الدنيا، ويجب أن تدع الكنيسة تمد لك يد المساعدة .

ـ أنا بخير ، كما قلت لك .

ـ تعال معى إلى المنزل ودعنى أصلى من أجلك .

ـ لا أريد أن أجرح إحساساتك ، ولكن . . .

ـ لن تستطيع . لأنى أتحدث نيابة عن الله .

– ولا أريد أن أجرح إحساساته أيضًا .

وخرجت منى هذه الكلمات دون أن أشعر ، أما هو فقد ظهرت عليه علامات الذهول ، وأخذ يبكى ، وأسفت له ، وهمس يقول : « لاتقل هذا ، لن يسامحك الله على ما قلت » .

وكان من الصعب على أن أجعله يفهم حقيقة شعورى نحو الدين ، فلم أكن قد قررت بينى وبين نفسى ما إذا كنت أومن بالله أم لا ، وما إذا كنت أشعر به أم لا . كنت أدرك أن الله وحده يعلم مدى شكوكى ، ما دام هو الذى يدرك البداية والنهاية ، ويوزع العدالة بين الناس ، ويتحكم فى أقدارهم ، وأنه لابد يسخر منى . أما إذا لم يكن هناك إله ، فلم كل هذه الضجة إذن ؟

وكان الشعور بالألم الموجود فى الحياة قويًّا جدًّا بداخلى ، ولكنه لم يكن أقوى من شعورى بالحياة ذاتها . وكان صعبًا على أن أتصور نفسى مخلوقًا ضعيفًا فى كون واسع . لقد كنت فى البداية أوافق على وجود الله ، ولكن بعد أن رأيت ما يحدث لمخلوقاته أخذت الشكوك تساورنى . واندمجت معتقداتى فى أمور الحياة ، وفى حقائقها ، وفى شعورى بإحساساتى وعواطفى ، وفى إحساساتى الجسمانية والذهنية ، ولم يستطع أحد أن يغير من هذه المعتقدات .

وقلت لصديقى : أنا لا أخاف من هذه الأشياء .

ـ ألا تخاف الله ؟

ـ كلا ، لماذا أخاف منه ؟ أنا لم أفعل شيئاً له .

وحذرنى بقوله : إنه إله غيور !

ـ أرجو أن يكون إلهاً رحيماً .

ـ إذا كنت أنت رحيماً به ، فسيكون هو رحيماً بك ، ولكنه لن ينظر إليك إذا لم تنظر أنت إليه !

وخلال مناقشتى مع صديقى هذا قلت جملة تعتبر تفسيراً لموقفى من الدين ، جملة نبعت من معرفتى بالحياة كما عشتها ، ورأيتها ، وشعرت بها ، وتألمت منها ، جملة تحمل كل ما بى من خوف وجوع ورعب ووحدة :

ـ إذا كانت حياتى تصلح ثمناً لآلام العالم ، فسأضحى بها ، ولكنى لا أعتقد أن شيئاً يضع حداً لآلام البشر !

ولم يتكلم هو ولم يرد ، وكنت أريد أن أستمر فى كلامى ولكنى أدركت أنه لن يفهم ما أقول . وبرغم أنه كان يكبرنى سناً إلا أنه لم يمر بما مررت به ؛ فقد تعهدته أمه ورعاه أبوه ، ولم تسنح له الفرصة ليفكر وحده ، بل كان أهله يفرضون عليه تفكيره .

وقلت له : لا تغضب منى .

ونظر إلى بدهشة ، ثم انصرف وأنا أشعر بالأسف له .

وبعد هذه الزيارة بدأت جدتى حملتها . ولا بد أنه أخبرها بكل ما قلته من كفر وإلحاد لأنها كانت تحدثنى ساعات طويلة ، وتحذرنى من نار الجحيم . وكنت كثيراً ما أدخل إلى غرفة الطعام لأجدها راكعة تصلى من أجلى ، وكان الشعور بالله يملأ المنزل. وأحسست أنا بما يجرى وما يشعر به الجميع ، وطال اشتياقى للهرب. وكانوا يتوسلون إلى أن أعود إلى الله ، وكنت أنا أحاول جاهداً ألا أجرح شعورهم ، وعقدت العزم على الهرب قبل أن يعملوا على إخضاعى لرغباتهم .

وفجأة أتيت أمراً أدى إلى جرح روح جدتى ، وبرغم أن نيتى كانت العكس تماماً إلا أن النتيجة أن ما أتيته جلب العار على جدتى طيلة حياتها الدينية .

فى ذات ليلة سمعت القس ، بعد أن رفعت عينى عن زوجته ، يصف كيف رأى يعقوب الملاك. وسنحت لى الفرصة لأسأل جدتى عن برهان لهذه الرؤيا حتى أومن بها . وكنت أريد أن أقول لها إننى إذا ما شاهدت هذا الملاك بنفسى فسأومن بالله، وسأخدمه بلا تردد . ولا بد أنها ستفهم موقفى هذا ، وكان اعتقادى بأنى لن أرى ملاكاً هو الحافز القوى الذى دفعنى إلى السؤال ؛ لأنى لو كنت رأيت ملاكاً لتوجهت لتوى إلى الطبيب . وملت على جدتى — وهذه الفكرة المتألقة تراودنى — وأنا أشعر أن الوقت قد حان لأخفف من عذاب جدتى بسببى ، ولأقول لها إن قلبى

لا يزال يفكر فى الخطأ والصواب .

وقلت : إذا أنا رأيت ملاكًا يا جدتى كما فعل يعقوب فسأومن !

وجمدت جدتى وحملقت فى بدهشة ، ثم ملأت الابتسامة المشرقة وجهها المجعد وهزت رأسها وربتت على يدى . وظلت طوال الموعظة تنظر إلى وتبتسم . وأدركت أنها لم تقطع الأمل بشأنى نهائيًّا . وانتقلت أنا إلى « عبادة » زوجة القس بعد أن طهرت نفسى وروحى ، وأخذت أفكر فى شعورى وأنا أقبلها ، وأستعيد بعض الأحاسيس التى قرأت عنها . وانتهت الصلاة ، واندفعت جدتى إلى القس وأخذت تحادثه باهتمام ، ورأيته هو ينظر إلىّ بدهشة . وأسرع إلى ، ودون وعى وقفت ، ومد هو يده وصافحنى قائلا : لقد أخبرتنى جدتك بكل شىء .

وعقد الغضب لسانى ، ولكنى قلت :

— ولكنى لم أطلب منها ذلك .

— إنها تقول إنك رأيت ملاكًا !

وكظمت غيظى وأمسكت بذراعه وقلت :

— كلا يا سيدى ، كلا ، أنا لم أخبرها ذلك ، لقد أساءت فهم ما قلت .

ولم أكن أدرك خطورة ما أقول فقد نظر إلى القس ، وقال : ماذا قلت لها إذن ؟ . . . وأجبت وقد ازددت كراهية لجدتى :

— قلت لها إنى سأومن لو أنى رأيت ملاكًا .

وظهرت خيبة الأمل على وجه القس وقال : ولكنك لم تر ملاكًا .
وأجبت بكل تأكيد وأنا أهز رأسى حتى لا يكون هناك سوء منهم آخر :

ـ كلا يا سيدى .

وأشاح بوجهه ونظر بعيداً وقال :

ـ إن الله قدير على كل شىء .

ـ ولكنى لم أر شيئًا . أنا آسف على كل هذا .

ـ إذا واظبت على الصلاة ، فسيكون الله بجانبك .

وأحسست بالحرارة تسرى فى جسدى ، ووددت لو أنى أسرعت أجرى خارج الكنيسة . ولكن القس أمسك بيدى ومنعنى من الحركة ، وعندئذ استطردت أقول :

ـ إن ما حدث كله لم يكن سوى سوء فهم ، وأنا لم أود أن يحدث شىء كهذا .

ـ اسمع يا ريتشارد ، أنا أكبر منك سنًّا ، وأعتقد أن إيمانك لا يزال راسخًا فى قلبك .

وتوسلت إليه :

ـ أرجوك ، يا سيدى القس ، لا تقل لأحد ما حدث بيننا .

وظهر الأمل على وجهه ثانية :

ـ لعلك خجول مما حدث ، وأرجوك أن تبلغنى بمجرد أن تشاهد ملاكًا .

وأرجوك أن تعدنى بالمواظبة على الصلاة، لأن الله عندئذ سيستجيب لرغباتك .

وأشحت بوجهى عنه وأنا أشعر بالأسف له ، وبأنى قد ارتكبت جرمًا شنيعًا .

وودت لو أن كل شىء ينتهى وأخرج من الكنيسة . وهمس هو يقول :

— دعنى أتحدث معك فى يوم آخر .

وكان جميع من بالكنيسة ينظرون إلى، ومن بينهم جدتى التى كانت تجلس وابتسامة الأمل ترتسم على وجهها . وفهمت أنها تعيش على أمل مثل هذا . وفهمت أنها أبلغت كل الموجودين بما حدث ، ومن بينهم زوجة القس . ووقف الجميع ينظرون إلى باحترام وتقدير ، وكان من السهل على أن أقف فيهم خطيبًا، وكان من السهل عليهم فى هذه اللحظة أن يستمعوا إلىّ .

وأسرعت جدتى إلىّ ودموع الفرح تملأ عينيها ، وأخذت تحتضننى بقوة ، وتكلمت أنا وقلت لها إنها لم تفهمنى جيداً ، ولا بد أن صوتى كان عاليًا ولهجتى عنيفة ، لأنى رأيت الجميع وقد التفوا حولى، أما جدتى فقد ابتعدت عنى بغضب ، وقالت : يجب ألا تكلمنى هكذا .

وفى طريق عودتنا إلى المنزل لم تخاطبنى بكلمة واحدة . وسرت أنا بجانبها أسترق النظر إلى وجهها العجوز المتعب ، وأيقنت أن معلوماتى

عن الدين تفوق معلوماتها هى بكثير ، لأنى أحسست بلهفة القلب البشرى على شىء لا يمكن أن يكون ، وبجوع الروح البشرية ورغبتها فى الانتصار على الحياة .

وحاولت بعد ذلك أن أقنعها بأنى لم أهدف إلى جرح إحساساتها . وفرحت هى لاهتمامى بها إلى هذا الحد، وحاولت أن تستغل هذا الاهتمام لهدايتى إلى طريق الله، وأخذت تبكى وتتوسل إلى أن أصلى وأواظب على الصلاة .

ورجوتها ألا تطلب منى وعداً بذلك، ولكنها أصرت قائلة : إن فى ذلك خلاص روحى .

واضطررت إزاء إلحاحها أن أعدها ، لأنى كنت أحس بالذنب لما جلبته عليها من العار فى الكنيسة .

وكنت أدخل إلى غرفتى يومياً وأغلق الباب ورائى ، وأركع محاولا الصلاة ، ولكنى كنت لا أجد كلمات مناسبة ، وإذا وجدتها أشعر بمدى تفاهتها . وفى يوم من الأيام انفجرت ضاحكاً لسخافة ما أقول ، وأيقنت ألا فائدة ، فأنا لا أستطيع الصلاة ، ولن أستطيع الصلاة أبداً ، ولكنى أخفيت هذا السر عن عائلتى . وكنت مضطراً أن أواصل هذه التمثيلية مما ضايقنى ، وأخذت أحس الأسف على وعدى لجدتى ، وأخيراً وجدت طريقة لأجعل الساعات التى أقضيها فى غرفتى تمر ،

وتمر بسرعة . أخذت الإنجيل وقلماً من الرصاص وورقة وقاموساً ، وأخذت أحاول كتابة الترانيم الدينية ، وكنت أقول لنفسى إننى إذا كتبت ترنيمة ناجحة فقد تسامحنى جدتى ، ولكنى فشلت حتى فى هذا . ولم أتمكن أبداً من رؤية روح القدس بجانبى .

وفى ذات يوم تذكرت وأنا جالس فى ساعات صلاتى أن هناك كتاباً عن التاريخ الهندى كنت أقرأ فيه فى السنة الماضية ، وقلت لنفسى : سأكتب كتاباً عن الهنود ، ولكن ... ماذا أكتب عنهم ؟ سأكتب عن فتاة هندية . وكتبت عن فتاة هندية جميلة ومتحفظة تجلس وحيدة على شاطئ النهر ، وأشعة القمر تحوطها من كل جانب . ويبدو أن الفتاة كانت قد أقسمت قسماً لم أستطع أنا فهمه ، ولم أتمكن من الاستمرار فى القصة فوجدت أن أسهل طريقة أن أجعل الفتاة تموت ، ووقفت وسارت نحو النهر وألقت بنفسها فى مياهه وغاصت فيها وكتبت :

« وأخيراً لفها ظلام الليل وقبل قبرها ولم يسمع سوى صوت حفيف أوراق الشجر » .

وفرحت لما كتبت وأخذت أعاود قراءته المرة تلو المرة ، ولكنى أحسست أنه لا توجد فكرة وراء ما كتبت ، ولا حركة ، ولا شىء بالمرة سوى الوحشة والموت .

ولكنى كنت جذلا مسروراً لأن هذه أول مرة أحاول فيها الكتابة ، ولأنى قمت بعمل ما ، عمل يخصنى أنا . والآن لن أستطيع أن أرى هذه

القصة ، لا يمكن أن أريها لأقربائى ، فقد يظنوننى مجنونًا ، وقررت أن أقرأها لفتاة تسكن بجوارنا ، وذهبت إليها وكانت فى المطبخ تغسل الأطباق ، وبعد أن جعلتها تقسم بألا تبوح بسر ما سأقوله لها أخذت أقرأ عليها ما كتبت . ولما انتهيت من القراءة ابتسمت هى ونظرت إلىّ متسائلة : ما فائدة هذا ؟

ـ لا شىء ؟

ـ ولكن لماذا كتبته ؟

ـ لأنى أردت أن أكتب .

ـ من أين أتتك الفكرة ؟

وهززت رأسى ووضعت الأوراق فى جيبى وحاولت أن أقول لها شيئًا ، ولكن كل ما قالته كان : لا أعلم . إنها فكرة طرأت على ذهنى فقط .

ـ وماذا ستفعل بها ؟

ـ لا شىء .

ولم أتمكن من أن أفهم رأيها ، وكل ما أدركته أنى أرغب فى الكتابة ، فى التعبير عما يجول فى ذهنى بالكتابة . ولكنى لم أنس طيلة حياتى نظرة الفتاة عند ما انتهيت من قراءة ما كتبت ، نظرة دهشة وعجز عن فهم ما أقول . ولكن هذه النظرة دفعتنى لسبب لا أعلمه .

الفصل الخامس

الآن وبعد أن تركتنى عائلتى وشأنى ، وأيقنت أنى غير ملحد ولا زنديق ، استطعت أن أتحرر من هذا السجن. واختفت من أمام ناظرى صور الخوف وأصبحت الدنيا حقيقة أمام عينى . وكنت أداوم القراءة بدلاً من الصلاة والتفكير غير المجدى. وعدت ثانية إلى اللعب والاختلاط بالأصدقاء ، وإلى إطفاء ظمئى من الحياة وحقائقها .

وتغير سلوك خالتى « آرى » وجدتى تجاهى ، برغم أنهما قالتا لى إنهما يدركان تماماً ما أفعل ، ولا فائدة ترجى منى . وكانت معاملتهما لى تتسم بالعداء والاحتقار ، ولم يعد يهتم بى سوى أمى ، وكانت قد تحسنت قليلاً ، وأخذت تحثنى على الاستذكار .

ولكن حريتى هذه جلبت على كثيراً من المشاكل ، لأنى كنت بحاجة إلى كثير من الكتب . وكان لزاماً على أن أنتظر شهوراً قبل أن أحصل عليها ، فقد رفضت جدتى أن تشترى لى كتباً ولا ملابس ؛ وأصرت على أن أقوم أنا بغسل وكى ملابسى . ولم أهتم بكل هذا ، وأحسست أن حياتى لا تتوقف على الدراسة بقدر ما تتوقف على الاندماج بين الناس ودراسة حياتهم هم .

ودخلت مدرسة « جيم هيل » ، وكنت قد أمضيت عاماً كاملاً فى

مدرسة الكنيسة . وكان شعورى متأججاً ومندفعاً ، لا أفكر بعقلى ، ولكن بإحساسى . ولم أدرك أن السنوات الأربع التالية ستكون هى الفرصة الوحيدة أمامى للدراسة الحقيقية .

وفى أول يوم للدراسة مررت بنفس المشكلات التى اعتدت عليها ، واندمجت بين الأولاد بملابسى الرثة المهلهلة آملاً ألا يلحظوا وجودى بينهم ، ولكن هيهات أن يحدث ذلك ، فسرعان ما اقترب منى أحد الأولاد ودفعنى فسقطت على الأرض ، وصاح هو مهللا فرحاً . . .

والتقطت قبعتى من على الأرض وانتظرت . والتف الأولاد حولى يشيرون إلىّ ويصيحون صيحات غير مفهومة .

ولم أحس أن فى صيحاتهم أى تحد لى بعد ، فلم يقترب منى أحدهم ولم يهاجمنى . ورجوت أن تقف المسألة عند هذا الحد . ولكن الولد الذى بدأ الشغب اقترب منى وقال :

— هل اشترت لك أمك هذه القبعة القش ؟

وحذرته قائلا : حاسب على كلامك .

— يا إلهى إنه يستطيع الكلام .

وانفجر الجميع ضاحكين ، وسألنى الولد :

— من أين أتيت ؟

— لا شأن لك .

— اسمع لا تتعالَ وإلا ضربتك .

ـ أنا أقول ما يعجبنى .

والتقط هو حجراً صغيراً من على الأرض ووضعه على كتفه، وطلب منى أن أرمى به .

وترددت برهة ثم فعلت ما طلب منى ورميت الحجر من على كتفه ، ثم أمسكت برجليه بسرعة وأوقعته على الأرض . وعندئذ بدرت من الأولاد صيحات أشبه ببركان ، وقفزت أنا فوقه وأخذت أضربه ، ولكن أحد الأولاد انتزعنى من فوقه بشدة ، وسقطت قبعتى القش ، وداس الأولاد عليها بأقدامهم .

وقال الولد الذى انتزعنى : لا تضرب أخى .

ـ إن العدالة لا تقول إن اثنين يقاتلان واحداً .

ولكن الاثنين أطبقا علىّ وأحسست بالضربات تنهال على رأسى ، ورأيت حجراً يرتطم بظهرى وأحسست بدمائى تسيل فقد أخذ الأولاد يقذفوننى بالحجارة .

والتقطت حفنة من الحجارة ، وتراجع الولدان ، وصوبت يدى لألقى بالحجارة، وحاول واحد منهما الجرى ولكنى أمسكت به وصرخ ، وأسرعت أنا وراء الآخر وعلت صيحات التهليل من الأولاد ، وتجمعوا حولى مبدين إعجابهم لأننى تغلبت على اثنين . وفجأة ساد الهدوء ورأيت إحدى المدرسات تقترب منى وتسألنى : هل أنت الذى ألقيت بالحجارة ؟

ـ إن ولدين من الأولاد كانا يضربانى .

وأمسكت بيدى وقادتنى معها ، ودخلت إلى المدرسة وقد ألقى القبض على . وأدخلتنى غرفة وجدت فيها الأخوين واقفين أمامى وسألت المدرسة :

— هل هذان هما الولدان ؟

— نعم وقد ضربانى ، فاضطررت للدفاع عن نفسى .

وصاح واحد منهم :

— لقد ضربنى هو الأول .

— إنك كاذب .

وحذرتنى المدرسة بقولها : لا تستخدم مثل هذه الألفاظ هنا .

— ولكنهما لا يقولان الحقيقة ، أنا جديد فى المدرسة وقد مزقا قبعتى .

وقال الولد ثانية :

— هو الذى بدأ بالضرب .

ولم أتمالك نفسى عندئذ فمددت يدى وصفعته على وجهه ، وأمسكت المدرسة بنا ، وصاحت فى :

— كيف تجرؤ على هذا ، إنك تثير الشغب فى المدرسة ، ماذا دهاك ؟

— إنه لا يقول الحقيقة .

وأمرتنى بالجلوس فجلست ولكنى واصلت النظر إلى الولدين .

وأخرجتهما المدرسة من الغرفة وجلست أنا أنتظر . ولما عادت قالت لى : سأسامحك هذه المرة .

ـ لم يكن الخطأ خطئى .

ـ أنا أعلم . ولكنك ضربت أحد الولدين هنا أمامى .

ـ أنا آسف .

وسألتنى عن اسمى ، ثم أرسلتنى إلى غرفة أخرى. ولسبب لا أعلمه وضعتنى فى الصف الخامس . وجلست أنتظر ، خائفاً أن يدركوا أنى لا أستحق الصف الخامس . وعندما نادوا على الأسماء سمعت نفسى أقول اسمى . وتقبلونى فى الصف الخامس .

وأخذت أداوم على الاستذكار ليل نهار ، وبعد أسبوعين نقلت إلى الصف السادس ، وفرحت لهذا ، وأسرعت إلى المنزل لأزف إلى أهلى الأخبار الطيبة . ولم يصدقونى ، فلم يتصوروا أن ولداً شريراً مثلى سيفلح فى المدرسة . وأخبرت عائلتى أننى سأدرس الطب وأواصل الأبحاث وأصل إلى مخترعات ! وفى غمرة الفرحة لم أفكر لثانية واحدة من أين ستأتى النقود التى سأتمكن بواسطتها من الدراسة والأبحاث. ولكن ترقيتى إلى الصف السادس خلال أسبوعين جعلتنى أرى كل شىء ممكناً وبسيطاً .

وأدى اختلاطى بالأولاد والبنات فى المدرسة إلى زيادة حيويتى ، وفهمت أن حياتى تدور حول دنيا يجب أن أندمج فيها وأواجهها عندما

أنمو . وبدأ المستقبل أمام عينى ملموساً محسوساً ، كما يبدو المستقبل أمام زنجى يعيش فى ولاية (ميسيسبى) .

وكان معظم زملائى فى المدرسة يعملون فى الصباح والمساء وفى أيام السبت ، بجانب دراستهم ، حتى يحصلوا على نقود لشراء ملابسهم وكتبهم ، وكانوا دائماً يحملون نقوداً معهم فى المدرسة . وكنت أشاهد الأولاد يدخلون محلات البقالة ويختارون ما يريدون من أنواع الحلوى فأحس أنها معجزة ، الأمر الذى دفعنى إلى مصارحة جدتى برغبتى فى العمل ، ولكنها رفضت بشكل قاطع ، ورفضت أن تتركنى أعمل أيام السبت ، ما دمت أقيم معها تحت سقف واحد . وناقشتها فى هذه النقطة ، فقلت لها إن أيام السبت هى الأيام الوحيدة فى الأسبوع التى أستطيع فيها أن أكسب بعض النقود ، ولكنها رفضت وألقت على موعظة من الإنجيل تقول إن يوم السبت يوم عطلة لا يعمل فيه الناس ولا الحيوانات ، بل يستريح الجميع .

وكان هذا فصل الخطاب ، وبرغم أن حالتنا المالية كانت قد أوشكت على الإفلاس ، إلا أن جدتى رفضت الرشوة التى حاولت أن أتقدم إليها بها ، قائلا : إنى سأعطيها نصف ما أكسب أو ثلثيه . وغضبت أنا لرفضها هذا ، ولعنت حياتى معها وقلت لها إنها غير مسئولة عن روحى ، وردت علىّ بأنى ما زلت قاصراً ، وأن مصير روحى بين يديها ، وأنه لا رأى لى فى هذه المسألة .

وإزاء كل هذا كنت أعامل الأولاد بتحفظ ، ولا أتحدث عن عائلتى ، وأرفض دعواتهم للخروج أو للنزهة، وبرغم أنى كنت أختلط بهم ، إلا أنى كنت أحاول جاهداً أن أخفى عنهم كيف أنى طريد دنياهم . وكنت أصحب الأولاد إلى محال البقالة وأقف أرقبهم وهم يشترون الحلوى والغداء ، وإذا ما سألونى لماذا لا أشترى غدائى أهز كتفى وأقول إنى لست جائعًا . ويسيل لعابى وأنا آراهم يأكلون الخبز والسردين . ومرة ثانية أقسمت أن أضع حدًّا لهذا الجوع الذى أشعر به ، أضع حدًّا لاختلافى عن الآخرين . وكنت لا أشك إطلاقًا أنى سأعيش معهم ولكنى لن أندمج أبداً فى حياتهم ، وأن طريقى سيختلف عن طريقهم إلى الأبد ، وسيكون طريقًا سيعجبون هم فى السنوات المقبلة كيف تسنى لى أن أسلكه .

والآن ، شاهدت عالمًا يبعث إلى الحياة أمام عينى ، لأنى كنت قادراً على استكشافه . وكان هذا يعنى ألا أعود مباشرة إلى المنزل بعد الدراسة بل أتجول وأسأل وأحادث الناس . وكنت أفعل هذا لأن جدتى كانت ترفض خروجى ثانية بعد العودة من المدرسة وبرغم أن تجوالى هذا كان يعنى حرمانى من الأكل ، إلا أنى كنت أعتقد أنى لست مغبوناً فى هذه الصفقة وكنت أتناول إفطاراً خفيفاً فى الثامنة صباحًا وبعض الخضراوات المسلوقة فى الثامنة مساء ، وأبقى طوال النهار بلا طعام . وكان من الجنون أن أجوع حتى يتسنى لى دراسة بيئتى ، ولكن اشتياقى إلى المعرفة دفعنى إلى ذلك .

وكنت أطرح كتبى على كتفى أتسكع مع الشلة فى الغابات ، على شواطئ الأنهار ، وداخل المدينة ، وأمام أبواب نوادى القمار والمراهنة ، وفى السينما إذا استطعنا أن ندخل خلسة دون أن ندفع أجر الدخول ، وفى ساحات لعب الكرة ، ومصانع الأخشاب ، حيث كنا نراقب الرجال وهم يعملون . وكنت أشعر فى بعض الأحيان بالوهن والضعف لأنى لم أتناول طعاماً ، وأترنح وأنا أسير ، ويكاد قلبى أن يتوقف عن الحركة ، ولكن سعادتى بالحرية والانطلاق كانت تمنحنى القوة والتغلب على الجوع ونسيان مطالب غرائزى البشرية .

وكان معى فى الفصل ولد زنجى طويل القامة ثائر دائماً ، رغم تقدمه فى دراساته ، ذو شخصية جبارة . وكان يخالف قوانين الفصل دائماً ، ويقوم بالألعاب المضحكة ، ولم تستطع المدرسة أن تكتشف طريقة لتجعله يكف عن هذا ، وكان هو الذى اكتشف صراعى مع الجوع ونصحنى بأن أجد عملا أحصل منه على بعض النقود ، قائلا : لا تستطيع أن تظل طوال النهار دون طعام ؟

— وماذا أفعل ؟

— مثلما أفعل أنا .

— وماذا تفعل أنت ؟

— أبيع الجرائد والصحف . .

— لقد حاولت ولكنى لم أستطع ، رغم أنه عمل محبب لدى إذ

سيمكننى من قراءة الصحف .

ـ أنت أيضًا تحب القراءة ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هذا هو السبب الذى يجعلنى أقوم ببيع الصحف .

ـ وهل يعترض والداك على قراءاتك ؟

ـ نعم . فوالدى رجل سقيم العقلية .

ـ وما هى الصحف التى تبيعها ؟

ـ إنها صحيفة تصدر فى شيكاجو ، صحيفة أسبوعية ولها ملحق يحوى كثيراً من القصص ، وأنا الآن أتابع قراءة المسلسلة : « ركاب البحر القرمزى » تأليف زين جراى . . .

ونظرت إليه وأنا لا أكاد أصدق أذنى ، وصحت قائلا :

ـ ركاب البحر القرمزى ؟

ـ نعم .

ـ هل تعتقد أننى أستطيع بيع مثل هذه الصحف ؟

ـ بالطبع ، وأنا أكسب نحو خمسين سنتًا فى الأسبوع ، علاوة على أننى أستطيع بذلك أن اقرأ كل ما أريد .

وتبعته إلى منزله . وأعطانى نسخة من الصحيفة والمجلة الملحقة بها . وكانت صحيفة رشيقة التحرير لأنها كانت توزع فى المناطق الريفية ، وللبر وتستانت من البيض .

وحثنى الولد قائلا :

— أسرع وقم ببيعها ، لأنى أريد أن أروى لك كل ما قرأت من قصص .

ووعدته أنى سأطلب مجموعة من الصحف . ثم توجهت إلى منزلى وأنا لا أكف عن القراءة فى الطريق ، برغم أن الضوء كان قد بدأ يختفى ، وأخذ الغسق يحل مكانه . إلا أنى واصلت القراءة ، وكنت أصطدم بالمارة . وكنت مستغرقاً فى قراءة قصة أحد العلماء الذى قام بصنع غرفة معدنية فى بدروم منزله ، وكان يدعو الناس إلى هذه الغرفة ثم يضغط على زر كهربائى ، وتكون النتيجة أن تمتص الكهرباء الهواء الموجود بالغرفة فيؤدى ذلك إلى موت الضحايا ، بعد أن يتغير لونهم من أحمر إلى أزرق إلى أسود ! وكنت أحب قراءة مثل هذه القصص ، قصص الرعب والإثارة . لم أكن قد ربيت لنفسى ذوقاً معيناً فى القراءة ، وكان كل ما هو مثير يجذبنى .

ووعدتنى جدتى بالموافقة على قيامى ببيع الصحف ، وسعدت جداً لهذا ، فسيصبح من الممكن أن أقرأ كل ما أريد . ولحسن الحظ أن جدتى كانت لا تعرف القراءة ، لأنها كانت قد قامت بإحراق كل الكتب التى أحضرتها إلى المنزل ، قائلة إنها كتب دنيوية لا فائدة فيها . ولكنها كانت مضطرة أن تتحمل وجود الصحف بالمنزل ما دامت قد وافقت على أن أبيعها . أما رأى خالتى « آرى » فلم يكن له أهمية ، وكانت هى الأخرى

لا تلقى إلىّ بالا ، وتعتبرنى فى نظرها ميتاً . أما جدتى فقد ظنت أنى قد أصبحت ولداً جاداً أريد أن أكسب قوتى بعرق جبينى . وفى نفس الليلة طلبت مجموعة من الصحف وأخذت أنتظر وصولها بقلق .

ووصلت الصحف ، وسرت بها فى الأحياء التى يسكنها الزنوج ، وتمكنت من جلب بعض الزبائن الذين اشتروا منى الصحف ، لا لأنهم يريدون القراءة بل لأنهم يعرفوننى . وكنت بمجرد عودتى إلى المنزل فى المساء أغلق باب حجرتى ورائى وأروى ظمئى للقراءة عن رجال غرباء وأحداث غريبة تجرى فى بلاد بعيدة . وأحسست لأول مرة بالحياة من حولى ، الحياة الحديثة ، حياة المدن الكبيرة ، وأحببت هذه الحياة . وبرغم أن ما كنت أقرؤه كان من نسج الخيال إلا أنى تقبلته على أنه حقيقة لا جدال فيها ، لأنى كنت أريد ذلك ، وكنت أتوق إلى حياة أخرى غير التى أحياها ، وإلى نظام جديد للحياة ، ووسعت هذه القصص الرخيصة من أفقى ، وكانت بمثابة البوابة التى سأخترقها لأصل إلى العالم .

وكنت سعيداً بعملى هذا ، وكان المتوقع أن أستمر فيه ، لولا تدخل أحد أصدقاء العائلة ، وكان رجلا طويل القامة هادئ الطباع ، يعمل نجاراً ، ففى إحدى الليالى توجهت إلى منزله لأبيع له الصحيفة ، فأعطانى عشرة سنتات ثم نظر إلىّ وقال :

ـ لكم أحب أن أراك تكسب بعض المال كل أسبوع .

ـ أشكرك يا سيدى .

– ولكن أخبرنى من الذى أوحى إليك بفكرة بيع هذه الصحف ؟

– لا أحد .

– من أين تحصل عليها ؟

– من شيكاجو .

– هل تقرؤها ؟

– بالطبع ، أقرأ القصص الموجودة فى الملحق ، ولكن لا أقرأ الصحيفة ذاتها .

فأطرق برهة ، ثم قال : هل طلب منك أحد البيض أن تبيع هذه الصحيفة ؟

وانتابتنى الدهشة لهذا القول ، وأجبت : كلا يا سيدى . لماذا تسأل ؟

– هل يعرف أهلك أنك تبيع هذه الصحيفة ؟

– نعم يا سيدى . ولكن أى ضرر فى ذلك ؟

– ومن الذى دلك على طريقة الاتصال بهذه الصحيفة ؟

– أحد أصدقائى ، ويقوم هو الآخر ببيعها .

– هل صديقك هذا من البيض ؟

– كلا يا سيدى . إنه ملوّن . ولكن لم كل هذه الأسئلة ؟

ولم يجب عن سؤالى ، بل طلب منى الانتظار قليلا ، وقال إنه سيطلعنى على شىء ما . ودخل المنزل .

ما الأمر يا ترى ؟ هل هناك شيء فى الصحيفة ؟ إنها تبدو لا غبار عليها ، فى عينى على الأقل ، وانتظرت بقلق ، لأنى كنت أريد أن أواصل سيرى وأبيع ما لدى من الصحف ، حتى أعود إلى المنزل لأستأنف القراءة . وعاد الرجل يحمل نسخة من الصحيفة سلمها لى ثم قال :

ـ هل رأيت هذا ؟

وأشار إلى صورة كاريكاتورية بذيئة .

ـ كلا يا سيدى ، فأنا لا أقرأ الصحيفة ، بل أقرأ الملحق فقط .

ـ انظر إلى هذا على مهل ، وقل لى ما رأيك فيه ؟

وكان عدد الأسبوع الماضى من الصحيفة ، ونظرت إلى الصورة ، ورأيت فيها رجلا زنجياً ضخماً له وجه دهنى يتصبب عرقاً ، وشفتان غليظتان ، وأسنانه ذهبية ، يجلس إلى مكتب نظيف لامع ، ويرتدى زوجاً من الأحذية الصفراء اللامعة ، ويدخن سيجاراً أسود غليظاً ، ويرتدى كرافتة ذات دوائر حمراء يمسك بها دبوس براق على شكل حدوة حصان ، وتتدلى فوق بطنه سلسلة ذهبية . وفوق رأسه لوحة كتب فيها هذا العنوان :

« البيت الأبيض »

وتحت هذه اللوحة صورة لإبراهام لنكولن ، وقد تشوهت معالم

وجهه حتى بدا وكأنه أحد رجال العصابات . ونظرت إلى أعلى اللوحة وقرأت :

« إن الحلم الوحيد للزنجى أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة ، وأن يضاجع النساء البيض . فهل نريد نحن الأمريكيين أن يحدث هذا فى بلادنا الجميلة . نظموا أنفسكم ودافعوا عن نسائكم البيض » .

وحملقت مشدوهاً ، محاولا أن أفهم المقصود من الصورة والعبارة ، ولماذا يبدو الأمر كله غريباً ، وإن يكن مألوفاً فى الوقت نفسه ؟! وسألنى الرجل : هل تفهم معنى كل هذا ؟

ـ كلا ، الواقع أننى لا أفهمه !

ـ هل سمعت عن جماعة الكوكلاكس ؟

ـ بالطبع ، لماذا ؟

ـ هل تعرف ماذا تفعل هذه الجماعة للملونين ؟

ـ بالطبع إنهم يقتلوننا ، ويمنعوننا من التصويت ومن الحصول على أعمال !

ـ إن الصحيفة التى تبيعها تروج لأفكار هذه الجماعة ؟

ـ حقًّا ! لم أكن أعلم ذلك !

ـ اسمع يا بنى ، إنك ولد ملون يحاول الحصول على بعض النقود ، وهذا حسن ، وأنا لا أريد أن أمنعك من هذا ، ولكنى قرأت هذه الصحيفة

طوال الشهرين الماضيين ، وأعلم تماماً ماذا تهدف إليه ، وأنت ببيعك إياها تساعد البيض على قتلنا !

— ولكن هذه الصحيفة تأتى من شيكاغو !

وكان صوتى يحمل رنة احتجاج ساذجة ، فقد بدأت أشك فى العالم كله . كنت أعتقد أن الدعاية العنصرية لا تصل إلى شيكاجو ، لأنها المدينة التى يهرب إليها الزنوج بالآلاف . وقال الرجل :

— أنا لا يهمنى من أين تأتى الصحيفة ، ولكن استمع إلى هذا :

وأخذ يقرأ مقالا طويلا يروج لقتل الزنوج ويعتبره حلاً للمشكلة . وبرغم أنى كنت أستمع إلى ما يقرأ ، إلا أنى لم أستطع أن أصدق ما أسمعه ، وقلت له :

— دعنى أرى هذه الصحيفة .

وأخذتها منه وجلست على السلم أقلب صفحاتها ، وأقرأ المقالات المعادية الزنوج بشكل وحشى قاسٍ جعل بدنى يقشعر ، وسألنى هو :

— هل يعجبك ما تقرأ ؟

— كلا يا سيدى !

— هل تدرك خطورة ما تفعل ؟

— لم أكن أعلم . . .

— هل ستواصل بيع هذه الصحيفة ؟

ـ كلا يا سيدى ، أبداً . . .

ـ لقد بلغنى أنك متقدم فى دراستك ، ولقد عجبت جداً عندما سمعت أنك تبيع هذه الصحيفة ، ولكنى فهمت أنك لا تدرك خطورة ما تفعل . ولقد رغب كثيرون فى أن يفاتحوك فى هذا الموضوع ، ولكنهم كانوا يخافون ، فقد ظنوا أنك على اتصال ببعض أفراد الجماعة ، ولكنى كذبت هذا ، وقلت إنك لا تفهم معنى ما تقوم به .

وسلمته العشرة سنتات ، ولكنه رفض أن يأخذها ، قائلا :

ـ احتفظ بها يا بنى ولكن بحق السماء ابحث عن شىء آخر تبيعه .

ولم أحاول أن أبيع نسخة واحدة من الصحيفة ، وسرت بالمجموعة تحت إبطى إلى المنزل وأنا خائف أن ينقض على أحد الزنوج ، وعجبت لسذاجتى التى جعلتنى أقوم بمثل هذا العمل ؟ . . . ويبدو أن رغبتى فى قراءة المسلسلات أعمتنى عن قراءة ما تحويه الصحيفة ذاتها . وقررت أن أحتفظ بالأمر سراً ، ولا أخبر أحداً أنى ـ دون علم منى ـ كنت عميلا لجماعة الكوكلاكس ! وألقيت بالصحف فى ترعة ، ولما وصلت إلى المنزل أخبرت جدتى ـ متعمداً عدم الاكتراث ـ أن الشركة لم تعد بحاجة إلىّ ، لأن عملاءها كثيرون فى (جاكسون فيل) . ولم تهتم جدتى بهذا الأمر ؛ فإن ما كنت أكسبه كان قليلا لدرجة أنها لم تشعر به . ولم أساهم به فى نفقات المنزل .

وأدرك والد الولد الذى حثنا على بيع الصحف الطابع العنصرى لما تحويه

الصحيفة ، فمنع ابنه أيضًا من بيعها ، ولكنى لم أناقش الأمر إطلاقاً مع ذلك الولد الآخر ، إذ كنا خجلين جدًّا من تصرفنا . وفى يوم من الأيام سألنى فى حذر :

— قل لى ، أمَا زلت تبيع هذه الصحف ؟

فأجبت ، متجنبًا النظر إلى عينيه :

— كلا ، فلا وقت عندى .

— أنا أيضًا ، لأنى مشغول جدًّا .

* * *

وواصلت الدراسة بدأب ، وكنت متقدمًا فى كل المواد ، وكنت أقرأ فى أوقات فراغى بعض الروايات البوليسية ، وأحلم بزيارة المدن الكبيرة التى لم أرها والأشخاص الذين لم أقابلهم . . .

وانتهت الدراسة . وكانت أيام الصيف الحار طويلة ، فكنت أجلس فى المنزل أفكر وأحلم وأشعر بالجوع الذهنى والجسمانى ، وألعب الكرة بعد أن تغيب الشمس وتخف حدة حرارتها وفى المساء أجلس على سلم المنزل أرقب الناس والمركبات .

وفى إحدى الليالى ، بينما كانت جدتى وخالتى وأمى يجلسن فى الشرفة يتناقشن فى موضوع ما ، وكان موضوعًا دينيًّا جلست أنصت لما يدور ، وفجأة برقت فى ذهنى فكرة منبعثة من النقاش ، ووجدت نفسى أتدخل

فى المناقشة ويبدو أن آرائى كانت بعيدة كل البعد عن الدين ، الأمر الذى دعا جدتى أن تصرخ فى :

— اخرس أنت !

ومدت يدها لتضربنى ، ولكنى كنت قد برعت فى تجنب ضرباتها ، وفجأة وجدتها تسقط على الأرض من شدة التصويب ! . . . وصرخت خالتى وأمى وهرعتا إليها ، ونادتا جدى الذى قام بإنقاذها — وكانت غائبة عن الوعى — ووضعوها فى السرير ، واستدعوا طبيباً .

وانتابنى الخوف لما حدث ، فجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب ورائى . ماذا فعلت ؟ . . . لو أنى التزمت السكوت لما حدث لجدتى ما حدث ، لو أنى تركتها تضربنى ولم أحاول تجنب ضربتها لما وقعت على الأرض ، ولما أصابها ما أصابها ، ولكن أليس من الطبيعى أن يحاول الشخص أن يتجنب ضربة موجهة إليه . وانتظرت وأنا أرتعد فرقاً ، هل ماتت جدتى يا ترى ؟ . . . وبقيت على هذه الحال ساعات ، وأخيراً فتحت الباب وتسللت إلى أسفل . وقلت لنفسى لو أنها ماتت فسأهرب ، ليس هناك أمامى من سبيل غير هذا ، وواجهتنى خالتى « آرى » فى الصالة وعيناها تنطقان بالشر ، وقالت :

— أتدرى ماذا فعلت لجدتك ؟

— لم ألمسها !

كنت أريد أن أسألها عن حال جدتى، ولكن الخوف منعنى . . .
واستطردت هى تقول :

ـ إنك تحاول قتلها . . .

ـ إنى لم ألمسها ، وأنت تعلمين هذا تماماً . . .

ـ إنك شرير ، ولا يأتى من ورائك سوى المتاعب !

ـ لقد كنت أحاول أن أتجنب الضربة ، ولم أفعل خطأ .

وتحركت شفتاها دون أن يصدر منها كلام ، وقالت أخيراً :

ـ لماذا تتدخل فى حديث الكبار ؟

ـ كنت أريد الحديث مع أحد ، لأنى أجلس فى هذا المنزل ساعات طوالا دون أن أكلم أحداً .

ـ من الآن فصاعداً أقفل فمك ولا تتكلم إلا عندما يخاطبك أحد .

ـ لكن ينبغى أن تكف جدتى عن ضربى .

ـ اسمع يا ولد ، لا تقف أمامى وتسرد على ما يجب أن تفعله جدتك وما لا يجب أن تفعله ، وإذا لم تقفل فمك فسأضربك أنا .

ـ إنى أحاول أن أشرح لك سبب سقوط جدتى على الأرض .

ـ اسكت وإلا دققت عنقك !

وصحت فيها غاضباً :

ـ إنك مغفلة أخرى !

وارتعشت غضبًا وقالت :

ـ سأعلمك الأدب هذه الليلة .

وجريت من أمامها إلى المطبخ وأمسكت بسكين الخبز . . . وتبعتنى هى . ووقفت أمامها والسكين فى يدى والدموع الهستيرية تنهمر من عينى :

ـ إذا لمستنى فسأقتلك ، والله شاهدى ، أنا سأغادر هذا المنزل بمجرد أن أحصل على عمل وأكسب قوتى ، فمن الأفضل لك ألا تمدى يدك إلى !

ووقفنا نجابه بعضنا البعض ، والكراهية تنبعث من عيوننا ، وأقسمت هى بصوت جاد منخفض :

ـ سأعلمك الأدب ، سأعلمك الأدب والسكين بعيدة عنك .

ـ سأحتفظ دائمًا بالسكين .

ـ لن تحتفظ بها وأنت نائم .

ـ إذا لمستنى وأنا نائم فسأقتلك .

وخرجت هى من المطبخ وتركت الباب مفتوحًا على مصراعيه ، وكانت هذه عادتها دائمًا .

وظللت بعد هذا الحادث أحتفظ بسكين المطبخ معى فى السرير ، وكنت أخبئها تحت الوسادة حتى أحمى نفسى إذا ما هاجمتنى خالتى ؛ ولكنها لم تفعل ، ويبدو أنها فضلت أن تصلى لأجلى .

وبقيت جدتى ملازمة الفراش لمدة ستة أسابيع ، لأنها أصيبت بالتواء فى ظهرها . واستمرت المشاحنات الدينية دائرة فى منزلنا بشكل فظيع ، وكنت دائمًا أنبه جدتى إلى خطورة هذه المشاحنات ، ولكنها لم تأبه لأقوالى ، وظلت متمسكة بآرائها ، وظللت أنا أقاوم . . . أقاوم حتى أحمى نفسى من الهجوم المتواصل . ولكن جدتى وخالتى كانتا تتشاحنان بسبب بعض النقاط الدينية البسيطة ، أو بسبب ما أسموه قانونهم الخلقى . أما أنا فكلما كان الدين يظهر فى حياتى كان يظهر معه الصراع . وأرى جماعة من الناس تريد أن تتحكم فى جماعة أخرى باسم الله . ويبدو أن الرغبة فى السلطة تتأصل فى التعاليم الدينية .

وقبيل نهاية الصيف تمكنت من الحصول على عمل . وكان جارنا يعمل حارسًا للمنازل ، ثم قرر أن يغير عمله ويشتغل بالتأمين ، ولكنه كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولذا فقد طلب منى أن أصحبه إلى المزارع لأقوم بكتابة الإيصالات ، وعرض على خمسة دولارات فى الأسبوع . ووافقت ، وأخذنا نتجول فى مزارع القطن وننتقل بين أكواخ المزارعين ونأكل ونشرب على حسابهم .

وكنت فى تجوالى هذا أعجب للجهل المتفشى بين أطفال المزارعين ، ويبدو أنى كدت أنسى أنى ولدت فى مزرعة . ولكن كنت أرثى لحال الأطفال الذين لم يروا كتابًا واحداً فى حياتهم . وكنت أزهو عليهم بمعلوماتى وأحاول أن أبدو كمن أتى من المدينة الواسعة . وكانت أمهاتهم

تطلب منهم أن يصافحونى فكنت أرقبهم وهم يختبئون وراء الأبواب ويسترقون النظر إلى ويضحكون بلا سبب . وفى المساء كنت أجلس لكتابة الإيصالات وطلبات التأمين فى حين تقف العائلة تنظر إلىّ باستغراب . أما الأخ مانس ، وكان هذا اسم جارنا ، فيذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، يعجب لقدرتى الفائقة على الكتابة والقراءة .

وكانت العائلات ترحب بالتأمين لدينا ظنًّا منها أنه سيساعد أبنائها ليكونوا مثقفين مثل هذا الولد الشاطر من مدينة (جاكسون) .

وكانت رحلاتنا متعبة ، فكنا نستقل القطارات والسيارات والعربات ونداوم الانتقال من الصباح حتى المساء ونخرج من كوخ لندخل آخر ، ومن مزرعة لندخل أخرى . وكان التعب ينتابنى وأنا أكتب الإيصالات وأرقب حياة السود الجدباء وأكرهها ؛ وكان السود كلهم متشابهين وأكواخهم متشابهة . وفى أيام الآحاد كان الأخ مانس يذهب إلى أقرب كنيسة ويروج لبضاعته ، وذلك بالخطابة . وكان المزارعون مفتونين بكلماته وبعد أن ينتهى منها يتزاحمون حوله يطلبون طلبات التأمين وأبدأ أنا فى ملء الإيصالات .

وعدت إلى المنزل وجيبى ممتلئ بالنقود ، وكانت أمى فخوراً بى لأنى جلبت نقوداً إلى المنزل وساهمت فى نفقاته ، وحتى خالتى آرى خففت من حدة عدائها لى ، أما جدتى فقد آمنت بأنى أتيت بمعجزة ، وأن بعض ذنوبى لا بد أنها تبخرت فى الهواء ، فقد كانت ترى أن النجاح فى

العمل هو الحق وأن الفشل هو أجر الرذيلة . ولكن الله اختار الأخ مانس إلى جواره فى الشتاء ، ولم تقبل شركة التأمين طلبى لهذا العمل لأنى كنت لا أزال قاصراً ، وعادت خالتى إلى ما كانت عليه .

وبدأ العام الدراسى وانخرطت فى سلك الفصل السابع ، وعدت إلى الجوع وإلى قضاء الساعات فى التأمل وإلى القراءة ، وخياشيمى تشم رائحة الشواء من منزل الجيران ، وذهنى يعجب كيف يأكل الشخص كل ما يريد من لحم ، وأتخيل نفسى أحد أبناء العائلات الثرية ، ثم أضيق بهذه الخيالات ، فأقوم فجأة وأغلق النافذة حتى لا تتسرب إلى رائحة الشواء !

وفى صباح أحد الأيام دخلت المطبخ لأتناول إفطارى ولكنى أحسست أن هناك أمراً غريباً يجرى فى المنزل . ولم يكن جدى كالعادة موجوداً فى المطبخ لأنه كان يتناول طعامه فى غرفته ، ووجدت جدتى جالسة ، وأومأت إلى برأسها لأجلس . وجلست ، وأطرقت برأسى ، واسترقت النظر إلى وجه أمى وخالتى ووجدتهما مطرقتين . وفجأة أمسكت جدتى برأسها بين يديها ، وأردت أن أستفهم عما حدث ولكنى كنت أعلم أنى لن أحصل على جواب .

وأخذت جدتى تصلى وتطلب رحمة الله لكل فرد منا ، ثم خاطبت الله قائلة : « إن زوجى المسكين يرقد مريضًا » ، وطلبت من الله أن يشفيه . وهكذا علمت بمرض جدى . وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى

أحصل بها على معلومات عما يجرى فى منزلنا أو فى منازل الجيران ، من خلال صلوات جدتى .

وكان جدى رجلاً طويلاً ذا وجه طويل وأسنانه بيضاء لامعة ، ورأسه يعلوه المشيب . وكان إذا غضب كشر عن أنيابه وأصدر أصواتاً هامسة ، وكانت جدتى تقول إنها عادة أتت إليه منذ اشتراكه فى الحرب الأهلية . وكان قلما يضحك أو يبتسم ، وكان دائماً يحمل مطواة فى جيبه ، وقد منعنى من أن ألمسها . وكان يجلس ساعات طويلة فى الشمس يصفر أو يغنى إذا كان مزاجه معتدلا .

وكنت أتوق إلى أن أسأله عن الحرب الأهلية وكيف خاض غمارها وما إذا كان رأى لنكولن ، ولكنه كان لا يجيب أبداً بل يبعدنى عنه .

وعلمت من جدتى على مدى سنوات طويلة أنه جرح خلال الحرب الأهلية ، وأنه لم يتمكن أبداً من الحصول على معاشه ، وكان هذا سبباً لما يشعر به من مرارة ، ولم أسمعه مرة واحدة يتكلم عن البيض ، ويبدو أنه كان يكرههم إلى حد أنه كان لا يحب ذكرهم . والظاهر أنه عند تسريحه من جيش الاتحاد ذهب إلى أحد الضباط البيض ليساعده فى طلب معاشه ، ولكن الضابط الأبيض كتب اسم جدى خطأ ، إذ جاء الاسم ريتشارد فينسون بدلاً من ريتشارد ويلسون . وقد يكون السبب فى ذلك لهجة جدى الجنوبية أو أميته . وقد قيل إن الضابط الأبيض كان ينحدر من أصل سويدى ولا يعرف الإنجليزية بطلاقة ، وفى رأى آخر أن الضابط

الأبيض كان من أهل الجنوب وقد تعمد الخطأ . وعلى أية حال لم يستطع جدى أن يكتشف الحقيقة إلا بعد سنوات طويلة عندما ظهر أن اسمه فى أوراق التسريح كان ريتشارد فينسون بدلا من ريتشارد ويلسون ، ولذا لم يحصل على معاش أبداً .

وكنت أسأل أسئلة كثيرة عن هذا المعاش ولكن دون جدوى فقد رفض الجميع أن يخبرونى زاعمين أنى ما زلت صغيراً . وظل جدى يراسل وزارة الدفاع سنوات عديدة ويطلب معاشه ، ويتحدث عن المعارك التى حارب فيها والمدن التى مر بها والضباط الذين عمل معهم ، ويذكر أسماء أحياء وأموات ، وتواريخ بعيدة ويبعث بها إلى واشنطون .

وكنت أتسلم البريد فى كل صباح ، وكلما احتوى على مظروف رسمى أعلم أن جدى قد تسلم رداً على خطابه وأسرع به إليه ، ويأخذ جدى الخطاب منى ، ثم ينظر إليه طويلا ويسلمه إلى لأقرأه . . .

فأقرأ الخطاب ببطء وأنطق كل كلمة بتؤدة ، وأقول له إن طلب المعاش لا يستند على أسس سليمة ، ولذا فقد رفض ، فلا يهتز له رمش لهذا الخبر بل يهمس :

— إنهم هؤلاء الثوار الأشرار . . .

ويبدو أنه كان يشك فى قراءتى لأنه سرعان ما يرتدى ملابسه ويهرع إلى جماعة من أصدقائه ليقرءوا له الخطاب ، ويعيدوا قراءته ، حتى يحفظه عن ظهر قلب ، ثم يلقى به فى درج ويواصل تأمله ثانية . وكان يذكرنى

ببطل قصة كافكا (القصر) الذى حاول جاهداً أن يثبت شخصيته للمسئولين وظل يفعل هذا حتى يوم موته ، ولكنه فشل .

وكنت إذا ما حل الجوع بالمنزل أحلم بخطاب يصل من الحكومة يقول :

« سيدى . . .

« إن طلب المعاش الذى تقدمتم به قد تحققنا من صحته ، ومن صحة اسمك الحقيقى . وبالإشارة إلى التعليمات الرسمية قررنا مخاطبة وزارة المالية لمنحكم ما تستحقون من مبالغ .

ونأسف للتأخير الذى اضطررنا إليه قبل استجابة طلبكم ، ولكن أملنا أن تقتنع بما قدمت من تضحيات من أجل بلدك » .

ولكن مثل هذا الخطاب لم يصل أبداً ، وبقى جدى يفكر ، وتوقفت أنا عن الأحلام . وكنت كلما رأيت جدى لزمت الصمت التام . أما هو فلا يكلمنى أبداً .

وقد وصلت إلى كل هذه المعلومات من محادثاتى مع جدتى على مر السنين ، كما علمت أنه فر من سيده عندما شبت الحرب الأهلية ، وتمكن من الوصول إلى صفوف الاتحاديين فى الشمال وكان يزهو بأنه قتل عدداً من جنود العدو يفوق النصف . وكان بطبيعته يكره العبردية ، ولذا فقد انخرط فى سلك الجيش الاتحادى ليقتل الجنوبيين البيض . وبعد أن انتهت الحرب عاد إلى الجنوب ، وكان يقوم بحراسة صناديق الانتخابات وهو

يحمل بندقيته حتى يساعد الزنوج على الإدلاء بأصواتهم. ولكن بعد أن أبعد الزنوج عن المعركة السياسية ماتت روحه المعنوية ، وظل يعتقد أن الحرب ما زالت قائمة وأنها لابد ستنشب ثانية .

جلسنا نتناول طعام الإفطار ونحن ساكتون وكانت هذه أوامر جدتى ، فقد كانت تقول إن الكلام على الأكل خطيئة . وأخذنا نفكر فى معاش جدى الذى لم يصل أبداً !

وفى يوم من الأيام عدت من المدرسة وقابلتنى خالتى « آرى » فى الصالة ورأيت عينيها محمرتين من البكاء ، وقالت لى :

— اصعد لتودع جدك .

— ماذا حدث ؟

ولم ترد على ، وأسرعت إلىّ الدور العلوى وقابلت خالى كلارك الذى أتى من (جرينوود) ، وأمسكت جدتى بيدى ، وقالت :

— تعال وودع جدك .

وقادتنى إلى غرفة جدى، ورأيته يرقد على السرير وقد ارتدى ملابسه كاملة ، وعيناه مفتوحتان . . . ولم أتمكن من معرفة ما إذا كان حيًّا أم ميتًا ! . . .

وهمست جدتى قائلة :

— ها هو ذا ريتشارد يا بابا .

ونظر جدى إلىّ ، وهمست أنا :

ـ وداعاً يا جدى . . .

ـ ووداعاً يا بنى ، ابتسم لأن الله اختارنى إلى جواره .

وراح صوته ، وبرغم أنى لم أفهم ما قال ، وكنت أود أن أطلب منه أن يعيده على مسامعى ، إلا أن جدتى قادتنى إلى خارج الغرفة ، وساد السكون المنزل ولم يجهش أحد بالبكاء ، وجلست أمى صامتة فى كرسيها الهزاز تنظر خارج النافذة ، وأخذت جدتى وخالتى تتحركان فى سكون ، أما أنا فجلست صامتاً أنتظر موت جدى ، وتبعت جدتى إلى المطبخ ، وواصلت الأسئلة :

ـ قولى لى يا جدتى ما قاله جدى ، فلم أفهم جيداً ما قاله .

واستدارت وصفعتنى على وجهى بظهر يدها ، وصاحت :

ـ اخرس فإن ملاك الموت موجود بالمنزل ؟

ـ أريد أن أعلم فقط . . .

ونظرت إلىّ ببعض العطف وقالت :

ـ إنه يريد أن يقول إن الله قد أفرد له مكاناً فى الجنة ، كف عن الأسئلة الآن !

وعندما استيقظت فى اليوم التالى أخبرتنى أمى أن جدى قد ذهب . وقالت لى جدتى :

ـ أحضر قبعتك ومعطفك . . .

ـ ماذا تريدينى أن أفعل ؟

ـ كف عن الأسئلة وافعل ما تؤمر به . . .

وارتديت ملابسى ، وقالت جدتى :

ـ اذهب إلى توم وأبلغه أن بابا قد ذهب واطلب منه أن يحضر إلى هنا ليتولى الأمر .

وكان توم ابنها الأكبر قد انتقل أخيراً من (هيزلهورست) إلى (جاكسون) . وأحسست أن على عاتقى مهمة هامة فجريت طوال الطريق لأنى كنت أعتقد أن نبأ الموت لا بد أن يبلغ على الفور. وبدا لى منزل خالى وأسرعت أقفز على السلم وطرقت الباب وفتحت لى ابنة خالى «ماجى» وسألتها :

ـ أين خالى توم ؟

ـ إنه نائم . .

وجريت إلى داخل غرفته وذهبت إلى سريره وهززته ليستيقظ ، وأنا أقول :

ـ خالى توم أرجوك أن تحضر معى على الفور لأن جدى مات .

ونظر إلىّ طويلا ، ثم قال بهدوء :

ـ إنك حقًّا مغفل ، ألا تعلم أن هذه ليست الطريقة المثلى لإبلاغى مثل هذا النبأ ، إنه أبى !

ـ لقد جريت إلى هنا ، وأنا آسف .

ونهض ببطء وأخذ يرتدى ملابسه ، وقد تجاهل وجودى تماماً ، وبعد دقائق خمسة سألنى :

— ماذا تنتظر ؟

— لا شىء !

وعدت أدراجى إلى المنزل وأنا أتساءل عن حظى العاثر الذى لا يجعلنى أوفّق فى أية مهمة أقوم بها . وكل حركة أقدم بها يبدو أنها تثير عداوة الناس ، ولم أتمكن حتى الآن من معرفة طريقة مخاطبة الآخرين ، فمثلا ، أنا لم أقصد أن أصدم خالى توم ، وبرغم ذلك فإن غضبه منى كان يبدو وكأنه يفوق حزنه على أبيه ! . .

ولما لم أجد جواباً على حيرتى هذه اكتفيت بأنه لا داعى للقلق فمهما عملت فلن ترضى عنى عائلتى أبداً .

ولم يسمح لى بحضور جنازة جدى ، بل أمرونى أن أبقى بالمنزل ، وجلست أقرأ حتى عاد أفراد العائلة من المقبرة ، ولم يحدثنى أحد منهم ، وسار المنزل على عادته الأولى ولم أسأل أنا أية أسئلة ، بل بقيت أعانى الوحدة والاشتياق إلى المعرفة ، وفوق كل هذا الجوع .

وأصبحت ملابسى فى حالة رثة لدرجة أنى كنت أخجل من الخروج بها إلى المدرسة . وبدأ بعض زملائى فى الفصل يرتدون بنطلونات طويلة ، وأحسست أنا بالمرارة وقررت أن أفاتح جدتى فى الأمر ، وأن أقول لها أن تسمح لى بالعمل أيام السبت وإلا غادرت المنزل ، ورفضت هى أن

تستمع إلىّ ، وتبعتها فى المنزل أطلب حق العمل ، ولكن إجاباتها كانت كلها بالرفض وصرخت أنا :

ـ إذن سأترك المدرسة !

ـ اتركها ، هذا لا يهمنى . . .

ـ سأهرب من هنا ولن تسمعوا عنى أبداً !

ـ كلا ، لن تفعل ذلك . . .

ـ كيف يمكننى أن أدرس وأنا بهذه الحال ، أنا لا أطلب منك نقوداً ، أنا أطلب حق العمل .

ـ لا يهمنى ما إذا كنت تذهب إلى المدرسة أو لا تذهب ، لقد هجرت الكنيسة ولذا فأنت فى عينى ميت وفى عينى المسيح ميت .

ـ كنيستك هذه تفسد على حياتى .

ـ لا تتفوه بمثل هذه الألفاظ فى منزلى !

ـ إنها حقيقة وأنت تعلمينها جيداً . . .

ـ إن الله يعاقبك ، وأنت بغطرستك لا تريد أن تطلب منه العون .

ـ سأحصل على عمل مهما كان الأمر !

ـ إذن لا تعيش معى تحت سقف واحد .

ـ سأترك هذا المنزل . . .

ـ لن تتركه !

ـ أتظنيننى غير جاد ، إذا أردت فسأغادر المنزل الآن .

. . . وجريت إلى غرفتى وأحضرت حقيبتى الممزقة وأخذت أحزم ملابسى الرثة . ولم يكن معى سنت واحد ، ولكنى كنت مصمماً على مغادرة المنزل . وجاءت جدتى إلى الباب وقالت :

– أيها الأبله الصغير ، دع هذه الحقيبة .

– سأذهب حيث أستطيع العمل .

واختطفت الحقيبة منى وهى ترتجف وقالت :

– حسناً ، إذا أردت أن تذهب للجحيم ، فاذهب إذن ، ولكن الله يعلم أنها ليست غلطتى ، وسيسامحنى ، أما أنت ، فلن يسامحك .

وبكت ، وأسرعت خارج الغرفة ، بعد أن تغلبت إنسانيتها على خوفها . وأفرغت ما بالحقيبة وقد أخذ منى التعب كل مأخذ ، فقد كنت أكره هذه الاندفاعات العاطفية ولا أحبها . وأصبحت الآن بالفعل ميتاً فى عينى جدتى وخالتى ، أما أمى فقد ابتسمت عندما أخبرتها أنى تحديت الاثنتين ، وزحفت إلىّ على رجليها المشاولتين وقبلتنى .

الفصل السادس

وفى اليوم التالى أخذت أسأل الطلبة عن أعمال أستطيع أن أقوم بها ، وأعطانى أحدهم اسم عائلة من البيض كانت تبحث عن ولد يؤدى بعض المهام ، وبعد الظهر توجهت إلى العنوان ، واستقبلتنى امرأة بيضاء طويلة القامة ، وقالت إنها بحاجة إلى ولد أمين وستعطينى دولارين فى الأسبوع ، وسأعمل فى الصباح وفى المساء ،وطوال يوم السبت ، وسأغسل الصحون ، وأقطع الأخشاب وأمسح البلاط ، وأنظف الفناء ، وسأحصل على إفطارى وعشائى ، ولم أسأل سؤالا واحداً ، بل أخذت أجول بنظرى فى المطبخ الذى كان يبدو غير منظم ، وسألتنى المرأة :

ـ هل تريد هذا العمل ؟

ـ نعم يا سيدتى .

ـ والآن يا ولد ، أريد أن أسألك سؤالا واحداً ويجب أن ترد عليه بصدق .

ـ نعم يا سيدتى .

ـ هل أنت لص ؟

وأغرقت فى الضحك . . . ثم توقفت فجأة ، وسألت هى :

ـ ما الذى يضحكك من قولى هذا ؟

– لأنى إذا كنت لصًّا فلن أعترف لأحد بهذا !

– ماذا تعنى ؟

واحمر وجهها وظهر عليه الغضب . ويبدو أننى ارتكبت خطأ بقولى هذا . . . وأجبت وأنا مطرق الرأس :

– كلا يا سيدتى أنا لا أسرق .

ونظرت إلى باستغراب وسكتت .

ووعدتها بالحضور فى اليوم التالى فى الساعة السادسة صباحًا وأنا أعجب من أمر هذه المرأة ، ولماذا تشك فى أنى لص ، ثم تذكرت أنى سمعت يومًا أن البيض ينظرون إلى السود وكأنهم أطفال لا عقول لهم ؛ فإذا كنت أنوى قتلها فمن غير المعقول أنى سأحذرها بذلك ،وكان من المنطق أن تدرك هى هذا .

وأخذت أسأل نفسى ، ماذا سيحدث الآن بعد أن أمضى سحابة نهارى بين البيض ، هل سيضربوننى ويلعنوننى . . . إذا فعلوا فلن أبقى . ولم أكن فى بحثى عن عمل قد فكرت فى الطريقة التى سأعامل بها فى هذا العمل ، ولكن هذه الفكرة أخذت تسيطر على الآن وتأخذ على مجامع عقلى . سأكون معذبًا ، متواضعًا ، مطيعًا ، ولكنى سأحتفظ بكرامتى . . .

وفى صباح اليوم التالى أخذت أقطع الأخشاب لفرن المطبخ ، وأنقل الفحم للمدفأة ، ونظفت الفناء الأمامى للمنزل ، ونظفت المطبخ ، وأخذ

العرق يتصبب منى ، فقد غسلت الأطباق ، وخدمت العائلة على المائدة وجريت إلى البقالة لأحضر المشتريات ولما عدت قالت لى المرأة :

ـ إن إفطارك موجود بالمطبخ .

ـ شكراً يا سيدتى . . .

ورأيت صحناً به عسل أسود ورغيف. هل هذا كل ما أحصل عليه ، ألا يوجد بيض ولحم خنزير وقهوة ! وتناولت الرغيف وحاولت أن أقطعه ولكنه كان جافاً . وقررت أن أشرب العسل ، ورفعت الصحن وشاهدت أنه ملىء بالعفن ، وقلت لنفسى لا يمكن أن آكل هذا ، ودخلت المرأة المطبخ ورأتنى أرتدى سترتى وقالت :

ـ إنك لم تأكل ؟

ـ كلا يا سيدتى ، أنا لا أشعر بالجوع .

ـ هل ستأكل فى منزلك ؟

ـ لا أشعر بالجوع هذا الصباح .

ـ ألا تحب العسل والخبز ؟

ـ بل أحبهما . . .

وحاولت أن أخفى استيائى ، وتنهدت هى وهزت رأسها وقالت :

ـ أنا لا أعلم ماذا أصابكم أنتم معشر الزنوج هذه الأيام !! إن من الخطيئة أن يرفض الإنسان النعمة ، سأحتفظ به لك لتأكله هذا المساء .

ـ حسناً يا سيدتى .

ووضعت الصحن وغطته بصحن آخر ثم ألقت بالخبز فى صفيحة القمامة ، والتفتت إلى وكأن فكرة ما قد طرأت على ذهنها :

ـ فى أى صف أنت بالمدرسة ؟

ـ الصف السابع يا سيدتى .

ـ ولماذا تذهب إلى المدرسة ؟

ـ لأنى أريد أن أكون كاتباً .

ولم أكن واثقًا من نفسى ؛ ولكنى لم أحب أن أعترف لها بذلك ، وجعلتنى أشعر بأننى مخطئ ولا قيمة لى . . . ولكن شعورى بأنى أخطأت جعلنى أعترف لها .

وتساءلت :

ـ ماذا ؟

ـ كاتب .

ـ لن تكون كاتبًا أبداً ، من بحق السماء أوحى إليك بمثل هذه الأفكار أيها الزنجى ؟

ـ لا أحد . . .

وخرجت وأنا أعلم أنى لن أعود إلى منزلها بعد ذلك ، لقد أهانتنى ، وزعمت أنها تدرك تمامًا مكانى فى الحياة ، وشعورى ، وهذا لم يرضنى على الإطلاق . لعلها محقة ولعلى لن أكون كاتبا أبداً ، ولكنى لا أريد أن أسمع ذلك منها . . .

ولو أنى بقيت فى هذا العمل لفهمت تماماً كيف يتصرف البيض مع السود ، ولكنى كنت من السذاجة بحيث ظننت أنه لا يوجد كثيرون من البيض يتصرفون كما تصرفت هذه المرأة ، وقلت لنفسى إن من بين البيض أناساً طيبين يملكون النقود والشعور الرقيق ، برغم أن شعورى العام أن البيض كانوا أشراراً ، إلا أنى كنت واثقاً أنى سأجد بعض الشواذ بينهم .

وقد كذبت على عائلتى عن سبب عدم رغبتى فى الرجوع إلى خدمة هذه السيدة ، وقلت لهم إنها قد وجدت ولداً آخر . وواصلت السؤال فى المدرسة عن أعمال وقد دلونى على عنوان آخر ، وتوجهت إليه بمجرد انتهائى من الدراسة ، وقابلتنى صاحبة المنزل وقالت إنها بحاجة إلى ولد يستطيع أن يحلب الأبقار ، ويغذى الدجاج ، ويجمع الخضراوات من الحقل ، ويتناول وجبتى الإفطار والعشاء . وقلت :

— ولكنى لا أستطيع أن أحلب بقرة يا سيدتى .

— من أين أنت ؟

— من هنا ، من (جاكسون) .

— هل تريد أن تقول لى أيها الزنجى إنك تعيش فى جاكسون ولا تستطيع أن تقوم بحلب بقرة ؟

وكان صوتها مليئاً بالدهشة والاحتقار . . .

وأجابته المرأة :

ـ اسمع يا هذا ، إذا كنت لا تريدها فلا تأكل !

وأحسست أنى فى حلم ، هل هذه طريقة التعامل فى هذا المنزل ؟ لن أبقى إذن . ودخلت فتاة وألقت بنفسها فى كرسى وخاطبها الرجل :

ـ اجلسى يا كلبة . . . واملئى بطنك بالأكل . . .

وقالت هى :

ـ أتريد أن تعلم ما يجب عليك عمله ؟

ونظرت إليهم جميعاً ولم أشعر أن الرجل يرقبنى . . .

وصاح :

ـ فى ماذا تحملق أيها الزنجى اللقيط . . . أحضر البسكويت وضعه على المائدة . . .

ـ حسناً يا سيدى .

ودخل رجلان فى منتصف العمر وجلسا . ولم أتمكن من معرفة من هم أعضاء الأسرة ومن هم الأصدقاء ، ومن الذى يملك المنزل ، ومن القريب . . . وأخذ الجميع يشتمون بعضهم البعض ويتبادلون أقذر الألفاظ ، دون أن يغضب واحد منهم . وواصلوا التهام الطعام ، دون أن يلتفت الواحد إلى الآخر . وأحسست بأعصابى مشدودة . . . لعلى لم أفهم البيض بعد ! لعلى كان يجب أن أبدأ فى خدمة البيض وأنا أصغر سناً ، كما فعل

كثير من الأولاد الآخرين . لعل أعصابى ستعتاد على تصرفاتهم . ولكن دون جدوى ، فقد كنت أشعر بما يدور حولى وأفكر فيه .

ومر الصباح وأنا لا أزال خائفاً من أن تصدر منى حركة تستتبع اللعنات والشتائم ، ولما أزفت ساعة ذهابى إلى المدرسة أحسست بأن قوتى قد نفدت . ولكنى تمسكت بهذا العمل ، لأن الأكل فيه كان كافياً ، ولم يكن قد سبق لى أن ذقت طعم البيضة ولا الزبد ، وكنت أشرب أكواباً من اللبن دون أن تلحظنى المرأة .

واشتد ساعدى بما كنت أتناوله من غذاء ، ولكن قوة تحصيلى فى المدرسة ضعفت ، فقد كنت لا أحتمل العمل والدراسة ، ولكن النقود التى كنت أحصل عليها كانت تساعدنى على أن أقف مع الأولاد على قدم المساواة فى شراء الساندوتشات . وكنا نصف لبعضنا البعض بيوت البيض التى نعمل فيها ، وكنت أقص على زملائى أنباء عائلة السباب التى أعمل عندها ، وعن الأكل الذى أتناوله والمرأة لا ترانى وكانوا جميعاً يحسدوننى على حظى هذا .

وسارت أمى بخطى سريعة نحو الشفاء ، وقد سعدت جداً عندما سمعتها تقول إننا سنقيم فى منزل وحدنا ، وقد غضبت جدتى لأن أمى كانت تذهب إلى كنيسة مخالفة لكنيسة أمها ، أما أنا فكنت أذهب إلى الكنيسة لأقابل أصدقائى ، وكان هؤلاء فتياناً وفتيات من السود يحاولون جميعاً أن يخفوا العائلة التى ينحدرون منها . وكانت الكنيسة تمتلئ كل يوم أحد

بالعمال والنساء من الزنوج ، يرتلون الصلوات والأغانى الدينية ، ويجمعون النقود وقد كنت أحب الذهاب إلى الكنيسة لمراقبة الجميع ، وكنت أتمنى لو يمكننى أن أنخرط فى سلكهم ، ولكنى كنت أشعر وأنا بينهم أن هناك أميالاً تفرقنا . . . ولكنى واصلت الذهاب إلى الكنيسة لأنى كنت أحب أن أصاحب الناس وأخلق صداقات . وسعدت أمى لذلك وحاولت إقناعى أن أنضم إلى الكنيسة لأنقذ روحى ، وتوسل أصدقائى أن أنضم إلى الله وسألونى :

ـ أنت تؤمن بالله ، أليس كذلك ؟

وتجنبت الإجابة عن هذا السؤال ، وقالوا هم :

ـ تعال إلى الكنيسة لتصبح واحداً منها .

ـ لا أعلم إذا كان يجب على أن أفعل ذلك . . .

ـ إننا لا نريد أن نضغط عليك .

وفى اليوم الأخير للصلوات طلب القس من أعضاء الكنيسة أن يقفوا ووقف معظم الحاضرين ، ثم طلب من غير الأعضاء الوقوف ، ووقف عدد كبير آخر . وبقى عدد من الذين لا ينضمون إلى كنيسة أو أخرى . ولما أيقن القس أنه قد عزل الخاطئين طلب لهم المغفرة لأنهم يعيشون فى الظلام وطلب إلينا أن ندخل غرفة لنتكلم مع رجل اختاره الله لهذه المهمة، وتبعت الجميع إلى هذه الغرفة ونظر إلينا الرجل وقال :

ـ والآن أيها الفتيان أنا أريدكم جميعاً أن تعرفوا الله ، وأن تنضموا

إلى الكنيسة لأنكم فى خطر عظيم . وأطلب منكم أن تدعوا أعضاء هذه الكنيسة أن يبعثوا بصلاة إلى الله من أجلكم . ولا أظن أن من بينكم من سيرفض هذا . . .

وصمت برهة ولم يرد واحد منا ، وجلست أنا وشعورى بالبلاهة يزداد ، ورغبتى فى أن أقفز من النافذة تأخذ بعقلى . . . واستمر القس . . .

— هل يوجد فى هذه الغرفة من يرفض الله ؟

وساد الصمت .

— والآن سأطلب منكم أن تأخذوا أماكنكم فى الكنيسة .

وخرجنا جميعاً ، وجلسنا فى الصف الأول وبدأت التراتيل . . . وكانت كلها تقول إننا إذا لم ننضم إلى صفوف الكنيسة فسنلقى إلى الجحيم . وأخذت النساء يهتفن ويرقصن وبدأت تراتيل أخرى وحاول القس أن يجرب طريقة أخرى لإقناعنا وقال :

— كم واحدة من أمهات هؤلاء الفتيان موجودة معنا الآن ؟

ووقفت الأمهات ومن بينهن أمى ، وأخذن يتوسلن إلى أبنائهن ، وطلب منهن القس أن يصلين من أجل أبنائهن . وأمسكت أمى بيدى وأحسست بدموعها تسقط ساخنة عليها ، وأحسست بالاشمئزاز يمازنى ، وأحسست أن القس قد أوقعنا فى فخ ، وأننا ضحايا هذه الجماعة التى نعيش بينها ، وأن أمهاتنا يصلين من أجلنا لنعلن ولاءنا لهذه الجماعة ؛ وأخذ القس يلقى بموعظة طويلة يقول فيها كيف أن أمهاتنا حملننا فى بطونهن ؛ وكيف

أنهن تعهدننا فى مرضنا ، حتى كبرنا وأخيراً قال :

ـ أنا الآن أطلب من أول أم أن تأتى بابنها لأقوم بتعميده . . .

ونظرت إلىّ أمى وقالت :

ـ تعال يا بنى دع أمك تقودك إلى الله ، لقد جلبتك إلى العالم ، فدعنى الآن أتولى إنقاذك .

وأمسكت بيدى وتراجعت أنا ، وهمست هى من خلال دموعها :

ـ لقد كنت أمًّا صالحة لك . . .

والواقع أن مسألة إنقاذ الأرواح هذه لا تقوم على أى أساس أخلاقى ؛ بل كان يستغل فيها بلا خجل كل علاقة إنسانية . والحقيقة أن المجموعة كانت تطلب منا أن نشاركها فى معتقداتها ، وإذا رفضنا الانضمام إلى الكنيسة فمعنى ذلك أننا لا نشاركها هذه المعتقدات ، ومعنى ذلك أننا وضعنا أنفسنا فى مكان الشواذ . وتمكنت إحدى الأمهات من أن تقود ابنها إلى القس بين التهليل والتكبير .

وسألتنى أمى :

ـ ألا تحب أمك المقعدة المسكينة يا ريتشارد ، لا تدعنى واقفة خالية الأيدى . . .

ويبدو أنها كانت تخاف من أن أقوم بالإقلال من شأنها أمام الناس ، ولم تعد المسألة مسألة الإيمان بالله ، ولم تعد المسألة هى ما إذا كنت سأكذب أو أسرق أو أقتل . . . أصبحت مسألة كرامة ، وإذا رفضت فمعنى ذلك

آنى لا أحب أمى ، ولا يوجد رجل واحد فى هذه الجماعة الزنجية يقبل أن يضع نفسه فى هذا الموضع . وجذبت أمى ذراعى وسرت معها إلى القس وصافحتة ، وبهذا أصبحت مرشحاً للتعميد . واستمرت التراتيل والصلوات إلى ما بعد منتصف الليل .

وسرت إلى المنزل والغضب ينهش قلبى والعار يملؤنى ، وبرغم ذلك كنت سعيداً أن المسألة كلها قد انتهت . لم يعد هناك حاجز بينى وبين مجتمعى . وخاطبت أمى قائلا :

— أنا لا أحس بأدنى شىء يا ماما .

وأكدت هى لى أنى سأشعر فى الوقت المناسب . . . ولما أخبرت الأولاد الآخرين بشعورى هذا وجدتهم هم أيضًا يشاركوننى فيه .

ولكنهم جميعًا أجمعوا على أن المسألة الهامة هى أننا انضممنا إلى الكنيسة .

وحل أحد التعميد ، وارتديت ملابسى وذهبت إلى الكنيسة لأجد زملائى يجلسون ينصتون إلى موعظة يبين فيها القس طريق الخلاص . وكان يرتدى ملابس بيضاء فضفاضة ويحمل فى يده فرع شجرة ، يضعه بين آن وآخر فى وعاء به ماء ، ويقول وهو يلمس به كل واحد منا :

— أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس . . .

وسارت عملية التعميد على هذا المنوال . وأخيراً جاء دورى وشعرت بالبلاهة وأردت أن أصيح فيه ليتوقف عن هذه الأمور ، ولكنى لم أنطق

بكلمة واحدة . وهز هو فرع الشجرة فوق رأسى وتساقطت قطرات الماء على رأسى ووجهى ، وأحسست بها فى ظهرى كالحشرات تلذعنى . وانتهت الفترة العصيبة وتنفست الصعداء .

ولم يؤد تعميدى إلى تقبلى لفصول يوم الأحد بالمدرسة التابعة للكنيسة ، وكان نفس الأمر ينطبق على جميع الأولاد الآخرين فقد كانوا ينامون خلال الدروس .

وقبيل بدء الصيف أصيبت أمى بنوبة شلل أخرى ، وأصبح لزاماً علىّ أن أشاهدها تتألم وأستمع إلى تأوهاتها . وكنت أقضى ليالى طويلة أفكر فى أمى وفى الأيام التى قضيناها فى (أركانسو) ، وأتعجب لماذا اختارها الله دون غيرها لتتحمل كل هذه الآلام ! ولا أجد جواباً على تعجبى هذا بل أزداد ثورة على ثورتى . . .

وثمة تغيير آخر حدث فى منزلنا . فقد زادت حاجتنا إلى النقود ، وقررت كل من جدتى وخالتى أن من الأفضل أن يأتى خالى توم وعائلته ليقيموا معنا حتى نقتسم النفقات ، وتحولت غرفتا الطعام والجلوس إلى غرفتى نوم ، وضاقت بنا الشقة . وتوترت أعصابنا وكان خالى يعمل مدرساً منذ ثلاثين سنة ، ولذا فقد أخذ يلقى على المحاضرات الطويلة فيما يجب أن أفعله ، وما يجب ألا أفعله بمجرد أن استقر به المقام فى منزلنا .

وكنت أستيقظ فى الصباح على أصوات الأطباق والأوانى فى المطبخ وأفهم أن خالى وأسرته يتناولون طعام الإفطار . وذات صباح استيقظت

على صوت خالى ينادينى ، وفتحت عينى ورأيته يقف وراء باب المطبخ ويسألنى :

ـ كم الساعة ؟ . .

ونظرت إلى ساعتى التى اشتريتها بدولار واحد وقلت . . .

ـ إنها الخامسة و ١٨ دقيقة .

ـ هل هذا هو الوقت المضبوط ؟

وكنت متعبًا والنعاس يداعب جفونى ، ولم أود أن أنظر إلى الساعة ثانية ، وكنت أعتقد أنى أخبرته بالوقت المضبوط ، وبعد برهة سمعته يقول بغضب :

ـ ماذا تعنى يا ولد ؟

ـ ماذا أعنى ! أعنى ما قلته تمامًا . . .

وتساءلت ، هل يا ترى لم أخبره بالوقت المضبوط أم ماذا ؟ واستطردت :

ـ إنها الخامسة والثلث الآن . . .

وصاح فىّ :

ـ أيها اللقيط الوقح الأسود .

وأزحت الغطاء وقد أدركت أن العاصفة توشك على الهبوب وسألته :

ـ ما الذى يغضبك ؟ . . . لقد سألتنى عن الساعة وأجبتك . . .

وأخذ يقلد صوتى بتهكم وهو يقول :

ـ لقد عملت بالتدريس لمدة ثلاثين عامًا ، ولم أقع على ولد يخاطبنى بهذه اللهجة .

– وما الخطأ فيما أقول ؟

– اخرس ! وإلا لطمتك ، كلمة واحدة منك ، وسألقنك درساً لن تنساه .

– ماذا أصابك يا خالى توم ؟ . . . ما الخطأ فيما قلت ؟ . . .

وزادت سرعة تنفسه وقال :

– سأضربك علقة بالكرباج ، علقة كان يجب أن تأخذها من مدة . . .

ووقفت على قدمى واختطفت ملابسى ، وأنا لا أصدق ما أسمع . لم أفهم سبباً لغضبه فقد خاطبته باللهجة العادية التى أستخدمها فى مخاطبة كل من أعرفهم ، ولم يغضب أحد قبله من لهجتى . وسمعته يخرج من المطبخ ويتجه إلى الفناء الخلفى . وأسرعت إلى النافذة ورأيته يقطع فرعاً طويلا من أفرع الشجر . وجمدت أطرافى . . . لن أدعه يضربنى إنه لم يأت إلينا إلا منذ أيام قليلة ، ولا دخل له بتربيتى أو عدمها ، فقد كنت أعمل وأتناول وجبات طعامى وأشترى ملابسى ، وأعطى جدتى ما يتبقى معى من بنسات . والآن أجد خالى الغريب عنى الذى يظن أنى غير مهذب يريد أن يلقننى درساً ، درساً طالما شاهدت بعض الأولاد السود المتأخرين يتلقونه على يد المزارعين . إنه سيجعلنى أتصرف مثلهم تماماً : يجعلنى أبتسم ببلاهة وأعتذر لأتفه الأسباب وأرد ردوداً غير مفهومة إذا ما خاطبنى أحد . . . لا ، لن يحدث هذا . لن أدعه يضربنى –

لعله لن يضربنى . . . ستمر الأزمة . . .

وجلست على السرير أنتظر . . . وسمعت وقع أقدام تقترب منى . . . إلى متى سأضرب لأتفه الأسباب ؟ إلى متى سأعامل بهذه الطريقة ؟ لقد زاد شعورى بالنقمة تجاه أقربائى، ولم يعد هناك مجال لأية زيادة أخرى . . .

والآن يريد واحد منهم أن يضربنى لأن رنة صوتى لم تعجبه . أسرعت إلى الدولاب وأخرجت منه مجموعة من أمواس الحلاقة ، ووقفت أنتظر مقدمه . وانفتح الباب ، وكنت أتمنى ألا يكون هو القادم ، وأن ينتهى هذا الكابوس . . .

وصاح فى صوت جاف :

— ريتشارد . . .

وأجبته محاولا أن أبدو هادئًا . . .

— نعم يا سيدى . . .

— تعال هنا . . .

— وخرجت إلى المطبخ ، وقد تسمرت عيناى على وجهه ويداى تحملان الأمواس وراء ظهرى ، وسألته :

— والآن يا خالى توم ماذا تريدنى ؟

— أريد أن ألقنك درسًا فى معاشرة الناس . . .

ـ إذا كنت بحاجة إلى مثل هذا الدرس فلست أنت الشخص الذى سيعطنى إياه . . .

ـ سأجعلك تبتلع كلماتك هذه . . .

ـ اسمع يا خالى ، لن أدعك تضربنى ، إنك غريب عنى تماماً ، ولا تعولنى ، ولا أعيش معك .

ـ أقفل فمك القذر واخرج إلى الفناء الخلفى . . .

ولم يكن قد رأى أمواس الحلاقة ، وخرجت من باب المطبخ وأسرع هو خلفى وحذرته بصوت منخفض :

ـ إن بيدى أمواس حلاقة ، وإذا لمستنى فسأقتلك ، وقد أصاب بجرح ، ولكنى سأقتلك ، وليساعدنى الله . . .

وتوقف وحملق فى يدى التى تحمل الأمواس ، وذهل وقال :

ـ يا إلهى ! ! !

ـ لم أكن أقصد جرح إحساسك هذا الصباح ، والآن لن أسمح لك بضربى لأنك تظن أنى جرحت إحساسك . . .

ـ إنك أسوأ مجرم وقعت عليه عيناى . . . !

ـ إذا أردت القتال فسأقاتل . . .

ـ لن تصل إلى مستقبل أبداً . . .

ـ هذا لا يقلقنى ، كل ما أريده الآن أن تبتعد عنى ، الآن وإلى الأبد . . .

— سينتهى بك الأمر إلى حبل المشنقة . . . !

— إذا حدث هذا فلن تكون مشكلتك . . .

وحملق فى صامتاً مذهولا ، وهو لا يصدق ما يرى أو يسمع ، وتقدم خطوة نحوى وأمرنى :

— ألق بهذه الأمواس . . .

— سأقتلك ، سأقتلك ! ! . . .

وأخذت منى الهستيريا كل مأخذ ، وتوقف هو ، ويبدو أنه لم ير فى حياته شخصاً عاقداً العزم على ما يريد مثلى . وارتجفت عيناه وهو يهز رأسه ويقول :

— أيها الأبله . . .

— سأجعل الدم ينزف منك إذا ضربتنى . . .

— سيأتى الشخص الذى يقتل روحك يوماً ما . . .

— لن يكون هذا الشخص أنت . . .

— سيأتى شخص ما . . .

— لن يكون أنت . . .

— وقد انتهينا لتونا من تعميدك ! !

— إلى الجحيم بالتعميد . . .

ووقفنا وجهاً لوجه والشمس فوق رؤوسنا والديكة تصيح حولنا ؛ فقد كان الوقت صباحاً مبكراً . ولعل الجيران كانوا ينصتون لما يدور بيننا . وفجأة

أخذت الدموع تنهمر من عينى خالى توم ، وشفتاه ترتجفان وهو يقول :

– أنا آسف لأجلك . . .

– يحق لك أن تأسف من أجل نفسك !

– هل تظن أنك بهذا قد أصبحت رجلا ؟ سيأتى اليوم الذى تتعلم فيه ، وسيكون الطريق وعراً أمامك ، لقد أردت أن أكون قدوة لك . . .

وألقى بفرع الشجرة .

وأيقنت أنى هزمته ، وتخلصت منه نهائيًّا ، ذهنيًّا ، وعاطفيًّا ، ولكنى كنت أريد التأكد وصحت فيه :

– إنك لست قدوة لى ، ولن تكون ، وحياتك لم تسر على نهج مستقيم حتى يمكنك أن تعلمنى أنا ما يجب أن تكون عليه حياتى .

وكنت أعلم أنه يشتغل الآن بإصلاح الكراسى بعد أن أحيل إلى المعاش ، وواصلت كلامى . . .

– هل تعتقد أن أمنيتى فى الحياة هى إصلاح الكراسى ليجلس عليها الآخرون ؟ . . .

وسرت رعدة عنيفة فى جسده وحاول أن يضبط عواطفه وقال :

– ستأسف على كل ما تقول :

وصعد السلم وجلست أنا أحاول تهدئة عواطفى ، ثم تسللت إلى داخل المنزل وتناولت قبعتى وكتبى ، وتوجهت إلى عملى ، حيث أواجه رغبات البيض .

الفصل السابع

وجاء الصيف بأيامه الحارة ، والجوع لا يزال يلازم وجدانى ، والأقارب يملأون المنزل ولا يكلمون بعضهم البعض ، وعند الأكل لا تبدر كلمة واحدة ، ولا يسمع على المائدة إلا صوت الصلوات . وأخذت أمى تقترب من الشفاء ببطء ، ولكنها أصبحت معقدة ، وستظل معقدة طيلة حياتها . وتساءلت هل سأواصل الدراسة فى سبتمبر ؟ إن الوحدة تملؤنى . القراءة والبحث عن عمل تسليتى الوحيدة ، تراودنى آمال فى أن أنتقل إلى الشمال ، ولكن كيف أترك أمى فى هذا المنزل العجيب ، وكيف سيكون حالى فى مدينة غريبة على . الشك والخوف يساورانى . أصدقائى يشترون بذلات لها بنطلونات طويلة وثمنها يتراوح بين ١٧ ، ٢٠ دولاراً ، مبلغ يبدو لعينى فى ضخامة جبال الألب . كانت هذه حالتى فى عام ١٩٢٤ .

وسمعت أن هناك عملاً فى أحد مصانع الطوب وذهبت أستعلم . وكان جسمى ضئيلاً ولا أزن أكثر من مائة رطل . وعند الظهر تسللت إلى المصنع وسرت بين صفوف الطوب المرصوصة ، ورائحة الطين تملأ خياشيمى ، ووقفت بجانب إحدى آلات صنع الطوب . وأمسكت بأحد

مقبضيها ووجدته ثقيلا على ، فقد كان يزن أربعة أضعاف وزنى . يا ليتنى كنت أقوى مما أنا عليه .

وأخذت أسأل أسئلة ، وعلمت أن الولد الذى ينقل الماء غير موجود ، وأسرعت إلى المكتب أتقدم بطلبى ، وحصلت على العمل . وكنت أسير فى الشمس المحرقة أحمل جردلاً من الزنك من جماعة إلى أخرى ، وكان أجرى دولاراً فى اليوم . وكان العمال السود يتناولون جرعة ماء من الجردل يبللون بها شفاههم ثم يشربون وأسير أنا أصيح :

— ماء ! !

ويطلب منى أحدهم أن آتيه بها .

وأسير بين أكوام الطين ، وعلى المنحدرات الزلقة أحمل الجردل ، والجوع ينهش معدتى ، وأتوقف قليلا لأستعيد تنفسى قبل أن أصعد إلى التل . وفى نهاية الأسبوع ابتلعت نفقات المنزل كل أجرى . وتمكنت بعد ذلك من الحصول على عمل آخر فى نفس المصنع كنت أتقاضى عليه دولاراً ونصف الدولار يومياً . وكانت مهمتى أن أبحث عن الطوب المكسور وأجمعه فى عربة يد ، ثم ألقى به فى إحدى البحيرات .

وكنت فى عملى هذا أخاف من أمر واحد ، من كلب ، يملكه صاحب المصنع كان يتجول بين العمال ويعوى . وكان هذا الكلب قد أصيب بجروح عدة مرات ، فقد كان العمال يقذفونه بالحجارة . وكنت كلما رأيته تناولت حجراً وقذفته به ، فيبتعد عنى ليظهر ثانية وقد كشر عن أنيابه .

وقد عض هذا الكلب عدداً من الزنوج وأصابهم بأمراض ، وقد طلبوا من صاحب العمل أن يربطه ، ولكنه رفض ، وفى يوم من الأيام هجم علىّ هذا الكلب وعضنى فى فخذى، وأحسست بألم شديد .

ولم أهتم بالألم ولكنى خفت أن أصاب بالعدوى ، وعندما ذهبت إلى صاحب العمل لأخبره بما حدث قابلتنى فتاة شقراء طويلة القامة وسألتنى :

— ماذا تريد ؟

— أريد أن أرى الرئيس يا سيدتى . . . .

— لماذا ؟

— لقد عضنى كلبه يا سيدتى وأنا خائف من العدوى . . .

— أين عضك الكلب ؟

— فى رجلى .

وكذبت لأنى خجلت أن أخبرها بمكان الإصابة وقالت هى :

— دعنى أرى إصابتك . . .

— كلا يا سيدتى ، أرجوك أن تسمحى لى بمقابلة الريس .

— إنه غير موجود الآن . . .

وعادت ثانية إلى آلة الكتابة .

وعدت أنا إلى عملى ، ولاحظت أن الإصابة أخذت تتورم . وفى آخر النهار تقدم منى رجل أبيض يرتدى ملابس بيضاء وسأل أحد العمال :

ـ هل هذا هو الزنجى ؟

ورد عليه الولد الآخر :

ـ نعم يا سيدى .

وناداني الرجل بقوله :

ـ تعال هنا يا زنجى . . .

وذهبت إليه .

لقد أخبرونى أن كلبى قد عضك . . .

ـ نعم يا سيدى .

وأزحت بنطلونى ونظر هو إلى الإصابة وقال :

ـ إن عضة كلب لا يمكن أن تؤذى زنجيًّا !!!

ـ إنها تتورم وتؤلمنى . . .

ـ إذا ساءت حالها فأخبرنى ، ولكنى لم أشاهد بعد كلبًا استطاع أن يؤذى زنجيًّا !!

واستدار وتركنى وتجمع الأولاد الزنوج حولى وقال أحدهم :

ـ ابن الكلبة ، سيدفع ثمن كل هذا يومًا ما . . .

وقال آخر :

ـ إن قلوبهم كالصلب . . .

وقال ثالث :

ـ هؤلاء البيض لا يتورعون عن أى شىء .

وتقدم منا أحد الرؤساء البيض وصاح فينا :

– هلموا ، تفرقوا ! . .

وعدت إلى جر العربة وتقدم منى أحد زملائى وقال :

– يجب أن تذهب إلى طبيب . . .

– لا نقود معى .

وبعد يومين زال الورم وعادت رجلى إلى حالها الطبيعى . . .

ومر الصيف وأقفل مصنع الطوب ولم يعد عندى عمل ، وسمعت أن النادى بحاجة إلى أولاد لجمع كرات الجولف وتقدمت بطلب ، وحصلت على العمل ، وكان أجرى تسعين سنتًا عن كل تسع حفرات . ولم أكن أعرف قواعد لعبة الجولف ، ولم أستطع متابعة الكرات وطردنى الرجل . ولكنى أخذت أراقب الأولاد الآخرين ، وفهمت اللعبة ، وعملت ثانية ، وبعد قليل حصلت على دولار وعدت إلى المنزل وأنا أحس بكراهية شديدة للعبة الجولف .

وبدأت الدراسة ، ودخلت المدرسة ، وكانت بعيدة عن محل إقامتى وبدأت أحضر الدروس دون كتب أو كراسات لمدة شهر ، ثم تمكنت من الحصول على عمل فى الصباح والمساء ، كنت أتقاضى عنه ثلاثة دولارات فى الأسبوع .

وأخذت أتحول إلى الصمت والتحفظ بعد ما بدت لى الدنيا التى أعيش فيها على حقيقتها ، وبعد ما أيقنت أن المستقبل لن يكون أحسن

حالاً ، وكرهت الاستذكار . وكانت جدتى قد لمحت لى مراراً ، أن الوقت قد آن لأن أتولى أمر نفسى . ولكن هل تعلمت ما يكفى لأن أعول نفسى؟ لم أتعلم شيئًا ، ولا مفر أمامى من أن أصبح عتالا مثل أبى . إن مشكلة الحياة أمام الزنجى قاسية مريرة . ما الذى يجعل البيض يكرهون السود بهذا الشكل ؟ وما نوع الحياة التى يستطيع أن يحياها الزنجى فى ظل هذه الكراهية ؟ وما سببها ؟ لم تعلمنا المدرسة شيئًا عن هذه المشكلة . . وكنت كلما سئلت عن سببها لا أحصل على جواب ، أو يحاول الأولاد أن يجعلوا من المسألة أضحوكة . وكان الزنوج يتحدثون طويلا عما يعانون من ظلم ، ولكنهم لم يحاولوا أبداً أن يدرسوا المشكلة ، فلماذا أحاول أنا . . . ؟

هل صحيح أنى كنت من السوء كما يقول خالى وخالتى وجدتى ؟ ولماذا يعتبرون أسئلتى خطأ ؟ هل من الخطأ أن أقاوم العقاب ؟ لم أستطع أن أقتنع أن الإنسان عليه أن يخضع للظلم ، ومعظم من قابلتهم كانوا مخطئين . . .

هل من الواجب أن يقبل الإنسان سلطة خاطئة ؟ إذا كان الجواب عن سؤالى هذا بنعم فسأظل مخطئًا طيلة حياتى . كيف يستطيع الإنسان أن يحيا فى عالم تموت فيه أحاسيسه وأفكاره وتحيا السلطة والتقاليد البالية ؟ لم أجد جواباً على تساؤلاتى هذه . . .

ومرت الأيام وزاد شعورى بوجودى وكيانى ، وكنت أجلس فى

الفصل والملل يكاد يقتلنى ، أحلم ، وأتعجب . وفى يوم من الأيام تناولت كراسة الإنشاء وقلت لنفسى سأكتب قصة . ولكن ما موضوع هذه القصة؟ وقررت أن تكون عن لص يريد أن يسطوعلى منزل أرملة . وكانت القصة فجة . ولكنها مليئة بالعواطف التى تجيش فى صدرى . وانتهيت منها فى ثلاثة أيام وأخذت أفكر فيما أفعل بها .

سآخذها إلى الصحيفة الزنجية المحلية . وذهبت إلى هناك وتقدمت بها إلى المحرر وسألنى :

ـ ما هذا ؟

ـ قصة . . .

ـ قصة إخبارية !

ـ كلا ، روائية ! . . .

ـ حسنًا ، سأقرؤها .

وأخذ الكراسة ، ونظر إلى باستغراب ؛ وقلت :

ـ أريدك أن تقرأها الآن .

وارتعشت أجفانه . . . ولم أكن أعلم كيف تدار الصحف ، وكنت أظن أن المحرر يقرأ ما يصل إليه عند ما يتسلمه . وقال :

ـ سأقرؤها غداً ، وأبلغك بالنتيجة .

وشعرت بخيبة أمل . لقد أمضيت وقتًا فى كتابتها ، وهذا الرجل لا يهتم بها . وقلت :

ـ أعطنى القصة .

والتفت هو إلى ثم أخذ القصة وأخذ يقرأ فيها ؛ ثم قال :

ـ تعال غداً ، سأنتهى منها عندئذ .

ووافقت . وغادرت الصحيفة وأنا مقتنع أنه لن يقرأها . وأخذت أفكر فيما أفعل بها . وفى اليوم التالى ذهبت إليه وسألته :

ـ أين قصتى ؟

ـ إنها فى المطبعة . . .

ـ كم سأحصل ثمنًا لها ؟

ـ لا نستطيع أن ندفع لك شيئًا . . .

ـ ولكنكم تبيعون الصحيفة بنقود ؟

ـ نعم ، ولكننا ما زلنا ناشئين .

ـ ولكنك تطلب منى أن أعطيك قصتى دون مقابل .

وضحك قائلا :

ـ إنك أنت أيضًا مبتدئ ، وسيعرف قراؤنا اسمك ، وهذا يكفى .

ـ ولكن إذا كانت القصة جيدة حتى إنكم تبيعونها لقرائكم ؛ فلماذا لا أتقاضى ثمنًا لها ؟

وضحك ثانية ويبدو أنه اهتم بما أقول واستطرد :

ـ سأعرض عليك شيئًا أغلى من النقود ، سأعلمك كيف تكتب القصص .

وسررت أنا لذلك برغم أنى كنت لا أزال أعتقد أنه يستغلنى وقلت :

– متى سنتشرون قصتى .

– سأنشرها على ثلاث مرات ، تظهر الحلقة الأولى منها فى هذا الأسبوع ، ولكن هل تستطيع أنت أن تكتب حلقات أخرى ؟ . . .

– أنا أعمل فى الصباح والمساء لقاء ثلاثة دولارات فى الأسبوع .

– إذن احتفظ بعملك ، ولكن قل لى ، ماذا ستفعل فى الصيف ؟

– لا شىء . . . !

– إذن احضر لرؤيتى قبل أن تتولى عملاً آخر ، وسأجعلك تكتب قصصًا أخرى . . .

وبعد بضعة أيام رأيت زملائى يتقدمون منى وهم يحملون أعداد الصحيفة ، وسألونى :

– هل أنت الذى كتبت هذه القصة ؟

– نعم .

– ولماذا ؟

– لأنى أردت أن أكتب . . .

– ومن أين حصلت على المعلومات ؟

– لقد اخترعتها .

– كلا ، لم تخترعها ، لقد سرقتها من كتاب !

– بل اخترعتها ، ولو كنت سرقتها لما نشروها . . .

— لقد نشروها حتى يقرأها الناس . . .!

— ومن الذى طلب منك أن تكتب ؟

— لا أحد .

— لماذا كتبت إذن ؟

— لأنى أردت الكتابة .

ولم يبد عليهم أنهم اقتنعوا بصدق أقوالى . فلم يسبق لنا أن تلقينا دروساً فى الأدب فى المدرسة . ولم يفهم زملائى كيف اندفعت للكتابة بإرادتى وحدها ، ولم يفهموا لماذا أسميتها « سحر فدان الجحيم » . وأخذوا ينظرون إلى بريبة وشك . وكنت أظن أن هذه القصة ستقربنى إليهم ، ولكن الذى حدث كان العكس تماماً . . .

أما فى عائلتى فقد كان الأثر سيئاً جداً . ودخلت جدتى غرفتى فى يوم من الأيام وجلست على حافة السرير ، وقالت :

— ما هذا الذى تنشره الصحف يا ريتشارد ؟

— قصة . . .

— عن ماذا ؟

— مجرد قصة يا جدتى . . .

— ولكنهم أخبرونى أن هناك ثلاث قصص . . .

— لقد نشرت على ثلاث حلقات .

— ولكن ما موضوعها ؟

وتهربت من الإجابة فقد كنت أخاف من الدخول فى مناقشة دينية .

— إنها قصة من خيالى . . .

— إذن كلها أكاذيب .

— كلا يا إلهى . . . !

— إذا استخدمت اسم الله فى الكذب فعليك بمغادرة هذا المنزل .

— أرجوك يا جدتى ، أنا آسف ، ولكن أنت لن تفهمى موضوع القصة . إن الجميع يعلمون أن القصة تأتى من نسج الخيال .

— لماذا تكتبها إذن ؟

— لأن بعض الناس يحبون قراءتها .

— هذا من عمل الشيطان . . . !

وتركتنى وخرجت لحال سبيلها ، وكان قلق أمى أيضًا يعادل قلق جدتى ؛ فقد قالت لى :

— يجب أن تكون أكثر جدية يا بنى ، فقد كبرت ، ولن تتمكن من الحصول على عمل إذا أعطيت الناس فكرة سيئة عن عقليتك ، تصور ماذا يحدث لو علم ناظر المدرسة أنك تكتب مثل هذه القصص . إنه لن يعطيك عملاً أبداً . . .

ولم أستطع أن أجد إجابة على قولها هذا ، وهمست :

ـ لا تقلقى بشأنى يا أمى . . .

أما خالى توم فلم يتوان عن نقدى واحتقارى ، قائلاً إن القصة لا معنى لها ، ولم يسبق لأحد أن سمع عن قصة هذا عنوانها . أما خالتى آرى فقد اعتبرت أن استخدام كلمة « جحيم » يعتبر خطيئة كبرى . وأرجعت كل تصرفاتى إلى سوء تربيتى .

وضاقت الدنيا بى ورفضت أن أتكلم مع أحد عن القصة ، ولم أسمع كلمة تشجيع واحدة إلا من الصحيفة . . . وسرت إشاعة : أن ناظر المدرسة غاضب علىّ لاستخدامى كلمة « جحيم » . ولو أنى تنبأت بما سيحدث لما فكرت قط فى الكتابة . . .

وأخذت أحلم بالسفر إلى الشمال لأكتب هناك وأؤلف ما يحلو لى من قصص وروايات . فقد كان الشمال يعتبر الرمز الوحيد لتحقيق آمالى ، وكان يبدو لى مكاناً يمكن أن يقوم الإنسان فيه بأى عمل . ولا أعلم من أين حصلت على هذه الفكرة ، ولكنها ظلت حية بداخلى . وظلت فكرة مستقبلى فى أن أصبح رجلا هاماً ينظر إليه الناس تراودنى ، وكنت كثيراً ما أقرأ قصصاً عن النجاح والثروة ، ولكنى لم أتصور أن أصبح ثريا فى يوم من الأيام لأنى أعيش فى بلد تعتبر آمال الزنوج فيه محدودة ، وبرغم هذا كنت أشعر أنه لا بد لى من أن أغادر منزلى وأفعل شيئاً يجعل حياتى ذات قيمة . . .

وكنت أحلم بنظام تعليمى فى الجنوب يختلف تماماً عما هو قائم به ؛

فقد نجحت ولاية مسيسيبى فى أن تنفق ملايين الدولارات لتخنق شعورنا جميعاً ، بما سنته من قوانين لا مصلحة للزنوج فيها . وأدركت أن أعضاء مجلس الشيوخ عن الولايات الجنوبية مسئولون عن كل هذا .

وبرغم كل هذه الأحلام لم يشك واحد من أصدقائى أو عائلتى بما يجول فى خاطرى وكل ما ظنوه هو أنى أفعل شيئاً مخالفاً لمعتقداتهم وشيئاً خاطئاً . وكلما زادت رغبتى فى الأسئلة زاد إحجام الجميع عن الرد على هذه الأسئلة .

وبلغت الخامسة عشرة من عمرى. وكنت متأخراً فى الدراسة ولم أدرك هذا . فقد كنت مشغولا بأحلامى وبما يدور فى وجدانى من تعطش إلى المعرفة . وبرغم أنى كنت واثقاً تماماً أن طريق حياتى قد حاد عن طريق زنوج الجنوب ، إلا أنى واصلته غير مبال بالاصطدامات التى قد تقع فيه . ولم أهتم بصيحات الاستنكار ولا أجراس التهديد التى كانت تحوطنى من كل جانب .

الفصل الثامن

وجاء الصيف ثانية ، وواجهتنى المشكلة الأبدية ، البحث عن عمل ، وطلبت من المرأة التى كنت أعمل عندها وتدعى (مسز بيبس) أن تجعلنى أعمل طوال النهار وتدفع لى أجراً أكبر لأشترى ملابس وكتباً للعام الدراسى المقبل . وناقشت هى هذا الموضوع مع زوجها وكان يعمل رئيس أعمال فى أحد مصانع الأخشاب ، وسألنى :

ـ أتريد أن تعمل فى المصنع ؟

ـ نعم يا سيدى .

وتقدم منى ووضع يديه تحت إبطى ورفعنى قليلا عن الأرض كما لو كنت حفنة من الريش ، وقال :

ـ إن صحتك لن تساعدك .

ـ ولكن حاول تجربتى . . .

ـ إن العمل شاق وخطير . . .

وصمت ، وفهمت أنه يزن الأمر فى ذهنه ، وكانت هذه هى دائماً حال البيض مع السرد فى الجنوب . لا مصارحة ، بل صمت دون جواب ، وترك أية مسألة معلقة حتى تموت من نفسها . أما أنا فلم أفه بكلمة واحدة ، ولكنى لم أغادر الغرفة ، محاولا أن أجعله يفهم المشكلة ، وأخيراً قال :

ـ حسنًا تعال إلى المصنع غداً وسأحاول أن أجد لك عملاً، ولا أظن أنه سيعجبك . . .

وعند الفجر ذهبت إلى المصنع ، ورأيت العمال يرفعون الأخشاب ويصفونها على الآلات الهائلة وصاح فى أحدهم :

ـ حاسب !

واستدرت ورأيت الرجل الذى أنذرنى يشير بيده إلى أعلى ، ونظرت فشاهدت قطعة ضخمة من الخشب فوق رأسى وقفزت من مكانى وأسرع الرجل إلى جانبى وقال :

ـ ماذا تفعل هنا يا ولد ؟

ـ لقد طلب منى (مستر بيبس) ، رئيس العمال ، أن آتى لمقابلته لأحصل على عمل .

ونظر إلى مليًّا وقال :

ـ لو كنت مكانك لما قبلت عملاً هنا ، أن العمل هنا خطير عليك ، ورفع يده فرأيت ثلاثة من أصابعه غير موجودة وقال :

ـ انظر .

وأطرقت رأسى ومشيت .

ومرت الأيام طويلة مملة حارة . وكنت أقضى الصباح فى البحث عن عمل وأقرأ بعد الظهر . وفى يوم من الأيام مررت بمنزل أحد زملائى

فى الفصل واسمه « نيد جرينلى» ووجدته جالساً أمام منزله يبدو عليه الملل وصحت فيه :

ـ هالو نيد . . . ما أخبارك !

ـ لقد سمعت بالخبر أليس كذلك .

ـ أى خبر ؟

ـ عن أخى بوب . . .

ـ كلا لم أسمع ، ماذا حدث له ؟

وأخذ يبكى بحرقة وقال :

ـ لقد قتلوه . . .

ـ قتله البيض !!!

وكنت قد التقيت ببوب مرة واحدة وسألت :

ـ كيف حدث هذا ؟

ـ لقد أخذوه فى عربة إلى الطريق الزراعى وقتلوه بالرصاص ، وكنت قد سمعت أيضاً أن بوب يعمل فى أحد فنادق المدينة وسألت :

ـ لماذا ؟

ـ لقد زعموا أنه على علاقة بإحدى الفتيات البيض بالفندق . . .

وأحسست بالدنيا تدور حولى . ونظرت أمامى مليًّا . لقد وقع بوب فريسة للخطر الأبيض ، الخطر الذى يحدق بكل زنجى فى الجنوب ؛ وكنت قد سمعت همساً عن بعض الأولاد الزنوج الذين لهم علاقات

ببعض الفتيات من البيض وكيف أنهم يتقابلون فى فنادق المدينة ، ولكنى لم أهتم بهذه الشائعات . والآن تصدنى هذه الوقائع وتتجسم لى فى شكل موت شخص أعرفه . . .

وتوقفت عن البحث عن عمل وعدت إلى المنزل وجلست أفكر . لقد تغير شكل العالم فى عينى بعد ما سمعت ، وسرت فى أوصالى رعشة تشبه الشلل ، شلل الإرادة والرغبة . إن الموت ينتظرنى إذا ما قمت بأية حركة ، ولذا فهل تستحق الحركة منى أى مجهود . وبرغم أن ما حدث لم يمسنى أنا شخصياً إلا أن مجرد السماع به كان يؤثر فى صميمى تأثيراً بالغاً . لقد بدأت أرى ما يحدث على حقيقته ، حقيقته المروعة الملونة بالدم . وهذا التفكير عرقل حياتى وشعورى ، وباعد بينى وبين العالم الذى أعيش فيه .

وبعد بضعة أيام ذهبت إلى محرر الصحيفة المحلية الزنجية ، ولكنه رفض أن يمنحنى عملاً ، وبدأت الشكوك تراودنى فى أننى سأتمكن من الالتحاق بالمدرسة فى العام المقبل . ومرت أيام الصيف ، وكنت ألتقى مع زملائى ويحدثوننى عن الأعمال التى يقومون بها ، وكيف أن بعضهم قد ارتحل إلى المصايف فى الشمال ، لماذا إذن لم يخبرونى عن الأعمال فى الشمال ؟ وسألتهم ، وقالوا : إنه قد غاب عنهم أن يخبرونى ، ولم أشعر بالمرارة تجاههم فهم لا يعرفوننى جيداً . . . أنا مجرد زميل لهم فى الفصل ولكنى لم أندمج معهم أبداً . لقد وقف الدين والجوع والفقر حائلاً بينى وبين أقرانى من السود .

وفى يوم من الأيام كنت أحادث ابنة خالى (ماجى) ، وكانت تصغرنى ببضعة أشهر عند ما دخل خالى إلى الغرفة ، ونظر إلى بكراهية وعداء؛ ثم نادى ابنته . ولم أهتم بهذا . ولكن بعد بضع دقائق سمعته يؤنبها وطرقت أذنى بعض كلماته :

— هل تريدين منى أن أكسر عنقك ؟ ألم أطلب منك الابتعاد عنه ؟ إنه ولد خطير ، لماذا لا تبتعدين عنه كما يفعل الآخرون ؟ لا تسألى أسئلة بل أطيعى فقط ، ابتعدى عنه وإلا قتلتك . . .

وسمعت رد ابنة خالى غير المفهوم ، وجف حلقى من الغضب ، وددت لو أنى اقتحمت الغرفة لأطلب منه تفسيراً لما يقوله ، ولكنى لم أفعل . لا بد أن خالى قد أصدر أوامره هذه منذ أن أتى ليقيم معنا ، وتذكرت أن أولاده فعلاً لا يختلطون بى ، ولا يلعبون معى كما يفعل الأولاد الذين يعيشون تحت سقف واحد ، وتذكرت اليوم الذى هددت فيه خالى بالموسى ، ولكن لا أظن أنه وصمنى بالخطورة لمثل هذا السبب ، فقد كنت غاضباً . وبرقت أمامى علاقتى بعائلتى ، وكان لتلك البارقة أثرها فى تغيير سلوكى تجاههم ، وفى عزمى على مغادرتهم ، ولكنى قررت أن أبقى حتى أصل إلى الصف التاسع فى الدراسة . ومرت الأيام وكنت لا أكلم سوى أمى . وتداعت حياتى شيئاً فشيئاً ، وكنت أدرك هذا . وكنت أنتظر يوم الفرار . . . أنتظر حادثة أو دافعاً واحداً يدعونى إلى اتخاذ مثل هذه الخطوة . . .

وعدت إلى العمل عند مسز (بيبس) وتمكنت من شراء كتب المدرسة ، ولكنى لم أتمكن من شراء ملابس جديدة وبقيت ملابسى رثة ممزقة . ولحسن الحظ كانت مواد الدراسة فى الصف التاسع سهلة ، وفى منتصف العام الدراسى طلب منى مدرس الصف أن أتولى الإشراف على التلاميذ ، وكان هذا شرفًا كبيراً لى ، وأملاً فى أن أصبح مدرساً فى يوم من الأيام .

وفى خلال الشتاء جاء أخى من (شيكاجو) ، وكنت مسروراً لرؤيته برغم طول الفرقة بيننا ، وقبل مدة طويلة شعرت أن العائلة تفضله على ، وأخذ هو يظهر انتقاده لى ، وقد تألمت جداً لمسلكه هذا . وزادت وحدتى ، وابتعدت عن المجتمع وعن زملائى . ومرت الأيام برتابة ميكانيكية ، فكنت أستيقظ فى الصباح لأذهب إلى عملى ، أقطع الأخشاب ، وأحمل الفحم ، ثم أتوجه إلى المدرسة .

وانتهى العام الدراسى ، واختارنى المدرس لأكتب تقريراً ألقيه فى اجتماع عام ، وفى يوم من الأيام استدعانى الناظر إلى مكتبه وقال لى دون تمهيد :

— هذا هو تقريرك يا « ريتشارد » . . .

وألقى بمجموعة من الأوراق على مكتبه ، وأخذت أنا أجمعها ، وسألته :

— أى تقرير ؟ . . .

– التقرير الذى ستلقيه فى حفلة التخرج . . .

– ولكنى يا سيدى الأستاذ قد أعددت تقريراً .

وضحك بثقة وقال بتعال :

– اسمع يا ولد ؛ إنك ستخاطب البيض والسود على السواء ، فماذا عندك تقوله لهم ؟ . . . ليست عندك تجربة كافية . . .

واحتقن وجهى وغضبت وقلت :

– أنا أعلم يا أستاذ أنى لست متعلماً ولكن هؤلاء الناس سيأتون ليستمعوا إلى الطلبة ، ولن ألقى خطاباً أعددته أنت لى . . .

واضطجع فى كرسيه ونظر إلى مليًّا وبدهشة وقال :

– إنك أول ولد من نوعه فى هذه المدرسة ، ولا أفهم كيف سمحوا لك بدخولها . خذ التقرير واقرأه ، فأنا أعرف منك بما يصلح لك ؛ ومن المؤلم أن تقف أمام الناس ولا تقول شيئاً ، وخاصة أن كبير المفتشين سيكون حاضراً ، ولا بد من إعطائه فكرة حسنة عن المدرسة . لقد عملت ناظراً قبل أن تولد أنت ، ومرت على أعداد هائلة من الأولاد والبنات ولم يرفض واحد منهم أن يلقى تقريراً أعددته أنا . . .

وفكرت بسرعة . . . إن المسألة مسألة مبدأ ، وكان لا بد لى أن أتخرج وأحصل على شهادة ، ولكنى أرفض أيضاً أن أقرأ تقريراً كتبه غيرى ، وقلت :

– سألقى بتقريرى أنا يا أستاذ !

وغضب ، وقال وهو يقلب قلمه الرصاص بين يديه :

– إنك صغير أبله عنيد ، وإذا أصررت على موقفك هذا فلن تتخرج . . .

– ولكنى نجحت فى امتحاناتى .

وصاح فىّ قائلا :

– اسمع يا هذا أنا الذى أقرر من الذى ينجح فى هذه المدرسة .

وأخذت منى الدهشة كل مبلغ ، لقد داومت على الحضور إلى هذه المدرسة لمدة عامين ولم أشك لحظة فى شخصية الناظر ، والواقع أنه لم يكن موضع تفكيرى على الإطلاق وقلت :

– إذن أنا لن أتخرج . . . !

واستدرت لأذهب ، ولكنه صاح :

– اسمع ، تعال هنا .

وواجهته وكان يبتسم فى علياء وقال :

– أنا فى الحقيقة سعيد لهذه الفرصة التى سنحت لأتكلم معك ، وكنت أفكر جديًّا فى جعلك أحد أعضاء هيئة التدريس ، أما الآن فأظن أنك لا تصلح . . .

لقد كان يحاول رشوتى ، بالطريقة التى كانت تنجح دائمًا مع الملونين وأجبته :

– اسمع يا أستاذ ، أنا أعرف أن هذه قد تكون فرصتى الأخيرة ، ولكنى أحب أن تكون تصرفاتى سليمة . . .

– ماذا تعنى ؟

– أنا لا أملك نقوداً وسأعمل . ودبلوم المدرسة لن ينفعنى كثيراً فى الحياة وأنا لا أشعر بالمرارة لهذا ، فهى ليست غلطتك ، ولكن لن أقبل هذا التصرف . . .

وسألنى :

– هل سبق لك أن تحدثت فى هذا الموضوع مع أحد ؟

– كلا ، لماذا ؟

– هل أنت متأكد ؟

– هذه أول مرة أناقش فيها هذا الموضوع . . .

– ألم تتكلم مع أحد من البيض فى هذا الموضوع ؟

– كلا يا سيدى . . .

– هذا ما أردت أن أعرفه .

وزادت دهشتى ، وأدركت أن الرجل يخاف على منصبه الآن وابتسمت وقلت :

– إنك لا تفهمنى جيداً يا أستاذ . . .

وابتسم هو وغمز بعينه قائلا :

– إنك صغير أحمق ، استيقظ يا بنى وتعلم كيف تحيا فى هذا العالم ، إنك ذكى وأنا أفهم ما تتطلع إليه ، لقد راقبتك وأعرف جميع أقربائك . وإذا وافقتنى فسأساعدك على دخول المدرسة الثانوية .

ـ أنا أريد أن أتعلم ولكن هناك بعض الأشياء التى لا أفهمها .

ـ إلى اللقاء إذن . . .

وتوجهت إلى المنزل والألم يحز فى نفسى . لقد كنت أكلم رجلاً « اشتراه الآخرون » ويريد هو أن « يشترينى » ، وأحسست أنى كنت فى صحبة شىء غير نظيف . وفى المساء أتى (جريجز) وهو أحد زملائى فى الدراسة لزيارتى وقال لى :

ـ اسمع يا ديك إنك تلقى بمستقبلك إلى عرض الحائط هنا فى (جاكسون) . . . اذهب إلى الناظر وخذ منه التقرير الذى كتبه هو ، ما الذى ستخسره بهذا ؟

ـ كلا .

ـ لماذا ؟

ـ أنا أعلم أن تقريرى لن يحوى الكثير ، ولكنه تقريرى أنا على أية حال . . .

ـ إذن لن تحصل على وظيفة مدرس أبداً . . .

ـ ومن قال إنى أريد أن أعمل مدرساً ؟ ! . . .

ـ يالعزيمتك القوية !

ـ إن المسألة ليست مسألة عزيمة ، المسألة أنى أرفض التعامل بهذه الطريقة . . .

وغادرنى . وبعد يومين حضر إلى خالى توم ، وكنت أعلم أن الناظر قد

حدثه عن موضوع التقرير وقال :

ـ لقد سمعت أنك رفضت أن تقرأ التقرير الذى أعده الناظر .

ـ نعم ، هذا صحيح .

ـ هل تسمح لى بقراءة تقريرك أنت ؟

ـ بالطبع . . .

وناولته تقريرى ، وقال :

ـ وهل تسمح بإعطائى تقرير الناظر ؟

وأعطيته تقرير الناظر ، ودخل غرفته ليقرأ التقريرين ، وجلست أنتظر ؛ وبعد برهة عاد إلى وقال :

ـ إن تقرير الناظر أحسن من تقريرك . . .

ـ أنا لا أشك فى هذا على الإطلاق ، ولكن لماذا طلبوا منى أن أكتب تقريراً إذن ، إذا كانوا لا يريدن منى أن أقرأه ؟

ـ هل تسمح لى بتصحيح بعض النقاط فى تقريرك . . . ؟

ـ كلا يا سيدى .

ـ اسمع يا ريتشارد إن المسألة تتعلق بمستقبلك . . .

ـ اسمع يا خالى ، أرجوك ... لا تهتم بهذه المسألة واتركها لى . . .

ونظر إلى بدهشة ثم غادر الغرفة . لقد كان تقرير الناظر أبسط وأوضح من تقريرى ، ولكنه لم يحتو على شىء . أما تقريرى فكان مشوشاً ولكنه يقول كل ما أريد أن أقوله أنا . وأخذت أفكر فيما يجب على أن

أفعله . هل أحضر حفلة التخرج . لقد بدأت أكره كل ما يحيط بى . سأبحث عن عمل وأقتصد ما يكفينى حتى أسافر وأترك هذا البلد . . .

وكان (جريجز) الذى قبل أن يقرأ تقرير الناظر يأتى إلى منزلى كل يوم ، وكنا نذهب معاً للسير فى الغابات ونتمرن على إلقاء الخطب ، وكنا نحادث الأشجار والأنهار ونخيف الطيور من على أغصانها . وحفظت تقريرى عن ظهر قلب .

وانتشرت أخبار خلافى مع الناظر فى الفصل ، وأبدى التلاميذ نقدهم الصريح لتصرفى ، بقولهم :

— إنك معتوه يا ريتشارد . كيف تلقى بمثل هذه الفرصة إلى الهواء ؟ !

وسكت على نقدهم هذا برغم ثورتى الداخلية ، فقد كنت أعلم أن هدفهم هو إنقاذى . وأخيراً اضطر الناظر إلى أن يطلب منهم تركى وشأنى .

وثمة مشكلة أخرى كانت تواجهنى قبل أن ألقى التقرير ، ألا وهى مشكلة البنطلون القصير . وكنت التلميذ الوحيد بالمدرسة الذى لا يزال يرتديه ، وكنت مصمماً على أن أغادر المدرسة ببنطلون طويل . وما دمت سأعمل وسأستقل فلا بد لى من بنطلون طويل . وعرف أهلى برغبتى هذه ، وقالت أمى :

— إنك تريد النمو بسرعة بالغة .

وقال خالى :

– إنك ما زلت طفلا . . . !

وقالت جدتى :

– لقد جن الولد تماماً . . . !

وأفهمت الجميع أن مصيرى بيدى الآن ، وكل ما يتعلق به من قرارات سينبع منى أنا ، واقترضت بعض النقود من مسز (بيبس) ودفعت قسطاً أولاً واشتريت بذلة رمادية . وقلت لنفسى : إذا لم أتمكن من دفع بقية الأقساط فسأعيدها بعد حفل التخرج .

وفى ليلة الاحتفال زاد قلقى ، ولكن بمجرد أن واجهت الجماهير أخذت الكلمات تتدفق من فمى ، وزاد تصفيقهم لى ، ولم أهتم كثيراً بآرائهم . وأتى بعض زملائى وهنأونى وصافحونى ، ولكنى لم أهتم بل توجهت إلى الباب الخارجى ، ودعانى أحدهم إلى حفلة ولكنى رفضت ، فقد كنت لا أريد رؤيتهم على الإطلاق . وسرت إلى المنزل وأنا ألعن كل شىء وقررت وأنا فى السابعة عشرة من سنى أن أواجه العالم وكان ذلك عام ١٩٢٥ .

الفصل التاسع

أصبحت حياتى الآن تعتمد على عثورى على عمل . وقبلت أول عرض جاء فى طريقى ، وعملت حمالاً فى أحد محال الثياب المستعملة . وكان المحل يزخر دائماً بالملونين يبحثون عن ملابس قديمة . وكانوا يدفعون الثمن الذى يفرضه عليهم الرجل الأبيض ، وكان صاحب المحل وابنه والكاتب الذى يعمل عنده يعاملون الزبائن بكل احتقار ويدفعونهم ويضربونهم . وبرغم أنى كنت أشاهد هذه الأحداث مراراً إلا أنى لم أستطع الاعتياد عليها قط . . . كيف يقبل الملونون هذا ؟ وظلت أكبح جماح ثورتى وغضبى دون نتيجة . . . وأخذ منى الخوف كل مأخذ ؛ لأن صاحب العمل بدأ يشك فى ثورتى ضد ما يحدث فى المحل .

وفى يوم من الأيام وقفت سيارة صاحب المحل ونزل منها هو وابنه . وكنت أنا أقوم بالتلميع والتنظيف . ورأيت امرأة ملونة تجلس بينهما ، وعندما نزلوا جروها إلى المحل . وكان البيض يمرون أمام المحل ويرون هذا المنظر ثم يسيرون لحال سبيلهم ، وكان أحد رجال البوليس من البيض يقف عند ناصية الشارع وقد شهد ما يجرى دون أن يبدى أية حركة ، بل أخذ يدير عصاه ، ونظرت أنا إلى كل ما يجرى دون أن أتوقف عن عملى . وبعد لحظة سمعت صرخات من داخل المحل ، وخرجت المرأة والدماء تنزف

منها وتمسك معدتها بيدها وقد تمزقت ملابسها . ولما وصلت إلى ناصية الشارع استقبلها رجل البوليس وأمسك بها واتهمها بالسكر علانية .

ونادى سيارة من سيارات البوليس وقذف بها داخلها .

ودخلت إلى الغرفة الخلفية بالمحل ورأيت صاحب المحل وابنه يغسلان أيديهما ، ونظرا إلى ، ونظرت أنا إلى أرض الغرفة فوجدتها ملوثة بالدماء ؛ ولا بد أن وجهى كانت تتمثل فيه مظاهر الدهشة ، فقد ربت صاحب العمل على كتفى وقال :

ـ إن هذا يا ولد ما نفعله للزنوج إذا لم يدفعوا ديونهم . . .

ونظر إلى الابن وابتسم وقال :

ـ خذ سيجارة .

وبدون وعى أخذتها وأشعلها هو لى . وكانت هذه حركة غريبة من جانبه . ولم أنبس ببنت شفة . . .

وبعدما ذهبا جلست على أحد الصناديق أحدق فى الدماء وأدخن ، وكان بالمحل دراجة كنت أستخدمها لأنقل المشتريات . وفى يوم من الأيام أصيبت عجلة هذه الدراجة بعطب . وسرت فى الجو الحار أجرها ورائى وأبطأت بجانبى سيارة وصاح منها رجل أبيض :

ـ ماذا أصاب الدراجة يا ولد ؟

وأخبرته وطلب منى أن أركب فى السيارة . وركبت السيارة وأنا أمسك

بالدراجة بكل ما فىّ من قوة . وسارت السيارة ووجدت بها جماعة من الشباب البيض .

وكانوا يحتسون الخمر من زجاجة يناولونها لبعضهم البعض . وعادت إلى أيام الخمر وأنا فى السادسة من عمرى . ولما عرضوا على أن أشرب رفضت . وبمجرد أن تفوهت بكلمة الرفض أحسست بشىء يلطمنى على وجهى ، وكانت زجاجة الويسكى الفارغة ، ودارت الدنيا أمامى ، وأحسست بنفسى أقع على الطريق ، وقد تشابكت قدماى فى عجلات الدراجة . وتوقفت السيارة وتجمع ركابها حولى وسألنى الشاب الذى قذفنى بالزجاجة :

ـ ألا تعلم أيها الزنجى كيف تخاطب البيض ؟ ألا تعلم أنه يجب عليك أن تقول لهم « سيدى » عند مخاطبتهم ؟ !

وتحاملت على نفسى ووقفت ، وكانت ذراعاى ورجلاى تنزف بغزارة . وتقدم منى الشاب واختطف الدراجة ، وقال آخر :

ـ اتركه لشأنه . . .

ووقف الجميع ينظرون إلى . ويبدو أنهم أحسوا بعطف واحتقار تجاهى ؛ فقد قال أحدهم :

ـ والآن هل تريد مواصلة الركوب إلى المدينة أيها الزنجى ؟

وأجبت ببساطة :

ـ كلا ، أفضل المشى . . .

وضحكوا . وقبل أن يستقلوا السيارة حاولوا تهدئتى بقولهم :

— يحق لك أن تفخر بما حدث لك أيها الزنجى ، ولو حدث هذا مع غيرنا لقتلوك . . .

وكنت أتعلم سريعاً كيف أعامل البيض. وأرقب حركاتهم وسكناتهم، وأفسر كلماتهم وصمتهم .

وفى أحد أيام السبت كنت أحمل بعض المشتريات فى حى أبيض . وكنت عائداً على دراجتى بسرعة إلى المحل . واستوقفتنى إحدى سيارات البوليس، وطلب منى أحدهم أن أنزل من على الدراجة . ونزلت . ونزل رجال البوليس من السيارة وواجهونى وبنادقهم فى أيديهم . وطلبوا منى أن أرفع يدى وفعلت وأمرونى بالوقوف دون حراك . وفتشوا جيوبى وما أحمل من ملابس، ويبدو أنهم صدموا عند ما لم يعثروا على شىء فيها . وأخيراً قال واحد منهم :

— اسمع يا ولد ، قل لرئيسك ألا يبعث باك إلى أحياء البيض فى هذه الساعة من الليل . . .

— حسناً يا سيدى :

وامتطيت الدراجة وسرت فى طريقى وأنا أشك فى أنهم سيطلقون على النار، وكان كابوساً مريعاً . . .

وأخذت أشهد أنواع القسوة تحدث فى المحل ، وأحاول إخفاء عواطفى من الظهور على وجهى . وفى يوم من الأيام قال لى صاحب المحل :

– اسمع يا زنجى . . . !

– نعم يا سيدى . . .

– فيم تفكر ؟

– لا شىء يا سيدى . . .

وحاولت أن أبدو مندهشاً حتى أخدعه ، ولكنه استمر . .

– لماذا لا تضحك كما يفعل الأولاد الزنوج الآخرون .

– لأنى لا أجد ما أضحك عليه يا سيدى .

وكان وجهه جامداً ، وأيقنت أننى لم أتمكن من إقناعه . وتوجه إلى باب المحل ، ثم عاد بعد لحظة ، وقد احمر وجهه . وألقى فى وجهى ببضع أوراق مالية وقال :

– أنا لا أحب شكلك فاغرب عنى . . .

وتناولت النقود دون أن أعدها وغادرت المحل .

وتمكنت من الحصول على أعمال بسيطة أخرى . وكنت أخرج من واحد بسبب تصرفاتى ، ومن الثانى بسبب شكلى . وأخذ هدفى يبتعد عن عينى ، وبدأت أشك فى أنى سأحصل على النقود .

وفى أحد الأيام وكنت خالياً من العمل ذهبت لزيارة زميلى (جريجز) وكان يعمل فى أحد محال المجوهرات بشارع كابيتول . ووجدته ينظف النوافذ وقلت له :

– هل تستطيع أن تجد لى عملا ؟

ونظر إلى باحتقار ، ثم ضحك وأجاب :

ـ نعم .

ـ أين ؟

ـ ولكنى لست واثقًا من أنك ستحتفظ به .

ـ ماذا تعنى ؟ وأين أجد هذا العمل ؟

ـ انتظر يا ديك ، لأنى أعلم تمامًا أنك تحاول الحصول على عمل طيلة الصيف ولم تنجح وذلك لعدم صبرك ، هذه هى مصيبتك . . .

ولم أرد عليه ، فقد سبق لى أن سمعت مثل هذا الكلام . . . وأشعل سيجاره ونفث دخانها ، وحاولت أنا أن أستحثه على المضى ، وقلت :

ـ حسنًا .

ـ ليتنى أستطيع أن أتكلم معك !

ـ نعم ، أنا أعرف ماذا تريد أن تقول . . .

وربت على كتفى ، ونظر إلى نظرة كلها خوف وكراهية واهتمام بأمرى وقال :

ـ هل تريد أن تقتل ؟

ـ كلا بالطبع . . .

ـ إذن بحق السماء تعلم كيف تعيش فى الجنوب . .

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟ هذا هو ما يقوله البيض . . . فلماذا تقوله أنت ؟

ـ ها أنت ذا تعود ثانية إلى كلماتك هذه ، انظر إلى وجهك ، إنك لا ترضى بأن ينبهك أحد إلى شىء ، إننى أحاول مساعدتك وأنت ترفض . . .

وسكت ثم نظر إلى الشوارع المكتظة بالبيض ، ثم همس إلى :

ـ انظر يا دياك إنك أسود ، أسود ، أسود ، ألا تفهم معنى كلمة أسود .

ـ بالطبع أفهمها . . .

ـ ولكن تصرفاتك توحى بأنك لا تفهم .

ثم أخذ يعدد لى الأسباب التى من أجلها تركت كل عمل حصلت عليه ، وسألته أنا :

ـ كيف تسنى لك أن تعرف كل هذا ؟

ـ إن البيض يهتمون بحركات السود ، وينشرون الأخبار بسرعة ، ورئيسى من أهل الشمال ، وقد حدثنى عن أعمالك ، فالكل يعرف عنك الآن كل شىء . . .

هل أستطيع أن أصدق ما يقول ؟ هل ما يقول صحيح ؟ وكيف يتسنى لى أن أتعلم أساليب عالم البيض هذا ؟ وسألته بتخاذل :

– قل لى إذن كيف أتصرف ، لأنى أريد أن أحصل على نقود تكفينى لأن أترك هنا . . . ؟

– انتظر وسأساعدك .

وفى هذه اللحظة خرج من محل المجوهرات رجل وامرأة ، وأفسحت لهما طريقًا ليمرا ، وكلمات (جريجز) ترن فى أذنى . . . وفجأة وجدته يدفعنى بقوة أدت إلى سقوطى على الأرض وسمعته يقول :

– أنا الآن أعلمك كيف تبتعد عن طريق البيض .

ونظرت إليهما ووجدتهما من البيض فعلا ، ولكنى لم أكن قد لاحظت هذه الحقيقة ، وقال صديقى :

– هذا ما أعنيه ، إن البيض يريدون منك أن تبتعد عن طريقهم . . .

وكان ينطق كل حرف بدقة وببطء وقلت :

– الآن فهمت ما تعنى . . .

وقال :

– اسمع يا ديك أنا أعتبرك أخاً لى ، وأعاملك على هذا الأساس ، إنك تعامل البيض كما لو كانوا ليسوا بيضاً ، وهم يدركون هذا . . .

وأجبت :

– يا إلهى هل يجب أن أكون عبداً لهم ؟

– يجب عليك أن تأكل . . .

– نعم ، يجب أن آكل . . .

– إذن ، ابدأ بالتصرف كما قلت لك ، إذا واجهت قومًا من البيض فلا تقم بأية حركة قبل أن تفكر فيها ، ولا تقل كلمة واحدة قبل أن تزنها . إن تصرفك مقبول بيننا نحن ، وليس بين البيض ، فلن يقبلوه . . .

وحملقت أمامى . وكنت قد اقتربت من سن السابعة عشرة ، وأخذت أفكر، هل سيكتب لى الخلاص من هذا الوباء ؟ إن ما يقوله (جريجز) صحيح ، ولكنه غير ممكن ، فلن أستطيع أن أفكر أو أدبر طيلة الوقت . قد أتمكن من هذا لفترة قصيرة ، ولكنى لا بد أننى سأنسى وأتصرف تصرفاً إنسانيـًا ، دون ما رغبة فى أن أسىء إلى أحد ، بل لمجرد أنى سأنسى هذا الحاجز الصناعى بين الطبقات والأجناس . سأتصرف مع البيض والسود تصرفـًا واحداً ، لن أميز بينهم . وتنهدت قائلا :

– إنك على حق ، ويجب أن أراقب نفسى من الآن فصاعداً ، يجب أن أحطم نفسى . . .

– كلا . . .

ودخل عندئذ رجل أبيض إلى المحل وتوقفنا عن الكلام واستطرد صديقى :

– لا تظننى يا ديك أعاملك كما يعاملك خالك توم ، الواقع أنى أكره هؤلاء البيض ، أكرههم من كل قلبى ، ولكنى لا أظهر هذه الكراهية لأنى لو فعلت لقتلونى . لقد سمعت أحد الزنوج وكان مخموراً يقول :

ـ إن هؤلاء البيض ذوى الملابس الأنيقة ، لهم نفس رائحتى .

وتلفت حوله ليتأكد من أن ما قاله لم يصل إلى سمع واحد من البيض ، وضحكت على قوله هذا ، وواصلت النظر إلى الوجوه البيضاء التى تمر أمامى ، أما هو فقد أخفى فمه عند ما ضحك ، حتى لا يبدو عليه السرور البالغ فى حضرة البيض ، وواصل هو كلامه :

ـ إن فوق محلنا هذا محلا لبيع النظارات ، يملكه أحد الشماليين من ولاية (إيلينوى) . وهو يبحث عن صبى ملون ليعمل عنده فى الصيف ، وأنت على علم بالهندسة والجبر ، وأظنك تصلح لهذا العمل وسأحدثه عنك وأتصل بك . . .

وسألت أنا :

ـ هل أستطيع مقابلته الآن ؟

ـ بل اصبر ، بحق السماء .

ـ لعل هذا هو خطأ الزنوج ، أنهم صابرون .

وضحكت . أما هو فقد بدا على وجهه القلق . وشكرته وغادرته . ولم أسمع منه شيئًا لمدة أسبوع ، وفقدت الأمل فى الحصول على هذا العمل . ولكنه أتى لزيارتى فى يوم من الأيام وقال :

ـ يبدو أنك حصلت على الوظيفة التى حدثتك عنها . وستتعلم فيها إحدى المهن ، ولكن تذكر كل ما قلته لك . تذكر أنك زنجى .

وستبدأ العمل غداً . . .

– وكم سيكون أجرى ؟

– خمسة دولارات فى الأسبوع كبداية ، ثم تحصل على علاوة إذا ما أحبوك . وارتفعت آمالى إلى السماء ، سأتعلم مهنة ، قد تساعدنى على الاستمرار فى الدراسة ، وقبلت العمل ووعدته بحسن السلوك وبالتواضع ، وقال هو :

– لا تنسَ أنك ستعمل عند أحد الشماليين .

وتوجهت صباح اليوم التالى إلى محل النظارات قبل أن يفتح أبوابه ، وأخذت أذكر نفسى بأننى يجب أن أكون مهذبًا ، وأن أفكر فى كل ما أقوله وأعمله ، ويجب ألا أجعلهم يظنون أنى أتصور نفسى مثلهم . وتقدم منى واحد منهم وسألنى :

– ماذا تريد ؟

– إنى متقدم إلى عمل هنا يا سيدى . . .

– حسنًا ، ادخل . . .

وتبعته وفتح باب المكتب ، وأخذ منى الاضطراب كل مأخذ ، ولكنه كان مهذبًا ، وجلست وقد أمسكت بقبعتى . ودخلت فتاة بيضاء وجلست إلى الآلة الكاتبة ، ثم دخل رجل أبيض آخر ، وتقدم إلى الغرفة الخلفية وأخيراً وصل رجل ثالث طويل القامة أحمر الوجه . وفهمت من مشيته أنه

الشمالى ، وقال :

ـ أنت الولد الجديد ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ سأراك بعد أن أنتهى من قراءة البريد . . .

ـ حسنًا يا سيدى .

وقلت هذا فى صوت منخفض حتى لا تبدو فيه أية نبرة عدائية . . .

وبعد نصف ساعة نادانى مستر (كرين) ، الرئيس ، وأخذ يسألنى عن دراستى وعن معرفتى بعلوم الرياضة . وقد بدا عليه السرور لما علم أنى درست مادة الجبر لمدة عامين وسألنى :

ـ هل تريد أن تتعلم هذه المهنة ؟

ـ نعم يا سيدى هذا ما أريده . . .

وأخبرنى أنه يود أن يقوم بتمرين أحد الزنوج ليساعده على إتقان هذه المهنة . وحاولت أن أظهر له امتنانى . ثم قادنى إلى الفتاة التى تكتب على الآلة الكاتبة وقال :

ـ هذا هو ريتشارد ، وسيعمل معنا . . .

ثم أخذنى إلى الغرفة الخلفية ، ووجدت أنها عبارة عن مصنع صغير ملىء بالآلات الغريبة المغطاة بتراب أحمر . . .

وقال مخاطبًا أحد الرجال :

— هذا هو ريتشارد يا رينولدز . . .

ثم إلى رجل ثالث وعرفنى بهم جميعاً . وطلب منهم أن يقوموا بتمرينى على عمل العدسات . ووافق الجميع . ثم خاطبنى هو قائلا :

— الآن قم بتنظيف المكان يا ولد . . . !

وكنست ومسحت ونظفت المكان ؛ وبعد الظهر قمت ببعض الأعمال الخارجة ، وكنت أقف أرقب الرجلين وهما يصنعان العدسات . ولم يخاطبانى بكلمة واحدة ولم يحاولا أن يعلمانى شيئاً . ومر يوم وثان وثالث ، وأسبوع وتسلمت أجرى . ومر شهر ولكنى لم أتعلم شيئاً ، ولم يحاول أحد أن يلقننى شيئاً . وفى يوم من الأيام توجهت إلى الرجل الذى يدعى (رينولدز) وسألته عن تمرينى . وقال :

— ما الذى تريد أن تقوله أيها الزنجى ، أتريد أن تظهر براعتك ؟

— كلا يا سيدى . . .

وزادت حيرتى . لعله لا يريد مساعدتى . وذهبت إلى الآخر وذكرته بما قاله رئيس العمل وقال :

— ماذا تظن نفسك أيها الزنجى ، أبيض ؟ !

— كلا يا سيدى . . .

— إن تصرفاتك توحى بذلك . . .

وهز قبضته فى وجهى واستطرد :

— إن هذا عمل الرجل الأبيض .

ومن هذه اللحظة تغير سلوك الاثنين تجاهى ، ولم أتلق منهما تحية الصباح ، وأصبحت أؤنب وأعنف على أبسط خطأ . ولم أرد على شتائمهما حتى لا أعطيهما فرصة ما ، وفى يوم من الأيام نادانى رينولدز قائلا :

— أيها الزنجى ، هل تعتقد أنك ستصبح شخصاً ما فى يوم من الأيام ؟

— لا أعلم يا سيدى . . .

— لو كنت زنجياً لقتلت نفسى . . . !

ولم أرد وزاد غضبى وسأل هو :

— أتعلم لماذا أقتل نفسى ؟

ولم أرد واستمر هو ضاحكاً .

— ولكن لعل الزنوج لا يهمهم أن يكونوا زنوجاً . . . !

وتجاهلته . وكان الآخر يرقبنى . ولاحظت أن الاثنين تبادلا النظرات ، وظهر لى أن ما وعد به مستركرين لن يتحقق برغم ما مارست من مذلة وخضوع . ها أنا ذا أقبض ثمن هذا الذل ، وقال الرجل الثانى :

— تعال هنا يا ولد . . . !

وتقدمت إليه وسألنى :

ألا يعجبك ما يقوله رينولدز ؟

وابتسمت وقلت :

ـ بالعكس إن ما يقوله صحيح .

ـ ولكنه لم يعجبك ، إنى أرى هذا واضحاً على محياك .

وحملقت فيه وتراجعت واستمر :

ـ هل سبق لك أن وقعت فى مشاكل . . . ؟

ـ كلا يا سيدى . . .

ـ وماذا تفعل لو حدثت لك مشكلة ؟

ـ لا أعلم يا سيدى . . .

ـإذن راقب نفسك ولا تقع فى مشاكل . . .

وددت لو أمكننى أن أقص على مستر (كرين) كل ما حدث ، ولكنى كنت أخاف مما قد يفعله الاثنان بى لو علما . وواصلت العمل تحت ضغط نفسى شنيع ، وحدث ما توقعته فى ظهيرة أحد الأيام ؛ فقد نادانى أحدهما إلى مكتبه ،ولأصل إلى هذا المكتب كان على أن أمر فى ممر ضيق بين المكاتب . وسألنى :

ـاسمع يا ريتشارد أريد أن أسألك أمراً . . .

ـ نعم يا سيدى .

وتقدم الثانى الذى يدعى رينولدز ، وكنت واقفاً وظهرى إلى الحائط ، وسد الطريق أمام هروبى . وتوقعت ما سيحدث ، وأخذت أنقل نظرى بين الاثنين وواصل (بيس) وكان هذا اسم الآخر كلامه قائلا :

ـ إن رينولدز يقول إنك أشرت إلىّ باسم (بيس) فقط . . . !

وجمدت فى مكانى. وأدركت أن هذه هى النهاية . فقد كان يعنى أنى لم أشر إليه (بمستر بيس) . ونظرت إلى رينولدز ووجدته يحمل قضيباً من الصلب فى يده ، وفتحت فمى لأتكلم ، لأحمى نفسى ، لأؤكد له أنى لم أفعل ما يتهمنى به ، ولم يخطر على بالى فى يوم من الأيام أن أفعله ، ولكن رينولدز أمسك بى من رقبتى وضرب الحائط برأسى وصاح :

ــ خذ حذرك يا زنجى ، لقد سمعتك بنفسى تشير إليه باسم (بيس) فقط ، وإذا قلت إنك لم تفعل ، فهذا معناه أنى كاذب . . . !

ولوح بالقضيب أمام عينى مهدداً .

إذن لو اعترفت أنى فعلت ما يتهمونى به ، فمعنى هذا أنى ارتكبت أكبر جريمة يستطيع أن يقترفها الزنجى فى حق الأبيض ، وإذا أنكرت فمعنى هذا أنى أصف (رينولدز) بالكذب . وأخذت أفكر فى طريق حيادى ينهى هذا الكابوس . ولكن الكلمات لم تخرج من فمى . وقال (بيس) :

ــ لقد وجهت إليك سؤالاً يا ريتشارد . . .

ــ لا أذكر أنى أشرت إليك باسم (بيس) يا مستر بيس ، ولو كنت فعلت هذا فلا بد أنه خطأ غير مقصود . . .

وبصق فى وجهى وأخذ يصفعنى حتى وقعت على أحد المكاتب ، وهو يصيح أيها الزنجى الحقير ، إذن لقد اشرت إلىّ بهذا الاسم المجرد . . .

ووقف الثانى يهدد :

ــ إذا أنكرت فسأقتلك ، لا يمكن أن تتهم رجلاً أبيض بالكذب ، وتوسلت إليهما أن يكفا عن ضربى . وأدركت أن كل ما يريدانه منى هو أن أترك العمل ، ووعدتهما بأنى سأتركه . . .

ومنحانى دقيقة لمغادرة المصنع ، وهددانى بالقتل إذا حضرت إليه ثانية ، أو إذا أبلغت مستر (كرين) بما حدث . وجريت خارجاً ، ولم أر مستر (كرين) ولا الفتاة فى طريقى ، ويبدو أن الرجلين اختارا وقتاً مناسباً ووقفت فى الشارع أنتظر كرين . ورأيت (جريجز) ينظف النوافذ والأرفف فى محل المجوهرات . ولوحت له بيدى . وأسرع إلى وقصصت عليه ما حدث وسألنى :

ــ ولماذا تقف هنا كالأبله ، ألن تتعلم أبداً ، اذهب إلى منزلك فقد يلاحقانك . . .

وسرت فى شارع كابيتول ، وأنا أحس أن كل ما حولى ليس حقيقة ، وأن الناس أمامى ليسوا سوى أشباح . وزاد ألمى ، وشعرت أنى قد طردت من الجنس البشرى . ولما وصلت إلى المنزل لم أقص على عائلتى ما حدث ، وكل ما قلته أنى تركت العمل لأن النقود لا تكفينى ، وأنى سأبحث عن عمل آخر . وفى المساء أتى (جريجز) لزيارتى . وخرجنا للنزهة . وقال لى :

ــ إنك عنيد بلا شك .

ــ هل تزعم أنى أنا المخطئ فيما حدث . . . ؟

وهز رأسه ، وسألته بمرارة :

ـ ما الذى حدث لفلسفة الخنوع التى كنت تنادى بها ؟

ـ إن مثل هذه الأشياء كثيراً ما تحدث .

ـ إن لى نقوداً عندهم . . .

ـ هذا ما أردت أن أكلمك عنه ، إن مستر (كرين) يريدك أن تذهب إلى هناك فى العاشرة صباحًا ، وسيكون هو هناك ، فلن يتمكن الآخران من مضايقتك . . .

وفى اليوم التالى تسللت إلى مكتب (كرين) ، ووجدته جالسًا ، أما الاثنان الآخران فكانا فى المصنع . ووقفت قبالته ، ونظر إلى وهز رأسه وقال :

ـ قص على ما حدث . . .

وأردت أن أتكلم . ولكنى أدركت أن هذا سيكون معناه خطيراً على ، واغرورقت عيناى بالدموع وقال كرين :

ـ اضبط عواطفك وتماسك . . .

وأخيراً أفلحت فى أن أنطق :

ـ لقد حاولت جهدى أن أفعل أفضل ما أستطيع . . .

ـ إنى أصدقك ، ولكن قل لى ما حدث ، من منهما ضايقك ؟

ـ الاثنان .

وجاء (رينولدز) جرياً إلى الباب فوقفت . . . وصاح فيه كرين ، بعد أن قفز واقفاً :

ـ عد حيث كنت . . . !

وصاح رينولدز :

ـ إن هذا الزنجى يكذب ، سأقتله لو واصل الكذب علىّ . . .

وصاح فيه كرين :

ـ عد من حيث أتيت أو اخرج من هنا نهائياً . . . !

وتراجع رينولدز وهو يرشقنى بنظراته ، وقال كرين :

ـ استمر وقص على ما حدث . . .

ولم أستطع الكلام . ماذا يفيد الكلام ؟ ماذا سأجنى منه ؟ إننى أسود أعيش فى الجنوب . ولن أتعلم أبداً هذه المهنة طالما أن هذين الرجلين الأبيضين موجودان هنا . واشتد غضبى وخوفى وأطرقت برأسى ممسكاً به بين يدى . وقال مستر (كرين) :

ـ تمالك نفسك مهما حدث .

وتطلعت إلى وجهى (بيس ورينولدز) الأبيضين وتخيلت تهديدهما لى بالقتل ، وتذكرت ما حدث لشقيق صديقى (نيد) . . . وسألنى كرين :

ـ هل تريد الاستمرار فى العمل هنا ؟

ـ كلا يا سيدى . . .

ـ لماذا ؟

ـ لأنى خائف ، سيقتلانى . . .

ونادى مستر كرين كلاًّ من بيس ورينولدز وسألنى :

ـ من منهما ضايقك ، قل لى ولا تخف ، لن يستطيعا إيذاءك . . .

ونظرت أمامى ولم أرد . وأمر الرجلين أن يذهبا . ونظرت إلى الفتاة التى تكتب على الآلة بعينين متسعتين ، وزاد خجلى ، وتصبب العرق منى ، وأخذت أتنفس بصعوبة ، وأحاول جاهداً ضبط عواطفى ، وسألت كرين :

ـ هل أستطيع أن أحصل على نقودى يا سيدى .

ـ اجلس برهة وتمالك نفسك . . .

ولما بدأت أهدأ شيئًا ما استطرد يقول :

ـ أنا فى شدة الأسف لكل ما حدث . . .

فأجبته بقولى :

ـ لقد كنت أضع آمالاً عريضة على هذا العمل ، كنت أريد أن أواصل دراستى . . .

ـ أعرف ذلك ، وماذا ستفعل الآن ؟

ـ سأرحل . . .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ سأرحل عن الجنوب . . . !

ـ لعل هذا أوفق . أنا من (إلينوى) ، وأجد المعيشة هنا صعبة . . . حتى لى أنا . . .

وسلمنى نقودى ، ووجدت أنها أكثر من أجرى لأسبوع ، وشكرته ، ووقفت لأخرج . ووقف هو أيضًا . وسرت إلى الصالة وتبعنى . ومد يده مصافحًا وقال :

ـ إن الحياة شاقة عليك هنا .

ومددت يدى إليه . وأسرعت خارجًا أغالب دموعى . ووقفت أنظر إلى المصنع ورأيته واقفًا على السلم ، يلوح بيده ويهز رأسه . وسرت فى شمس النهار دون أن أرى ما أمامى كما لو كنت أعمى . . .

الفصل العاشر

ومرت أسابيع بعد هذا الحادث . وأنا لا أكاد أصدق ما ينتابنى من شعور ، لقد تخدرت شخصيتى ، وأصبحت لا أحس بوجودى ، لا أحس أننى مخلوق بشرى . ومرت الأيام ولم أعد أشعر بكراهية تجاه الرجلين ، فقد أيقنت أنهما جزء من عنصر ضخم وحشى ، لن تجدى الكراهية تجاهه فتيلا . كل ما كنت أشعر به هو الرغبة فى الهجوم ، ولكن كيف ؟ لم أجد الطريقة ، وزاد شعورى بالانعزال . . .

وكنت أنام متعبًا وأستيقظ متعبًا . برغم أنى لم أكن أقوم بعمل ما . ورفضت أن أحادث أحداً فى شئونى ، لأننى كنت واثقًا أنى لن أسمع إلا تبريرات لتصرف البيض ، وما كنت أريد أن أسمعها . واستمرت حياتى وجرحى لا يندمل ، وأحاول أنا أن أبتعد عما يزيد من ألمه .

ولكن العمل كان ضروريًّا حتى أستطيع أن آكل . وعثرت على عمل فى أحد مخازن الأدوية . وفى الليلة التى سبقت ذهابى إلى العمل أخذت أصارع نفسى ، وأقول لها إن حياتى تعتمد على كبح جماح عواطفى . إن السود الآخرين يعملون ، إذن فلا بد ، لابد أن أعمل أنا الآخر وأحصل على المال الذى سيساعدنى على الرحيل . لا بد أن أنجح فى هذا .

وذهبت إلى عملى وأنا مصمم على مراقبة كل خطواتى وسكناتى .

وأخذت أنظف المكان . وأنا أحاول أن أبتعد عن طريق البيض جهد طاقتى ، وعند الظهيرة امتلأ المحل ، وصاح الرجل الواقف عند مكان الأكل .

— أحضر دورقًا من الكوكاكولا يا ولد . . . !

وحملقت فيه وحملق هو فى وصاح :

— ماذا بك ؟

— لا شىء .

— إذن تحرك ولا تقف هكذا كالأبله . . .

وحتى لو حاولت أن أشرح له لما استطعت فقد راحت قوتى كلها بسبب ترقبى للعنف ، والخوف منه . وراحت جهودى فى سبيل أن أضبط عواطفى . . . ولم يعد يبقى لى منها شىء . وأخذ الرجل يصيح فىّ مما زاد حالتى سوءاً . . .

وفى يوم من الأيام سقط منى دورق ملىء بعصير البرتقال . وثار الرجل . وانتظرت أن يصفعنى ووقفت على استعداد للدفاع عن نفسى ، ولكنه قال :

— سأخصم ثمنه من مرتبك .

إذن لن يضربنى . وقلت :

— حسنًا يا سيدى ، إنها غلطتى . . .

ويبدو أن لهجتى زادت من غضبه فقد زاد صياحه :

— بالطبع غلطتك .

وتمتمت وأنا أعرف أن ما أقوله لا يليق . . .

ـ إنى جديد فى هذا العمل .

ـ إننا نجربك فقط .

ـ نعم يا سيدى ، أنا أعرف ذلك . . .

وزاد غضبه . لماذا لا أتعلم أن أسكت ؟ إن كلماتى لا تحمل أى معنى سيئ ، ولكن يبدو أنها تعنى أننى أحس بوجودى وكيانى ، وهذا هو ما يغضب الرجل الأبيض .

وفى يوم السبت أعطانى الرجل أجرى وقال :

ـ لا تعد إلى هنا . لن تصلح لهذا العمل . . .

لقد وضعت يدى على موطن الخطأ فى تصرفاتى ولكنى لم أستطع إصلاحه ، لقد كانت كلمات البيض وحركاتهم تثيرنى . كنت أعيش بين أناس مثقفين ولكنهم غير متحضرين ، وكنت لا أستطيع أن أفهم كيف تعمل هذه الثقافة إلا بأن أجاريها . ولكنى كنت أسىء فهم حركات البيض وكلماتهم ، وهذا جعلنى أقول الخطأ وأفعل الخطأ . كان يجب على أن أقبل تصرفاتهم ولا أحاول تحليلها أو حتى فهمها . وكان يجب على أن أفهم كيف يشعر البيض . . .

ويبدو أن فهمى لدنيا البيض جاء متأخراً . ولم أعد أستطيع أن أجعل الخنوع رائدى . كان لزاماً على أن أحس بكل صورة للاضطهاد العنصرى تحت ضوء المشكلة العنصرية برمتها . وإذا وقفت أمام رجل أبيض كان

ينبغى على أن أرتب كل تصرف من تصرفاتى وأنمق كل كلمة من كلماتى . لم أكن أستطيع أن أبتسم أو أكشر ، وفى الماضى كنت كثير الكلام ، أما الآن فقد استعصى الكلام على . لم يعد فى مقدورى التجاوب كما تتوقع منى الدنيا التى أعيش فيها ، فالدنيا تبدو لعينى غريبة . وغير مستقرة .

وبقيت عاطلاً مدة أسابيع ، وأوشك الصيف أن ينتهى ، . وضاع أملى فى أن أواصل الدراسة . وحل الخريف وعاد كثير من زملائى إلى المدرسة ، وخلت بذلك أعمال كثيرة . وسمعت أن أحد الفنادق بحاجة إلى موظفين وهو الفندق الذى قتل فيه شقيق نيد . وسألت نفسى : هل أتقدم للوظيفة ؟ وهل ستكون هذه خطوة أنزلق منها إلى مرتى . . . ؟ وكان لزاماً على أن أحصل على نقود . وتقدمت وحصلت على وظيفة خادم بالفندق . وكان عملى هو كنس ومسح البهو والمكاتب . أذهب إلى الفندق مساء كل يوم فى العاشرة وأبدأ فى عملى . وأسعدنى أن جميع زملائى كانوا من الزنوج ، فسأستطيع على الأقل أن أحادثهم ، وأضحك وألهو معهم .

وأخذت أعجب كيف ينفذ الزنوج أوامر البيض بدقة ، وكيف أنه لم يبد عليهم أنهم يدركون أنهم يعيشون حياة منعزلة موصومة . ولا بد أنه قد نشأت عندهم فى طور من أطوار نموهم حاسة تساعدهم على إغلاق أذهانهم وكبت عواطفهم عن كل ما يحرمه الجنس الأبيض . وبرغم أن هؤلاء الزنوج يعيشون فى أمريكا التى يقال عنها نظرياً إنها ميدان الفرص الممنوحة للجميع ، إلا أنهم كانوا يعرفون تماماً حدودهم . ولو أن ولداً

زنجياً أعلن فى يوم من الأيام أنه يريد أن يصبح كاتباً أو مؤلفاً لنظر الناس إليه نظرتهم إلى مجنون ، وهؤلاء الناس سيكون أغلبهم من أقرانه الزنوج ، ولو عبر أحد الزنوج عن أمله فى أن يحصل على وظيفة فى بورصة الأوراق المالية بنيويورك ، لقام أقرانه من الزنوج بالإبلاغ عنه إلى البيض ، ظناً منهم أنهم يفعلون ما فى صالحه !

وكان بين زملائى واحد شاحب اللون مصاب بأحد الأمراض الخبيثة ولكنه كان فخوراً بمرضه هذا . . . وسألنى مرة :

ـ هل سبق أن أصبت بمرض كمرضى ؟

ـ يا إلهى ! كلا ، لماذا تسأل ؟

ـ أردت أن أستعلم منك عن طريقة للشفاء .

ـ ألم تذهب إلى الطبيب ؟

ـ إن هؤلاء الأطباء لا خير فيهم . . .

ـ لا تكن غبياً . . .

ـ إنك تتكلم كما لو كان المرض أمراً تخجل منه !

ـ إنه ليس أمراً أزهو به على أية حال . . .

ـ إنه ليس أخطر من إصابة بالبرد . . . !

وبعد الانتهاء من عملى كنت أقف لأتفرج على الألعاب التى تدور بين الأولاد ، ولكنى لم أشترك فيها أبداً ، فقد كنت لا أحب القمار بأنواعه . ولم أتصور أنى أحتمل أية مصائب أخرى ومخاطر أكثر مما فى الحياة التى

أعيشها . وكان الأولاد يتكلمون كثيراً عن النساء والقمار والخمر ، وهم يدخنون السيجارة تلو السيجارة وكنت أنصت لما يقولون ساعات طويلة وأنا أعجب من مقدرتهم على الضحك . . .

وكان بالفندق عدد من الفتيات الزنجيات يعملن خادمات ، وتعرفت على بعضهن ،وفى إحدى الليالى وكنت أستعد للذهاب إلى منزلى رأيت فتاة تسكن فى نفس الحى الذى أسكن فيه، وسرت معها ، ولما مررنا بحارس الفندق الأبيض داعبها بأن ضربها على ظهرها . واستدرت مذهولاً ، ولكنها لم تبد شيئًا من الغضب بل مرت بخلاعة من أمامه . ونظر إلىّ الحارس وقال :

ــ مالك أيها الزنجى ؟ ألا يعجبك مسلكى ؟ !

ووقفت لا أتحرك ولم تبدر منى كلمة واحدة . ولا بد أن تصرفى هذا بدا تحديًا له ،فقد أمسك بندقيته وقال :

ــ ألا يعجبك سلوكى أيها الزنجى .

ــ كلا يا سيدى !

ــ إذن أغرب عن وجهى . . .

وسرت وأنا أشعر بالبندقية مصوبة إلى ظهرى . ولما خرجت وجدت الفتاة تنتظرنى وصحت فيها :

ــ كيف تسمحين له بذلك . . ؟ !

ــ الجميع يفعلون ذلك . . .

ـ أردت أن أفعل شيئًا . . . !

ـ لا تكن غبيًّا أحمق . . . !

ـ ولكن كيف تقبلين أن يعاملك بهذه الطريقة ؟

ـ إنهم لا يتعدون هذه الحدود معنا ، ما دمنا لا نبدى رغبة ما . . .

ـ إذن لا بد أنى تصرفت تصرف الأغبياء . . . !

ولم يبد عليها أنها فهمت ما أعنى .

وكنت خائفًا من العودة إلى عملى فى الليلة التالية ، ما الذى سيفعله الحارس ؟

هل سيلقننى درسًا ؟ وسرت ببطء نحو الباب ، أنتظر أن أراه أمامى، ورأيته ونظر إلى نظرة ثاقبة ، ويبدو أنه اعتبر المسألة منتهية فلم يبد أية حركة ، أو لعله نسى الموضوع برمته .

وبدأت أقتصد بضعة دولارات تساعدنى على الرحيل ، ولكنى وجدت أن عملية التوفير بطيئة .

وأخذت أفكر فى وسائل أخرى للحصول على مال . ولم يتفتق ذهنى إلا عن طرق مخالفة للقانون . وقلت لنفسى : كلا ، يجب ألا ألجأ إلى مثل هذا ، فالسجن فى الجنوب معناه النهاية ، وهناك احتمال القتل أيضًا .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تدور فى ذهنى مثل هذه الأفكار ، فقد ظننت أن باستطاعتى مواجهة كل المواقف بذكائى وعملى . ولم يسبق لى أن سرقت سنتًا واحداً من أحد ؛ ولم يقدر الجوع نفسه أن يحملنى على أن

أفعل ذلك . وهذه الأمانة لم يكن الدافع إليها دافعاً واعياً ،وكل ما فى الأمر ، ببساطة ، أننى لم أفكر فى السرقة من قبل . . .

وبرغم أن الجميع من حولى كانوا يسرقون ، وكثيراً ما كانوا يلقبوننى بالمغفل لأنى لا أسرق ، إلا أنى لم أحد عن طريق الصواب أبداً. وكثيراً ما كان زملائى يسألوننى .

— وكيف بحق السماء تريد أن تتقدم فى الحياة .

وكنت أعرف أن زملائى فى الفندق يسرقون كل ما تقع عليه أيديهم. وكنت أعلم أن صديقى (جريجز) الذى يعمل فى محل المجوهرات يسرق كلما سنحت له الفرصة . وأعرف أن أحد جيرانى يسرق أكياساً كاملة من القمح من الشونة التى يعمل بها ، برغم أنه كان يعمل قسيساً فى الكنيسة ، وكان يصلى ويرتل فى أيام الآحاد . وأعلم أن الفتيات الزنجيات اللاتى يعملن خادمات فى بيوت البيض يسرقن الأكل يومياً . وأعرف تماماً أن العلاقة بين الأبيض والأسود تقوم على هذه السرقة الدائمة .

ولم يخطر على بال زنجى واحد أن يطالب ، أو أن ينظم جماعة تطالب برفع الأجور . مجرد الفكرة كانت تخيفهم ، وكانوا يعلمون تماماً أن البيض سيردون على هذه المطالبة بأقسى وأعنف انتقام . ولذا فقد أخذ الزنوج يرهمون البيض أنهم لا يحتجون على آرائهم ولا على قوانينهم وواصلوا الابتسام والخنوع ، فى حين لم تدع أصابعهم شيئاً يفلت من ، بينها ويبدو أن البيض كانوا مسرورين لهذه الحال .

أما أنا ، الذى رفض السرقة ، وأراد أن يواجه الرجل الأبيض ويتصرف كرجل عادى ، فقد كنت أخيفهم . فالأبيض الجنوبى يفضل الزنجى اللص الذى يخضع له على الزنجى الذى يحس — مهما كان هذا الإحساس تافهاً — ببشريته وآدميته . ولذا فقد كان البيض يشجعون السرقة وعدم المسئولية ، وكانوا يكافئون الزنجى الذى يشبع غرورهم ويشعرهم أنهم قوم ممتازون وفى أمان .

وكان اعتراضى على السرقة لا يمت إلى الأخلاق بصلة ، وكنت لا أوافق عليها لأننى أعلم أنها لن تفيد على المدى الطويل ، وأنها ليست السبيل لتغيير البيئة ولا المحيط الذى نعيش فيه . إذن ماهى الوسيلة لأغير علاقتى بهذا المجتمع ؟ كنت أنقق معظم مرتبى على الأفواه الجائعة بالمنزل وأقبض دولاراً واحداً فى الأسبوع . وهذا يعنى أنى سأقتصد مائة دولار فى عامين . وهذا هو المبلغ الذى قدرت أنه سيمكننى من الرحيل . ولكن ، الله وحده يعلم ، فإن أى شىء قد يحدث لى خلال عامين .

وكان يكفى أن تبدر منى كلمة أو حركة تسىء إلى الرجل الأبيض دون ما أقصد حتى أجد نفسى فى مشكلة ، وكنت أريد تجنب المشاكل ، ولا أريد أن أخطئ مع الرجل الأبيض حتى لا تكون فى ذلك نهايتى . ولم يكن الوقت إلى جانبى ، ولكن لا بد لى من أن أقوم بحركة ما . وكثيراً ما تمنيت لو أنى كنت مثل زملائى الكسالى الذين لا يعانون من أى صراع نفسى . فقد ناء ظهرى بحمل إحساساتى ، وفكرت طويلا فى أن أتخلى عنها

بالعمل أو بالخضوع . ولكن طبيعتى كانت لا تتفق والخضوع ، ولم يكن مجال العمل أمامى متسعاً .

وأوجدت رغبتى فى الرحيل السريع قلقاً جديداً فى أعماقى ، وخاصة بعدما اختلطت بالرجال البيض المتكبرين المتعالين الذين وضعوا القوانين ، ورأيت كيف يتصرفون ، وكيف ينظرون إلى الرجل الأسود ، وكيف ينظرون إلى أنا . ولم أعد أشعر بأن هذه القوانين تربطنى أنا ، لقد كنت خارج نطاقها ، وهذا ما قاله لى الرجل الأبيض نفسه ، ولم تعد السرقة فى عينى غير ممكنة ، ولكن هذا الشعور بالتحرر من قيود القانون زاد من خوفى وتعاستى وإحساسى بالوحدة .

وأصبحت إحساساتى منقسمة على نفسها . ورغماً عنى كنت أحلم بدولاب مغلق به بندقية فى منزل أحد جيرانى ، وإذا سرقتها فبكم أبيعها ؟ وعندما ألحت علىّ رغبتى فى الرحيل فكرت طويلا فى مخزن بمدرسة زنجية قريبة منى يحوى مئات من علب الفاكهة . . . ومنعنى الخوف . ووجدت أن فشلى فى أن أندمج فى العالم الأبيض من حولى قد قضى تماماً على جزء من شخصيتى ، وأفلح فى تكسير الحواجز التى كانت تقف حائلا بينى وبين الجريمة . ولم يعد يقف أمامى الآن سوى الفرصة السانحة والظروف المؤاتية ، وقد أتت .

وحدث أن الفندق رقانى إلى رتبة حارس الجرس الذى يرد على النزلاء ، وهذا يعنى زيادة ضئيلة فى المرتب . ولكن بعد قليل علمت أن أكثر النقود

التى يحصل عليها الزنوج تأتى من تهريب الخمور إلى بنات الليل من البيض اللاتى يقمن بالفندق . ووجدت أن السعاة الآخرين يفعلون ذلك، ووقعت فى الخطيئة . وتعلمت كيف أسير أمام رجل الشرطة الأبيض أحمل خموراً مهربة ولا يبدو على الاهتمام ، بل أغنى وأصفر والبراءة تشع من عينى . وحصلت على الدولارات ولكن ببطء . ما السبيل إلى الإثراء إذن قبل أن يقبض علىّ ويزج بى فى السجن ؟ وإذا كان لا بد من خرق القانون فليكن للحصول على شىء كبير . وأخذت أرقب الحوادث وأنتظر والفكرة تراودنى . . .

واعتدت منظر الفتيات البيض وهن راقدات دون ملابس على أسرتهن . واعتدت مشاهدة حياة الفساد . وكانت الفتيات لا ينظرن إلى الأولاد الزنوج على أنهم رجال ، ولا على أننا بشر . وكنت كثيراً ما أسترق النظر إليهن إذا كن وحدهن ، أما إذا كان معهن رجال فكنت لا أجرؤ .

وأقامت فى الطابق الذى كنت أعمل فيه واحدة منهن ، كانت شقراء ، ضخمة طويلة . وفى ليلة من الليالى دق جرس غرفتها وذهبت إليها ، ووجدتها فى الفراش ومعها رجل أضخم منها ، وكان الاثنان عاريين ولا غطاء عليهما . وطلبت هى بعض الخمور ، ونزلت من الفراش لتحضر النقود من حقيبتها . ووجدت نفسى أتطلع إليها دون أن أشعر . . . وصاح فى الرجل :

– ماذا تفعل أيها الزنجى ؟

ونظرت إلى الحائط وقلت :

– لاشىء ياسيدى . . . .

– عليك أن تنظر إلى الأرض إذا أردت الحياة !

– نعم يا سيدى . . .

وكنت أنوى الاستمرار فى العمل بالفندق لولا ما حدث ، ففى إحدى الأمسيات همس فى أذنى زميل لى قائلا : إن دار السينما الخاصة بالزنوج أعلنت عن وظيفة خالية ، وسألنى :

– ألم يسبق لك أن دخلت السجن ؟

– كلا . . .

– إذن تستطيع أن تحصل على هذه الوظيفة ، ولولا أنى سجنت ستة أشهر لأخذتها أنا . . .

– ولكن ما قيمة هذه الوظيفة ؟

– إن الفتاة التى تبيع التذاكر تستعمل طريقة خاصة ، وإذا حصلت على هذه الوظيفة فستكسب مبالغ لا بأس بها . . .

إذن لو سرقت فسأستطيع السفر إلى الشمال بسرعة ، أما إذا احتفظت بأمانتى ، أو تهاونت فيها تهاونًا طفيفًا بالاتجار فى الخمور الممنوعة ، فسيطول بقائى فى الجنوب ، ولكنى فى الوقت ذاته سأزيد من فرصة القبض علىّ . ولذا فقد كان الخوض فى الجريمة مغريًا لى وقررت أن أعمل بسرعة ،

لأجمع ما يلزمنى من المال وأهرب . وكنت أعلم أن كثيرين غيرى قد جربوا هذه الطريقة ولكنهم لم يفلحوا ، ولكن أملى فى النجاح كان كبيراً .

وكانت فرصتى للحصول على هذه الوظيفة لا بأس بها ، فلم تكن لى سوابق فى السرقة ، أو مخالفة القوانين ، وعندما وقفت أمام صاحب السينما وكان يهودياً قبلنى على الفور . وفى اليوم التالى حضرت لأتسلم عملى . وحذرنى الرجل بقوله :

ــ اسمع ، سأكون صريحاً معك إذا كنت أنت صريحاً معى ، فأنا لا أميز بين الأمين واللص فى هذا المكان ، إذا كنت أنت أميناً فلا بد أن يبقى الآخرون أمناء أيضاً ، لأن جميع التذاكر ستمر بين يديك ، ولن تحدث سرقة ما لم تسرق أنت .

ووعدته بالأمانة ، دون أن أشعر بأى وخز للضمير ، فقد كان من البيض ، ولا يمكن مهما حاولت أن أرد إليه ما فعله هو أو أقرانه لى ، ولذا فقد قلت لنفسى إن السرقة ليست مخالفة لقوانينى الخلقية ، ولكن لقوانينه هو ، وكنت أشعر أن القانون قد سن لصالحه هو ، ولذا فقد وجدت مبرراً لكل ما أقدم عليه أنا للوقوف فى طريق تنفيذ هذا القانون . وبرغم كل هذه التحاليلات المنطقية فلم أتمكن من إقناع نفسى .

وفى اليوم الأول أخذت بائعة التذاكر الزنجية ترقبنى عن كثب ، وأدركت أنها تدرسنى وتقيمنى لتقرر متى تضمنى إلى عملياتها وهى آمنة ، ولكننى

انتظرت حتى تقوم هى بالخطوة الأولى . . .

وكان المفروض أن أتناول التذكرة من الزبون وأسقطها فى صندوق معدنى، وكان صاحب السينما يذهب إلى الشباك بين الحين والآخر ليرى الأرقام المسلسلة على ورقة البيع، ويقارن بينها وبين أرقام التذاكر التى لم يتم بيعها ، وبين رقم آخر تذكرة أسقطتها أنا فى الصندوق . وظل على رقابته هذه بضعة أيام ثم توقف عنها وأصبح يتغيب عن دار السينما لفترات طويلة .

وكنت أشعر بقلق لا يقل عن قلقى أثناء عملى فى محل النظارات الطبية . ولكنى تعلمت التغلب على هذا القلق ، وتمكنت من إخفائه ، ولو لم أفلح فى هذا لكانت فكرة السرقة وحدها كافية لأن تفضح نوايای . ولكن شعورى بأنى مطرود عاطفيًّا من هذا العالم جعلتنى أعيش فى جانب الذين اعتادوا أن يرقبوا وينتظروا .

وفى إحدى الليالى بينما كنت أتناول عشائى فى مقهى مجاور للسينما ، دخل رجل زنجى غريب وجلس بجوارى ، وحيانى قائلا :

— هالو ريتشارد .

— هالو ، من تكون ؟ أنا لا أعرفك . . . !

— ولكن أنا أعرفك .

هل هو أحد جواسيس صاحب السينما يا ترى ؟ وسألته :

— من أين لك أن تعرفنى ؟

ـ أنا صديق « تيل » . . .

وكان هذا هو اسم الفتاة التى تجلس فى شباك التذاكر . . .

ونظرت إليه أحاول سبر أغواره . هل يقول الحقيقة ؟ أم أنه يخدعنى ويضعنى فى فخ لحساب صاحب السينما ؟ وأصبحت أفكر وأشعر كأننى مجرم حقيقى ، لا أثق بأحد على الإطلاق . وقال :

ـ إننا سنبدأ الليلة . . .

ـ نبدأ ماذا ؟

ولم أكن أريد أن أشعره أننى أفهم ما يقوله برغم أنى كنت أعلم تماماً ما يعنى ، وقال :

ـ لا تخف . إن صاحب السينما يثق فيك ثقة عمياء . والليلة سيذهب لمقابلة بعض أصدقائه وسيراقبه واحد منا ، وإذا قرر الرجوع إلى السينما فسيبلغنا تليفونياً . . .

ووقفت اللقمة فى حلقى ولم أستطع الاستمرار فى عشائى وتصبب العرق منى واستمر هو يشرح خطته بصوت منخفض :

ـ إن العملية ستسير كالآتى . سيأتى إليك شخص ويسألك عود ثقاب وستعطيه أنت خمس تذاكر من التى أسقطتها فى الصندوق ، فاهم ؟

وسنعطيك نحن الإشارة متى تبدأ فى عدم الإسقاط ، وسيعطى هذا الشخص التذاكر " لتيل " وتبيعها هى مره ثانية ، وتتم العملية فى وقت ازدحام الجمهور وإقباله على شراء التذاكر . هل تفهم ؟

ولم أرد . كنت أعلم أنه لو اكتشف أمرى فسيلقى القبض علىّ وأقيد بالسلاسل . ولكن هل حياتى الآن خالية من هذه السلاسل والقيود ؟ ماذا عندى أخاف أن أخسره ! ! وسألنى الرجل :

— هل أنت معنا ؟

ولم أرد ثانية ، فقام وربت على كتفى ثم غادر المقهى . وسرت إلى السينما وأنا أرتجف . . . ماذا سيحدث الآن ؟ لم أعد أهتم ! ألم يهاجمنى البيض فى الشارع ؟ ألم يضربونى فى محل النظارات ؟ ألم يحاول حارس الفندق إطلاق الرصاص على دون سبب ؟ ألم أحس بهذا الشعور المرعب ملايين المرات ؟

وتناولت التذاكر وانتظرت . . . لقد كنت أقامر بنفسى ، وبحريتى مقابل السلاسل . . . وكادت أنفاسى تتوقف . . . ونظرت حولى فلم أر صاحب السينما . هل هى خدعة ؟ إذا كانت خدعة فسأجلب العار على عائلتى ، وسيقول الجميع إن سلوكى كان ينبئ بهذه النهاية المخزية . . . !

ودخل الرجل الذى قابلنى فى المقهى ودس تذكرة فى يدى وهمس :

— إن الزحام شديد عند الشباك ، فاحتفظ بعشر تذاكر بدلاً من خمس . وابدأ بهذه . . .

لقد بدأ العمل إذن . وأمسكت بالتذكرة والخوف يملأ نفسى ؛ لقد اعتدت هذا أيضًا . وأخذت أحس أن الجريمة معناها الألم . ودخلت الجماهير واحتفظت بعشر تذاكر . ولما بدأت الجماهير تنحسر

عن الشباك تقدم منى شاب زنجى وفى فمه سيجارة وقال :

— هل عندك ثقاب ؟

وبحركة بطيئة أعطيته التذاكر ، وذهب إلى الشباك ورأيته وهو يعطى الفتاة التذاكر ، ونظرت هى إلىّ وابتسمت . وبعد قليل سلمنى الزبائن نفس التذاكر التى أعطيتها للشاب .

واستمرت العملية لمدة أسبوع . واقتسمنا المبالغ وبلغت حصتى خمسين دولاراً وأصبحت الحرية قاب قوسين أو أدنى منى . هل أستمر وأخاطر . وأسررت بهذا إلى الفتاة وأصدقائها وكان غضبهم شديداً ، ولذا فقد وافقت على البقاء خوفاً من أن ينتقموا منى . إنى أتعامل مع أناس يحسون أنهم مقيدون وأصبحت أشعر أننى مقيد أيضًا .

وواصلت العملية أسبوعًا آخر . وفى إحدى الليالى قررت أن أتوقف ، وعادت إلى ذاكرتى صورة البندقية الموجودة فى منزل جارنا ، وصور علب الفاكهة المحفوظة فى الكلية . إذا سرقتها وبعتها فستساعدنى على البقاء فى (ممفيس) حتى أحصل على عمل وأقتصد ثم أتجه شمالا . وتسللت من سريرى فى الليل ونظرت إلى منزل جارنا ، ونظرت حولى وكان الهدوء يخيم على الحى . ودق قلبى وأنا أحاول كسر النافذة . ودخلت وأخذت البندقية . وفى الصباح قمت برهنها تحت اسم مستعار .

وفى الليلة التالية جمعت اثنين من أصدقائى ، ودخلنا مخزن الكلية وسرقنا علب الفاكهة وقمنا ببيعها للمطاعم . . .

واشتريت ملابس وأحذية وحقيبة للسفر وخبأتها كلها فى المنزل ، وفى يوم السبت بعثت إلى صاحب السينما من يقول له إننى مريض . وكان خالى (توم) بالمنزل ، أما جدتى وخالتى فكانتا فى الكنيسة . وكان أخى نائمًا وأمى تجلس فى الكرسى الهزاز تغنى لنفسها . وجمعت ملابسى فى الحقيبة وذهبت إلى أمى وهمست فى أذنها :

— إنى راحل يا أمى . . .

— كلا ، كلا .

— لا بد أن أرحل . لا أستطيع الاستمرار هكذا .

— إنك لا تهرب لأنك ارتكبت أمراً ما . . . !

— سأبعث إليك يا أمى بأنبائى ، لا تقلقى .

— اعتنى بنفسك . ولابعث إلى لألحق بك بسرعة فأنا لست سعيدة هنا .

— أنا آسف على كل ما تحملته طوال هذه السنين يا أمى ولكنى لم أستطع أن أفعل شيئًا .

وقبلتها . . . وبكت هى . . .

وخرجت من الباب الخلفى وسرت إلى المحطة ، وانهمر المطر ، ولما وصلت إلى المحطة كانت ملابسى مبتلة تمامًا . واشتريت التذكرة وتوجهت إلى ناحية الشارع الذى تقع فيه دار السينما . ورأيت صاحب السينما يفتش على الشباك . وعدت إلى المحطة أنتظر القطار .

وبعد ساعة كنت أجلس فى العربة الخاصة بالزنوج وأتجه شمالا ، إلى بلاد قد أستطيع أن أعيش فيها بلا خوف . وأخذ الحمل الثقيل الذى ينوء به كاهلى يخف إلى حد ما . وأحسست بالدموع ساخنة تجرى على خدى ، وفى هذه اللحظة فهمت تماماً معنى الألم الذى يصاحب الجريمة ، وتمنيت لربى ألا أحس به ثانية. ولم أحس به أبداً بعد ذلك لأننى لم أسرق أبداً ؛ فقد كنت أعلم أنى واحد من هؤلاء الذين يؤمنون بأن لكل جريمة عقاباً . . .

وقلت لنفسى ، إنها حياتى ، وملكى أنا ، وسأفعل بها ما أريد .

الفصل الحادى عشر

وصلت إلى (ممفيس) فى صباح يوم أحد بارد من أيام نوفمبر عام ١٩٢٥ . وحملت حقيبتى وسرت فى شوارعها وشمس الشتاء تدفئنى . ووصلت إلى شارع (بيل) وهو الشارع الذى قالوا لى عنه إنه ملىء بالأخطار ، لأنه وكر النشالين والمحترفات والقتلة وسماسرة الزنوج . وبعد قليل رأيت لوحة عليها كلمة « غرف خالية » وتوقفت قليلا أسائل نفسى هل هذا المنزل به غرف للإيجار أو أنه منزل من المنازل المشبوهة . وكنت سمعت كثيراً عما يحدث للشبان أمثالى الذين ينزحون إلى المدينة ، وأردت أن أتوخى الحذر فى كل ما أقوم به . أخذت أسير أمام المنزل جيئة وذهاباً . وأخيراً قررت أن أدخل . سأبقى به يوماً أو يومين إلى أن أجد منزلا آخر . وكنت أربط نقودى إلى وسطى بحزام ، حتى لا يسرقها أحد منى . . .

وصعدت السلم وكنت على وشك أن أدق الجرس عندما رأيت امرأة نصف زنجية ضخمة الجسم تحملق فى من خلال إحدى النوافذ . حسناً . إنه منزل مشبوه إذن ، وتوقفت وابتسمت المرأة . واستدرت ، ولكنها بعد لحظة ظهرت على الباب ونادتنى . وترددت ، ونادتنى ثانية ، وتوجهت إليها ببطء وطلبت منى الدخول إلى المنزل .

وحملقت فيها ، ثم تبعتها إلى الصالة . وابتسمت المرأة وأخذت تفحصنى من الرأس إلى القدم . وسألت :

ـ لقد شاهدتك وأنت تروح وتجىء أمام المنزل . لماذا ؟

ـ إنى أبحث عن غرفة خالية . . .

ـ ألم تر اللافتة ؟

ـ نعم رأيتها يا سيدتى . . .

ـ ولماذا لم تدخل إذن ؟

ـ إنى غريب هنا .

ـ هذا واضح لى تماماً .

وجلست فى كرسى ، وأخذت تقهقه ضاحكة مما جعل جسمها البدين يهتز ثم قالت :

ـ أنا مسز موسى .

وأخبرتها باسمى ، وقالت بعد هنيهة تفكير جدى . . .

ـ هذا اسم جميل بحق . . .

وعجبت من أمرها ، ووقفت أحمل حقيبتى على أهبة الرحيل ، وقالت هى أخيراً :

ـ إن هذا يا ولد ليس منزلا مشبوهاً ، والناس دائماً يظنون أن أى منزل يقع فى هذا الشارع لا بد أنه سيئ السمعة . إن هذا المنزل ملكى

وأنا أحد أعضاء الكنيسة ، ولى ابنة فى السابعة عشرة من عمرها . اجلس يا بنى إنك فى أمان هنا .

وضحكت وجلست وسألتنى :

– من أى ولاية أنت ؟

– من مدينة جاكسون بولاية ميسيسيبى . . .

– إنك ولد ذكى .

– إن بجاكسون أشخاصًا أذكياء كثيرين . . .

– لم أر أحداً منهم . إن معظمهم لا يستطيع حتى الكلام . . .

وأعجبتنى هذه المرأة وأخذت تثرثر قائلة :

– إن زوجى يعمل فى أحد المخابز . ونحن نؤجر بعض غرف المنزل حتى نستطيع أن نغطى نفقاتنا . إننا قوم بسطاء ، وسترتاح عندنا ، وأجر الغرفة ثلاثة دولارات .

– إن هذا أجر باهظ .

– إذن أعطنى دولارين ونصف دولار حتى تحصل على عمل .

وقبلت وقادتنى هى إلى الغرفة ووضعت حقيبتى بها . وسألتنى :

– هل أنت هارب ؟

ونظرت إليها بدهشة وسألت :

– وكيف عرفت ذلك ؟

– إن قلبك يا بنى كالكتاب المفتوح ، معظم الأولاد يهربون إلى

(ممفيس) من مواطنهم ، اعتقاداً منهم أن الحياة هنا سهلة ميسرة ، ولكنها فى الواقع ليست كذلك . هل تشرب الخمر ؟

ـ كلا يا سيدتى .

ـ أردت أن أعرف فقط . اعتن بنفسك . وتستطيع أن تصحب فتاتك إلى هنا . . . ولكن كن مهذباً . . .

وجلست على السرير ونظرت إليها بذهول . لقد قابلت القلب الحنون والشخص الصديق فى شارع « بيل » الذى يقال إنه أسوأ الشوارع سمعة فى (ممفيس) ، إن البشر إذاً ليسوا أشراراً . وقالت :

ـ تستطيع أن تتناول عشاءك معنا عندما نعود من الكنيسة .

ـ شكراً ويسرنى هذا كثيراً .

ـ هل تريد أن تصحبنا إلى الكنيسة .

وتهربت من الإجابة وقالت هى :

ـ لعلك متعب . . .

وخرجت وأغلقت الباب وراءها .

وتمددت على السرير . وأخذت أتأمل . لقد كنت أخاف من وجودى وحيداً فى مدينة غريبة . ولكنى عثرت على عائلة عطوفة . وهدأت نفسى وغلبنى النعاس . وبعد قليل استيقظت مذعوراً فقد حلمت بما سرقته . ولكن كل هذا أصبح تاريخاً الآن ولن أعود إليه أبداً . سأبدأ من

جديد . لا أريد الخوف ولا القلق ،أريد أن أصبح إنسانًا أشعر بشعور البشر . ولكن على أولا أن أجد عملا .

ونادتنى مسز موسى للعشاء وقدمتنى إلى ابنتها (بيس) وأعجبتنى ، فقد كانت صغيرة بسيطة ومرحة . واعتذرت مسز موسى لغياب زوجها فى العمل . وتساءلت لماذا كل هذا العطف يا ترى . وعندما كنا نأكل طبق الحلوى قالت (بيس) :

— لقد حدثتنى ماما عنك .

— ليس هناك الكثير الذى يقال . . .

— أخبرتنى أنك كنت تروح وتجىء أمام المنزل ، ماذا ظننته . . ؟

وأطرقت برأسى وابتسمت . وضحكت مسز موسى وغادرت الغرفة وقالت (بيس) :

— ماما تقول إنها بمجرد رؤيتها لك فهمت أنك تبحث عن منزل نظيف لتعيش فيه . إنها ماهرة فى فهم الناس . . .

— هذا ما يبدو عليها .

وأخذت أساعد (بيس) فى غسل الأطباق وقالت هى :

— تستطيع أن تتناول وجباتك معنا فى أى وقت .

— أشكرك ولكن لا يصح هذا . . . !

— لماذا ، لدينا الكثير . . .

— أعرف ذلك ولكن يجب أن أشترك فى النفقات .

ـ هذا ما تعتقده ماما .

وعادت مسز موسى وقالت :

ـ إن بيس ستتزوج عما قريب .

ـ تهنئتى ، ومن صاحب السعيد الحظ ؟

ـ لا أحد بعد .

وتعجبت لقولها هذا وضحكت مسز موسى ولكزتنى وقالت :

ـ إنى أعنى أن الفتيات يجب أن يتزوجن وهن صغار ، وإذا عثرت (بيس) على شاب لطيف مثلك يا ريتشارد . . .

وصاحت (بيس) بخجل :

ـ ماما أرجوك . . . !

واستمرت مسز موسى :

ـ نعم ، إن ريتشارد أفضل بكثير من الأولاد الزنوج الجهلة الذين تختلطين معهم . . .

وأخذت أنقل بصرى من الواحدة إلى الأخرى . ما الذى يحدث أمامى ؟ إنهما لا تكادان تعرفانى ، فلم يمض على فى منزلهما أكثر من ساعات معدودة ، وواصلت مسز موسى كلامها :

ـ لقد قلت لنفسى بمجرد أن وقعت عيناى عليه : هذا هو الشاب الذى يصلح (لبيس) .

واندفعت (بيس) نحوى وألقت برأسها على ذراعى . ودهشت .

كيف بحق السماء تتصرف هكذا . . . !

وقالت (بيس) بدلال :

ـ أرجوك يا ماما لا تقولى هذا . . . !

ـ لماذا ؟ أنا أعنى كل كلمة أقولها ، إننى قلقة يا ريتشارد على مستقبل هذا البيت ، فلن أعيش إلى الأبد . . .

وأجبت :

ـ ستجد (بيس) الشخص الذى يحبها ويقدرها . . .

ـ لا ، لست واثقة من هذا . . . !

ودفنت (بيس) وجهها بين يديها وأسرعت خارجة وهى تقول :

ـ لن أبقى هنا .

واقتربت منى مسز موسى وأسرت إلى :

ـ إن الفتيات كالحيوانات ، يجب أن يروضن .

وأجبت وأنا منهمك فى مسح المائدة .

ـ سينصلح حالها .

وسألتنى مسز موسى فجأة :

ـ أتعجبك (بيس) يا ريتشارد ؟

ـ إنى لم أعرفها إلا منذ ساعات ، وهى فتاة طيبة . . .

ـ أعنى هل تعجبك ، هل تحبها ؟

وحملقت فيها وأنا أعجب . . . ماذا بالفتاة ؟ أبها عيب ؟! وقلت :

– وأنتم أيضًا لا تعرفونني ، فقد أكون مجرمًا . . .

– لا يا بني أنا أعرفك جيداً . . .

وفكرت . . . يا إلهي ! يجب أن أغادر هذا المنزل في الحال . . .

وقالت مسز موسى :

– اذهب إليها ، اذهب إلى (بيس) . . .

– اسمعي يا مسز موسى إني لا أملك شيئًا ، أنا مجرد شخص بسيط . . .

– إنك تملك الكثير ، إن النقود لا تهم ، إن لك قلبًا طيبًا وهذا ما لا يتمتع به كثيرون . . .

وأدرت رأسي . . . إن سذاجة هذه المرأة تفوق الحد . . . وأحسست أنها تتهمني بشيء ما ولا تمتدحني . . . واستطردت هي تقول :

– لقد عملت طيلة عشرين عامًا حتى اشتريت هذا المنزل ، وسأموت مرتاحة لو تركت (بيس) مع زوج مثلك . . .

وصاحت (بيس) من الخارج ضاحكة . . .

– اسكتي يا ماما .

وخرجت إلى الصالة وجلست على الأريكة . . . وكانت (بيس) تجلس على مقعد وتنظر من النافذة . كيف أعامل هذه الفتاة . لم أكن أنوي التورط ولا جرح إحساس أحد . . . وقالت (بيس) :

– تعال هنا بجانبي . . .

وجلست بجانبها . وظللنا صامتين وأخيراً قالت هى :

– إنى فى نفس عمرك . فى السابعة عشرة .

– هل تذهبين إلى المدرسة ؟

– نعم ، هل تريد رؤية كتبى ؟

– نعم ، يسرنى هذا . . .

وقامت وأحضرت كتبها . ووجدت أنها فى الصف الخامس وقالت :

– إننى متأخرة بعض الشىء ، ولكن هذا لا يهمنى .

وأجبت بحذر . . .

– إن التعليم هام كما تعلمين .

وأجابت هى بحدة . . .

– الحب أهم . . . !

وعجبت من أمرها . هل بها مس من الجنون . إن تصرف الأم وابنتها لا يتفق والعقل إطلاقاً . ودخلت مسز (موسى) ، وقلت أنا محاولاً الهرب من الموقف :

– سأذهب لأبحث عن عمل . . .

وصاحت مسز موسى :

– اليوم الأحد ، انتظر حتى الصباح . . .

– سأذهب لأتعرف على المدينة .

– فكرة طيبة ، أترين يا (بيس) هذا الفتى له أفكار نيرة . . .

وانتابنى الخجل ولم أجد ما أقوله وقلت :

ـ يسعدنى أن أقوم بمعاونتك فى دروسك يا (بيس) . . .

ـ أصحيح هذا . . . ؟

ـ نعم ، فقد كنت أتولى أمر الفصل فى العام الماضى . . .

وصاحت مسز موسى بلهجة رقيقة :

ـ هذا جميل ، أليس كذلك ؟ !

ودخلت حجرتى ورقدت على السرير محاولاً أن أجد وصفاً للمنزل الذى نزلت فيه . إنهم قوم جادون ، هذا لا شك فيه ، هل سيغضبون منى إذا علموا أن حياتى سارت على نهج يختلف اختلافاً بينا عن نهج حياتهم . وكيف أستطيع أن أتجنب هذه المعرفة ؟ وهل من العقل أن أقيم فى منزل به فتاة فى السابعة عشرة تتوق إلى الزواج ، وبه الأم التى تريد أن تعثر لابنتها على زوج ؟ وماذا بحق السماء يجدون فى حتى يتصرفوا معى بهذه الطريقة ؟ حقاً إن تصرفاتى مهذبة ، تعلمتها من أمى وجدتى ، وتعلمتها فى المدرسة ، وتعلمتها من الحياة . ولكن هناك الكثيرون مثلى . لقد فهمت هذه العائلة فى مدى خمس ساعات فى حين فشلت فى أن أفهم عائلتى فى مدى خمس سنوات .

ولما اعتدت مسلك (بيس) وأمها الريفى فطنت إلى أن حياتى السابقة قد أبعدتنى كثيراً عن الناس ، سواء من البيض أم الزنوج ؛ فمثلا كانت (بيس) وأمها تهتمان جداً بالنقود ، ولكنهما لم تكافحا من أجلها ، لم تعانيا

مثلا من القلق والجوع والخوف ، إن أهم ما له قيمة عندهما بسيط . . . كل ما تريدانه هو الحياة النظيفة السهلة ، ولما وجدتاها فىّ ، أو ظنتا أنهما وجدتاها فىّ ، تمسكتا بى ، وأحبتانى ولم تسألانى عن حياتى . . . هذه الحقيقة أذهلتنى . . . فقد تصورت أنها غير ممكنة . . .

وسرت فى شارع (بيل) ، وسط مدينة ممفيس ، والبرد يلذعنى من خلال معطفى المهلهل . وفى الشارع الرئيسى رأيت لافتة معلقة على باب أحد المقاهى مكتوباً عليها :

« مطلوب ولد لغسيل الصحون » .

ودخلت وتحادثت مع المدير وقد طلب منى أن أحضر للعمل فى الليلة التالية . وعرض على عشرة دولارات للأسبوع الأول تزيد إلى ١٢ دولاراً فى الأسبوع التالى ، مع وجبتين فى اليوم . ودخلت محل بقالة واشتريت المأكولات . وقررت أن أدفع إيجار الغرفة وأقتصد الباقى لأغطى به نفقات سفرى إلى شيكاجو . . . مازال الأمل يراودنى .

وذهلت مسز موسى لما أخبرتها بأننى حصلت على عمل ، وقالت لابنتها :

— لقد حصل على عمل فى أول يوم له هنا ، إنه ولد نشيط . . . !

وابتسمت لى (بيس) ، وصعدت مسز موسى إلى غرفتها ، وجلست أنا مع (بيس) وقالت :

— دعنى أخلع عنك معطفك . . . !

وأخذت المعطف وتحسست بيدها المأكولات وسألتنى :

ـ ماذا به ؟

ـ لا شىء . . . !

وحاولت أن آخذ المعطف منها ، ولكنها أخرجت المأكولات ، وقالت وقد اتسعت عيناها :

ـ إنك جائع يا ريتشارد ، أليس كذلك . . . ؟

ـ كلا . . .

ـ إذن دعنى أقدم لك لحم الدجاج . . .

ـ كلا ، أشكرك . . .

وأسرعت إلى السلم ، ونادت أمها ، وقلتُ :

ـ أرجوك لا تقلقيها .

ونزلت مسز موسى مرتدية ملابس النوم ونظرت إلى المأكولات وقالت :

ـ يجب ألا تفعل مثل هذا . . .

ـ أنا معتاد ذلك ، ويجب أن أقتصد بعض المال . . .

ـ لن أسمح لك بأكل مثل هذه المعلبات وأنت معى فى منزلى ، وما عليك إلا أن تدخل المطبخ ، وتأكل ما تريد ولا تدفع لى نقوداً . . .

ـ لا أريد أن أكون عبئًا على أحد . . .

وحملقت مسز موسى ثم أطرقت برأسها وأخذت تبكى . ودهشت ؛

فلم أتصور أن أى تصرف منى سيدفعها إلى البكاء . وأحسست بالغضب ، وقالت هى :

ـ إن مشكلتك هى أنك لم تستمتع ببيت فى حياتك .

وجمدت فى مكانى ، فلم تعجبنى ملحوظاتها هذه ، فهى تحاول أن تتدخل فى حياتى .

وتمتمت :

ـ إنى سعيد كما أنا . . .

وهزت مسز موسى رأسها ثم صعدت إلى أعلى . وتنهدت ، وأحسست أن عبئًا أزيح من على كاهلى ، وكنت أخشى أن تستمر فى كلامها . وتناولت العشاء مع (بيس) وكان مكونًا من الدجاج. ولكن شهيتى للأكل كانت ضعيفة ، ثم دخلنا الصالة وهناك همست هى قائلة :

ـ أريد أن أتزوج . . .

وأجبتها بضيق :

ـ لا يزال أمامك متسع من الوقت . . .

ـ أريد أن أتزوج الآن ، فأنا بحاجة إلى الحب . . .

ودهشت ، فلم يسبق لى أن قابلت شخصاً مثلها ، شخصاً يعبر عن رغباته بهذه الطريقة المباشرة ، وسألتنى :

ـ هل تفهم معنى ما أقول ؟ !

ونهضت إلى المائدة وتناولت مشطًا ، وتقدمت نحوى :

ونظرت إلى المشط ثم إليها ، وسألت :

– عم تتكلمين .

ولم ترد ، بل ابتسمت واقتربت منى ومدت المشط إلى رأسى ، وتراجعت أنا صائحاً . . .

– ماذا تفعلين ؟

وضحكت . وأخذت تمشط شعرى ونظرت إليها مندهشاً وقلت :

– ولكن شعرى ليس فى حاجة إلى تمشيط . . .

– أعرف ذلك . . .

واستمرت فى التمشيط ، وقلت :

– إذن لماذا تستمرين فيه ؟

– لأنى أريد ذلك . . .

– ماذا تعنين بهذا القول ؟

وضحكت ثانية ، وحاولت النهوض من مكانى ، ولكنها أمسكت بذراعى وأرغمتنى على الجلوس ، وقالت :

– إن شعرك جميل . . . !

– إنه شعر زنجى عادى . . .

– إنه شعر جميل . . .

– ولكن لماذا تواصلين تمشيطه . . .

– لأنى أحبك . . .

ـ وهل هذه طريقتك لتقولى لى هذا ؟

ـ إنها عادة متبعة وأنت تعرفها ، حينما تعجب فتاة بفتى فإنها تفعل ذلك . . .

ـ إنك ما زلت صغيرة ، فامنحى نفسك فرصة . . .

ـ ألا تحبنى ؟

ـ بل أحبك ، إننا أصدقاء . . . !

ـ لا أريد أن أكون مجرد صديقتك . . .

وذعرت من هذه البساطة ، فلم يسبق لى أن قابلت فتاة مثلها ، كل الفتيات ، اللاتى قابلتهن كن معقدات قاسيات ، وخاصة اللاتى تعرفت بهن فى الفندق . وظللنا صامتين برهة ، وأخيراً سألتنى :

ـ ما كل هذه الكتب الموجودة بغرفتك ؟

ـ هل دخلت غرفتى . . . ؟

ـ بالطبع وفتشت حقيبتك . .

ماذا أفعل بفتاة كهذه ؟ هل أنا المجنون أو هى ؟ وأحسست أن باستطاعتى مغازلتها دون صعوبة ، وكان الإغراء شديداً ، ولكن ماذا يحدث لو فعلت ؟ إن الحب لا يصيبنى بهذه السهولة ، ثم إنها تتحدث عن الزواج ، وهل أستطيع أنا أن أحدثها عن آمالى . . . وهل ستفهمها ؟ مثل هذه المشاكل لا تهمها . وأنا لا أحبها ولا أريد الزواج منها . . . ولا يغرينى ثمن المنزل الذى تملكه أمها . ولكنى مع ذلك جلست بجوارها

وأنا أحس بها ، وبجسمها بالقرب منى . . . ولكنى كنت أخاف العواقب، ويبدو أنها هى كانت لا تخافها، بل لعلها تريدنى أن أغازلها . إن الحياة بين عائلتى كانت دائمًا جافة ، لا يعبر فيها الواحد منا عن إحساساته ، إلا فى حالات الغضب والخوف ، ولذا فقد أعمانى الضوء الذى يشع من قلب هذه الطفلة فقد كانت بحق طفلة . . .

واقتربت منى وقبلتنى ، وقبلتها ، وأحاطتنى بذراعيها بقوة ، وأخذت أعجب من أمرها وسألتها هامسًا :

— ماذا ستقول أمك ؟

— إنها نائمة .

— ولكنها قد تستيقظ وترانا . . .

— لا يهمنى . . .

إنها مجنونة بلا شك . وقلت :

— فلندخل غرفتى . . .

— كلا ، لن ترضى أمى عن ذلك .

غريب هذا ، أمها ترضى عن بقائنا هنا فى الصالة ولا ترضى عن دخول ابنتها إلى غرفتى . . . وقالت هى :

— أمى نائمة .

وبدأت أشك فى سلوك هذه الفتاة وسألتنى هامسة :

— أتحبنى . . . !

ونظرت إليها . . . هذه الفتاة لا يهمها معنى ما تقول من الكلمات. وأمسكت بيدى ونظرت إليها أنا دون أن أحس بوجودها . . . وقالت :

– أنا مغرمة بك !

– لا تقولى هذا . . .

– ولكنى أحبك . . . !

وقالت هذا بصوت واضح ، جعلنى لا أستطيع أن أتجاهلها بعد ذلك . . . إن هذه الفتاة بسيطة وحقيقية . وأخذت أقارن بينها وبين خالتى (آرى) ووجها الصارم وحذرها وصراعها لتبقى نقية متدينة ، وقالت هى :

– سأكون زوجة صالحة . . . !

وأبعدت يدى عن يدها ونظرت إليها ، وتملكنى شعور بالرغبة فى صفعها أو فى الضحك بصوت عال . ونهضت واقفاً وأخذت هى تبكى ، وهمست :

– اسمعى ، إنك لا تعرفيننى ، فلنتعرف على بعضنا أولاً . . .

ونظرت إلى بعينين فارغتين ، وقالت :

– إنك تحتقرنى . . . !

ومددت يدى إليها ، ولكنها قفزت واقفة ، وصاحت :

– إننى أكرهك . . . !

وأسرعت خارجة من الغرفة . . .

وأشعلت سيجارة وجلست أفكر . لم أتصور أن هناك شخصاً سيقبلنى بهذه السهولة ، دون سؤال أو تحر . يبدو أنى لم أفكر فى وجود أناس آخرين غير الذين اعتدت معاشرتهم فى مجتمعى . وبدأت أفكر . . . لو كنت قد قابلت (بيس) فى إحدى مزارع الميسيسيبى لما استغربت ما يبدر منها . وودت لو أنى ذهبت إليها وحادثتها . ولكن لم أفعل .

وفى الصباح استيقظت وآمال (بيس) الساذجة تملأ ذهنى . وأخذت أستعد لتناول إفطارى من المشتريات التى أحضرتها بالأمس ، فلم أود أن أواجهها على مائدة الإفطار . وارتديت ملابسى استعداداً للخروج . وجلست على السرير وتناولت إفطارى ، ثم تسللت من المنزل وذهبت إلى الميناء ، وجلست أرقب السفن التى تمر فى نهر الميسيسيبى . الليلة سأبدأ العمل وأقبض ما يكفينى من النقود ، فقد اعتدت الحرمان . وشعرت بالحرية والانطلاق .

وتقدم منى ولد زنجى وحيانى وسألنى عما أفعل هذه الأيام . . .

وقلت له إننى سأبدأ العمل الليلة فى أحد المقاهى ، وقال هو :

ـ حسناً ، إننى أبحث عن زميل ، لأنى أريد أن أركب السفينة المتجهة شمالا ، وقلت له :

ـ ولماذا تريد زميلا ؟

فابتسم بعصبية ولم يرد ، وسألته :

ـ هل أنت هارب من منزلك ؟

– نعم منذ أربعة أعوام . . .

– وماذا كنت تفعل طوال هذه الأعوام .

لا شيء . . .

وكان يجب أن يكون فى قوله هذا تحذير لى ، ولكنى كنت لا أزال ساذجاً فى أمور الحياة وتحادثنا بعض الوقت ، ثم أخذنا نسير على الشاطئ وفجأة توقف وأشار بيده . . .

– ما هذا ؟

ونظرت إلى حيث يشير ؛ فرأيت صفيحة ضخمة تحجبها الأعشاب وقلت :

– هذه صفيحة . . .

واقتربنا منها ، ووجدناها مليئة بشيء ثقيل ، وأزحت غطاءها وشممت رائحة ما بها ، وقلت :

– إن له رائحة الخمر . . .

وقرب الولد أنفه منها ، واتسعت عيناه ، وسألنى :

– هل نستطيع أن نبيعها . . . ؟

– ولكنها لا بد ملك لأحد .

– آه لو تمكنا من بيعها !

– لعل أحداً يراقبنا . . . !

ونظرنا حولنا فلم نر أحداً ، وقلت :

– لا بد أنها ملك لأحد المهربين . . .

– دعنا نبيعها . . .

– لن أرفعها فقد يرانا رجال البوليس . . .

– إنى بحاجة إلى نقود ، وستساعدنا هذه الصفيحة . . .

واستقر عزمنا على أن نبيعها لأحد البيض وسرنا نبحث عن مشتر ، وأخيراً وجدنا رجلا يجلس وحيداً فى سيارة وتقدمنا نحوه ، وقال الولد :

– لقد عثرنا على صفيحة مليئة بالخمر ، فهل تريد شراءها ؟

وأجاب الرجل :

– لعلكم تكذبون أيها الزنوج ، هل ما بها من الخمر صالح ؟

– تعال معنا وشاهد بنفسك . . .

وسار معنا حيث توجد الصفيحة ، وأزاح الغطاء ، ثم ذاق ما بها وصاح :

– يا إلهى ! ، هل صحيح وجدتماها هنا . . . ؟

– نعم يا سيدى . . .

– إذا كنتما تكذبان فسأقتلكما . . .

– إننا نقول الحقيقة .

ووقف الولد صامتاً وعجبت من صمته ، وقال الرجل :

– أحضرا الصفيحة إلى السيارة . . .

وانتابنى الخوف ، ولكن الولد الآخر كان جريئاً ، ولذا فقد جررنا

الصفيحة إلى السيارة ووضعناها فى « الشنطة » الخلفية . . . وقال الرجل الأبيض وهو يمد يده بورقة من فئة الخمسة دولارات :

– خذا هذه . . . !

وقاد سيارته ورأيته وهو يلتفت يمنة ويسرة كمن يخاف من فخ نصب له ، وقال الولد . . .

– فلنقتسم النقود ، سأذهب وأفك الورقة من هذا الدكان . . .

وجلست أنتظر ، واتجه هو ناحية المحل . وجلست أحسب نصيبى من هذه العملية . . . دولاران ونصف الدولار سآخذها دون أن أقوم بأى عمل . غريب هذا ! ! . . . فى الليلة الماضية عرضت إحدى الفتيات نفسها علىّ ، وهذه الليلة أحصل على دولارين ونصف دولار دون عمل ، كل هذا حدث ولم ينقض على مغادرتى منزلى ثمان وأربعون ساعة ! وانتابتنى رغبة فى الضحك بصوت عال . وأخذت أنتظر عودة زميلى ولكنه لم يعد ، لا بد أنه سيعود ، وحاولت أن أبعد الفكرة ، فكرة هربه عن خاطرى ، وطال انتظارى ، ولكنه لم يعد . ونهضت وذهبت إلى المحل ونظرت داخله ولكنى لم أر زميلى ، ودخلت وسألت صاحب المحل عنه ، فقال إن ولداً زنجياً دخل المحل وأدار نظره فيه ، ثم خرج من الباب الخلفى . . .

وخرجت إلى الشارع أفكر ، لم يكن يحق لى أن أتدخل فى مثل

هذه العمليات ، لا بد أن الولد والرجل الأبيض زميلان استغلا سذاجتى لترويج بضاعتهم . . . حقيقة أنى أبله وساذج ، ولا أقلّ سذاجة عن فتاة الأمس . . .

الفصل الثانى عشر

وفى يوم من الأيام بينما كنت أتجول فى شوارع ممفيس خطرت لى فكرة ، لقد كنت على وشك العمل فى أحد محال النظارات الطبية فى جاكسون ، فلماذا لا أحاول العمل فى مثل هذه الشركة هنا ، وخاصة أن ممفيس مدينة أكبر من جاكسون . . .

وأخذت أبحث عن عناوين شركات النظارات الطبية فى دفتر التليفونات ، ولما عثرت على عنوان واحدة توجهت إليها ودخلتها وتوجهت إلى المصعد ، وخرجت فى الدور الخامس . وقام رجل أبيض لمقابلتى ، وقال :

– اخلع قبعتك . . . !

– حسناً يا سيدى .

– ماذا تريد . . . ؟

– إننى أبحث عن عمل ، لقد عملت فترة قصيرة مع إحدى شركات النظارات الطبية فى جاكسون .

– ولماذا تركتها ؟

– حدث أمر ما .

– هل سرقت شيئاً . . . ؟

– كلا يا سيدى ، إن أحد الرجال البيض هناك رفض أن يدربنى على مهنة النظارات .

– تعال هنا واجلس . . .

وجلست ورويت له ما حدث لى فى جاكسون من البداية حتى النهاية وقال :

– سأكتب إلى مستر كرين ، ولكن لا تأمل أن تتعلم المهنة هنا ، فهذه ليست سياستنا .

وأبلغته أنى أوافق على ذلك وأتقبل سياسته ، وأعطانى عملاً أجره ثمانية دولارات فى الأسبوع ، ووعدنى بعلاوة قدرها دولار فى الأسبوع حتى أصل إلى عشرة دولارات فى الأسبوع ، ورغم أن هذا الأجر كان أقل من الأجر الذى أتقاضاه فى المقهى إلا أننى قبلته فقد أعجبتنى طريقة الرجل الصريحة المباشرة .

وكانت مهمتى أن أقوم ببعض الزيارات إلى العملاء وأغسل النظارات بعد أن تنتهى منها الآلات ، وأتوجه كل ليلة إلى مكتب البريد لإرسال الرسائل . وكان العمل غير مرهق ، وكنت أتنازل عن غدائى فى فترة الظهيرة ، لأقوم ببعض المهام التى يرسلنى فيها الرجال البيض الذين يعملون فى المحل . وكنت أشترى لهم غداءهم وأذهب ببذلاتهم إلى الكواء ، وأدفع لهم فواتير التليفون والكهرباء ، أو أحمل مذكراتهم إلى السكرتيرات وخطاباتهم إلى صديقاتهم من البنات . وتمكنت ، فى اليوم الأول من عملى ،

أن أحصل على بقشيش قيمته دولار ونصف . واقتصدت المال الذى تبقى لى ، وقررت أن أعيش بما أحصل عليه من بقشيش .

وأصبحت الآن أعيش مع البيض بيسر وسهولة ، وكان أهل ممفيس من الناس الذين يتمتعون بصفات أهل المدينة ، وكانت هذه الصفات تقلل من حدة العلاقات بين البيض والزنوج . وكان بالمحل الذى أعمل به نحو « دستة » من البيض ، وكانوا بين أعضاء فى جماعة الكوكلاكس واليهود ، ما بين صوفى ورجل عادى . ورغم أنى كنت ألمس التحقير والكراهية فى مسلكهم تجاهى ، إلا أنهم لم يعنفونى أو يؤذونى ، ولذا بدأت أنظر إلى البيض بشىء من الحياد . ويبدو أننى تمكنت من السيطرة أخيراً على شعورى العنيف . . .

ولما عدت إلى منزل مسز موسى بالليل أبدت دهشتها لأنى غيرت من خططى وقبلت هذا العمل الجديد . وأخبرتها عن رغبتى فى أن أقتصد بعض المال لأحضر أمى إلى ممفيس . وحاولت خلال حديثى معها أن أستشف ما إذا كانت (بيس) قد حدثتها عما دار بيننا ولكن مسز موسى كانت كعادتها عطوفاً وكلها أمومة . . .

أما (بيس) فقد تجنبتنى ورفضت أن تحادثنى إذا ما وجدنا وحدنا ، ولكنها كانت مهذبة فى حضور أمها . وبعد بضعة أيام جاءت إلى مسز موسى وفى عينيها نظرة دهشة وسألتنى :

— ماذا حدث بينك وبين (بيس) .

– لا شيء .

– لا يبدو عليها أنها تحبك ، لقد كانت رغبتى أن يسود الوفاق والوئام بينكما ، ألم تعد تحبها أنت الآخر . . . ؟

ولم أجد إجابة عن سؤالها هذا ، وأخذت أشك فى أنها هى التى أوعزت إلى (بيس) أن تتصرف معى كما تصرفت واستطردت مسز موسى ، قائلة :

– يبدو أن الحب أمر لا يمكن أن يخلقه الإنسان ، ستجد (بيس) شخصاً آخر ، وتدفقت الدموع من عينيها بغزارة . وشعرت بالألم لسذاجة هذه المرأة ، فقد أبلغتنى مراراً وتكراراً أن ابنتها تحبنى وترغبنى ، بل لقد لمحت بأن لا مانع لديها لو جربت علاقتى مع ابنتها ، وشعرت بالأسى لهذه المرأة .

وأخيراً أصبح الأمر غير محتمل . وفى إحدى الليالى وجدت مسز موسى جالسة بجوار المدفأة فى الصالة ، ورفعت رأسها وابتسمت لى وسألتنى :

– كيف حالك ؟

– لا بأس .

– ألن تعود الصداقة بينك وبين (بيس) ؟

– كلا يا سيدتى . . .

– لماذا لا تحبها ؟

– لا أدرى . . . !

– ألأنها غبية ؟

– لا أدرى ، وهى ليست غبية . . .

– إذن لماذا ؟ إنك ستملك هذا المنزل أنت وهى ، وتربيان أطفالكما فيه . . . ! !

– ولكن يجب أن يتلاقى الناس قبل كل هذا ، وأعتقد أن من الأوفق لى يا مسز موسى أن أغادر هذا المكان . . .

– غادرنا إذن ، أنت لا عقل لك . . . ! !

وذهبت إلى غرفتى وأخذت أحزم حاجياتى . وسمعت طرقًا على الباب وفتحت لأجد مسز موسى جاءت تعتذر ، وتقول إنها لم تقصد جرح إحساسى وإنى بمثابة الابن لها ، وأجبتها بأن الأمر انتهى ، ولكن لا بد لى من ترك البيت . . . وأخذت تتوسل إلىّ للبقاء ، وظهرت (بيس) عند الباب ورجتنى ألا أذهب ، ووعدتنى مسز موسى بأنها ستتركنى لحالى ورضخت ، وغادرت المرأتان الغرفة .

وأخذت أركز اهتمامى فى جمع المال الذى يمكننى من إحضار أمى وأخى إلى ممفيس ، واقتصدت كل سنت حصلت عليه ، وحرمت نفسى من أنواع الطعام الغالية ، وكنت أقطع المسافة إلى العمل سيراً على الأقدام ، ولا أتناول سوى كوب واحد من اللبن وساندويتشًا فى الغداء ، وكنت معتاداً على الجوع ولم أكن بحاجة إلى كثير من الطعام للبقاء . . .

وتجمع لى مبلغ من المال وبدأت أشترى بعض الكتب القديمة والمجلات، وبهذه الطريقة تعرفت على مجلة « هاربر» ومجلة « إتلانتيك » ومجلة « أميركان ميركيورى» وكنت أشتريها ببضعة سنتات ، ثم أبيعها ثانية بعد قراءتها .

وفى ذات مرة سألتنى مسز موسى عن قراءاتى .

— لماذا تقرأ كل هذا يا بنى ؟

— لأنى أحب القراءة . . .

— هل تدرس القانون ؟

— كلا يا سيدتى .

وكان ميعاد بدء عملى فى التاسعة صباحًا، ولكنى كنت أذهب فى الثامنة ، وأجلس مع البواب الزنجى وأقرأ صحيفة « كوميسرشال أبيل » التى تصدر فى ممفيس ، ثم أجلس أراقب البواب يكنس ويمسح ويغنى ، وهو يعمل حتى يسيل منه العرق، وكان دائم التذمر من عمله، ولا يفتأ يتحدث عن أمله فى أن يتركه ، ليعمل فى مصلحة البريد .

وكان معى بالعمل ولد زنجى يدعى (شورتى)، يعمل فى المصعد ، قصير القامة ذو عينين صغيرتين ووجه مكتنز، ولم يكن يبدو كزنجى، بل كان أقرب إلى الصينيين منه إلى الزنوج ، وكان أغرب من قابلت من زنوج الجنوب . فقد كان عاقلا قارئاً ، وذا كبرياء واعتزاز بين جنسه ،

ولا يقبل الإساءات التى توجه إليهم . ولكنه فى حضرة البيض كان يمثل دور المهرج .

وفى أحد الأيام احتاج إلى خمسة وعشرين سنتاً ليشترى بها طعاماً ، وقال لى :

ـ راقبنى وأنا أحصل على هذا المبلغ من أول رجل أبيض .

ودخل المصعد أحد البيض الذين يعملون فى المبنى وأخذ (شورتى) يغنى ويبتسم ويدور بعينيه ، وينظر إلى الرجل الأبيض ويقول :

ـ إننى جائع يا مستر (أبيض) وأحتاج إلى ربع دولار . . .

وتجاهله الرجل الأبيض ، وواصل (شورتى) الغناء ، وقال :

ـ لن أصعد بك إلا إذا أعطيتنى ربع دولار يا مستر (أبيض) .

وتجاهله ثانية واستمر يدخن سيجارة ويقول :

ـ عليك اللعنة يا شورتى .

وواصل شورتى الغناء وطلب النقود . . .

وابتسم الرجل الأبيض وهدده قائلا :

ـ إذا لم تصعد بى فستموت . . .

وواصل (شورتى) الغناء يقول :

ـ ولكن هذا الزنجى اللعين يريد ربع دولار .

وبدا على الرجل الأبيض أنه يرتاح لما يقوله (شورتى)، ويطلب منه

أن يصعد به ، ولكن شورتى أصر على موقفه . وأخيراً قال للرجل الأبيض :

ـ سأفعل كل ما تطلبه منى إذا أعطيتنى ربع دولار . . .

ـ ماذا مثلا ؟

ـ تستطيع أن تضربنى مثلا . . .

وضحك الرجل ، ثم دس يده فى جيبه وأخرج قطعة نقود ورمى بها على الأرض .

وانحنى (شورتى) ليلتقطها ورفع الرجل (الأبيض) رجله وهو يبتسم وركله فى ظهره بكل قوته . وصرخ (شورتى) ضاحكاً وصعد به إلى مكان عمله . وفتح له الباب وقال :

ـ لقد حصل القرد على الفول السودانى . . .

وراقبت هذا المنظر دون أن أشعر بغضب أو كراهية ، كل ما شعرت به كان الاحتقار ، وفى مرة سألت شورتى :

ـ كيف تستطيع أن تفعل هذا . . . ؟

ـ لقد كنت بحاجة إلى نقود وحصلت عليها .

ـ ولكن النقود لن تعوضك عما حدث لك .

ـ اسمع يا هذا إن ظهرى قوى ويتحمل ، والنقود نادرة . . .

ولم أفتح الموضوع معه بعد ذلك .

وكان بالمبنى كثير من الزنوج ، من بينهم رجل عجوز يدعى

(أديسون) وله ابن يدعى (جون)، وكان به أيضاً حارس يدعى (ديف) . وكنت أجلس معهم فى فترة الظهيرة فى غرفة خاصة بالبواب تطل على الشارع ، نتناول جميعاً غداءنا ونتحدث عن البيض وسلوكهم مع الزنوج . وكان هذا الموضوع هو المحبب لدينا جميعاً . وكنا نكره البيض ونخافهم ، ولكن إذا ما ظهر أمامنا وجه أبيض بدا علينا الصمت وظهرت أمارات الطاعة والخنوع .

وكان البيض يكونون فى أذهاننا عالماً بعيداً متعالياً ، وكنا نستعيد كلماتهم ونزنها . ونتحدث عما يلبسون ، وعن تصرفاتهم معنا ومع بعضهم البعض ، ولكنا كنا جميعاً ندرك أن مكاننا ليس معهم . . .

وتحت كل هذه الأحاديث كان يسود عنصر العنف ، ويختبئ . وبرغم أن البيض رسموا لنا خطاً يجب ألا نتعداه، وبرغم أننا قبلنا هذا الوضع لأن قوتنا كان يعتمد عليه، إلا أننا بدورنا رسمنا خطاً أبيض خاصاً بنا، وقلنا لأنفسنا إن من حقنا الحياة برغم أنف التحقير والإهانات التى كنا نتحملها لنحافظ على حقنا فى هذه الحياة . وإذا أراد الرجل الأبيض أن يحرمنا من العمل ، أو من حقنا كمواطنين، كنا نرضخ لرغبته هذه ، ولكنه إذا حاول أن يسلبنا سنتاً واحداً من رزقنا كنا نريق الدماء . وكانت حياتنا اليومية لا تهتم إلا بهذه التفاهات، وكان غضبنا لا يزيد على غضب الأطفال إذا ما سلبتهم شيئاً . . .

وكان (جون) يقول مثلا :

– أتعلم ماذا حاول الشقى (أدلين) أن يفعله اليوم ؟

– ماذا ؟ !

– لقد أحضرت له ما تبقى من نقود بعد أن دفعت فاتورة الكهربا ، ثم قال ضعه هنا فى جيبى لأن يدى متسختان فوضعت النقود على المائدة لأنى لست عبداً له حتى أقوم بوضع نقوده فى جيبه . . .

– إنك على حق فيما فعلت . . .

ويقول أديسون العجوز :

– إن هؤلاء البيض لا عقول لهم . . .

ويعقب ديف :

– إن الشخص منا يجب ألا يكف عن مراقبتهم . . .

وأقول أنا :

– لقد بعث بى (فالك) إلى الكواء ببذلته ، ولم يعطنى بقشيشاً . . . يا لجرأته !

ويستطرد أديسون :

– ولكن يجب أن نخدمهم ، لأننا إذا رفضنا خدمتهم فسيكرهوننا .

ويقول شورتى :

– سأرحل إلى الشمال فى يوم من الأيام . . .

ونضحك لأننا نعلم تماماً أن (شورتى) لن يرحل أبداً، لأن اعتماده على البيض كان كلياً . . . وأسأله :

— وماذا ستفعل فى الشمال ؟

— سأقول لهم إنى صينى . . .

ونضحك ثانية ، وتمر ساعة الغداء ونعود للعمل ، وقد انمحت من على وجوهنا أبسط بادرة لما يعتلج فى نفوسنا من شعور .

وفى يوم من الأيام ذهبت ومعى زوج من النظارات لأسلمه لأحد المحلات التجارية . ووقفت أمام قسم النظارات وكان خالياً من الزبائن ، وقابلنى رجل أبيض كان يبدو عليه أنه من الشماليين وقلت له :

— أرجوك أن توقع بالاستلام يا سيدى .

وتناول النظارات ولكنه ظل يحدق فى ، وأخيراً قال :

— اسمع يا ولد أنا من الشمال . . .

وجمدت فى مكانى ، هل هذه خدعة . لقد كان ذكر الشمال محرماً علينا ، ولذا فلم أرد حتى أتأكد مما يعنى بقوله هذا . وكانت الموضوعات التى لا يحب الرجل الأبيض مناقشتها مع الزنجى الموضوعات التالية :

النساء البيض ، جماعة الكوكلاكس ، فرنسا وكيف حارب فيها الرجل الزنجى ، النساء الفرنسيات ، جاك جونسون ، الجزء الشمالى من الولايات المتحدة الأمريكية ، الحرب الأهلية ، أبراهام لنكولن ، جنرال شيرمان ، الكاثوليك ، البابا ، اليهود ، الحزب الجمهورى ، العبودية ، العدالة

الاجتماعية ، الشيوعية الاشتراكية ، البنود ١٣ ، ١٤ ، ١٥ من الدستور :
أى موضوع يتصل بكيان الزنجى .

أما الموضوعات المقبولة فكانت :

الجنس ، الدين .

ونظرت إلى الرجل صامتاً ، فقد فتح تحت قدمى حفرة ، ووقفت على حافتها ، واستطرد :

ـ لا تخف ، أنا أريد أن أسألك سؤالا واحداً . . .

ـ حسناً يا سيدى !

ـ قل لى يا ولد هل أنت جائع ؟

وحملقت فيه ، لقد نطق بكلمة لمست شغاف روحى ، ولكنى لا أستطيع محادثته ، لا أستطيع أن أخبره أنى أحرم نفسى من الطعام لأقتصد المال الذى يحملنى إلى الشمال ولم يتغير تعبير وجهى . وابتسمت قائلا :

ـ كلا يا سيدى . . .

لقد كنت جائعاً وكان هو يعلم هذا تماماً ، ولكنه رجل أبيض ، وإذا وثقت فيه وأخبرته بحقيقة شعورى فمعنى هذا أنى أقوم بعمل أخجل منه ، واستمر هو قائلا :

ـ إنى أستطيع أن أرى الجوع فى وجهك يا ولد . . .

ـ عندى ما يكفينى من الطعام . . .

– إذن لماذا أنت نحيف بهذا الشكل .

– لعلها طبيعتى . . .

– إنك خائف يا ولد . . .

– كلا يا سيدى .

وتجنبت النظر إليه ، ووددت لو أنى رحلت من أمامه ،ولكنى كنت خائفاً . إنه رجل أبيض ولا يجوز لى أن أتركه دون إذن منه . ودس يده فى جيبه وأخرج ورقة من فئة الدولار وقال :

– خذ هذا الدولار واشتر به شيئاً تأكله . . .

– كلا يا سيدى . . .

– لا تكن أحمق ، إنك خجول ، ولكن لا تدع الخجل يقف حائلا بينك وبين أن تأخذ هذا الدولار وتشترى به ما تأكله . . .

وأصبح من العسير على أن آخذ الدولار برغم رغبتى فيه ، وأردت أن أقول شيئاً ولكن لم أستطع فقد أخافنى . وقال :

– قل شيئاً . . .

ونظرت حولى إلى أكداس البضائع وإلى الزبائن البيض يتنقلون من قسم إلى آخر ونظرت إلى المروحة الكهربائية التى تتدلى من السقف . ووقفت أنتظر إشارة الرجل الأبيض لأغادر المكان . وقال :

– أنا لا أفهمك ، إلى أى صف درست فى المدرسة ؟

– إلى الصف التاسع ، أو فى الحقيقة إلى الصف الثامن لأن دراستنا

فى التاسع لم تكن فى الواقع سوى استعراض لما درسناه فى الثامن .

وساد صمت بيننا . والحقيقة أن هذا التفسير لم نكن بحاجة إليه ، ولكنى شعرت أنى أملأ به فراغًا ، أو لعلى كنت أحاول أن أبعد الحديث عن مواطن الخطر .

ويبدو أن الشمالى لم يفطن إلى مدى الخطورة فى حديثه .

والحقيقة أن الكلام مع الزنوج ، حتى فى أبسط الأمور ، أمر صعب لأن أبسط الحقائق هى التى تقرر المستقبل . والشخص يستطيع أن يعبر عن علاقته بالنجوم ، ولكن إذا كان كل وجدانه مركزاً على رغيف من الخبز فإن هذا الرغيف يبدو له بعيداً كالنجوم ذاتها :

ومر رجل أبيض ثان بنا وتنفست الصعداء ، وسألنى الرجل .

— هل تريد الدولار ؟

— كلا يا سيدى .

— حسنًا ، انسَ الموضوع كله .

ووقع بالاستلام ، وأخذ النظارات ، وأسرعت أنا أبتعد عنه ، وأنا واثق أنه يعلم مدى شعورى بالجوع والحرمان . ولكن حياتى كلها ، وتأمين مستقبلى فى الجنوب كانا يعتمدان اعتماداً كليًّا على إخفاء شعورى هذا .

وفى يوم آخر من أيام الصيف كنت أقف أغسل زوجًا من النظارات بعد الانتهاء من تلميعها فى الآلات التى كانت تحوط بى من كل جانب .

ويقف على كل آلة رجل أبيض . وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال نافذة على يسارى وكانت الساعة تقترب من الظهيرة، وكان الجوع يأخذ منى كل مأخذ ، فقد اقتربت ساعة الغداء ، وكان يوماً عادياً من أيام عملى وكنت أحس بالسلام يملؤنى بقدر ما يستطيع أن يملأ ولداً زنجياً يعيش فى الجنوب فى عالم الرجل الأبيض .

ويبدو أن الرقابة كانت تؤثر على الرجال البيض أيضاً ، فسرعان ما سمعت وقع أقدام خلفى وأدرت رأسى ورأيت رجلاً أبيض يقف بجوارى، وكان يدعى (أولين) ويعمل رئيساً مباشراً لى . ورأيته يبتسم وينظر إلى وأنا أنظف النظارات وسألنى :

— كيف الحال يا ولد ؟

— جميل جداً يا سيدى . . . !

وحاولت أن أبدو منشرحاً طبيعياً ، كما يفعل الزنوج فى حضرة البيض . وكنت قد تعلمت هذه الطريقة وأتقنتها تماماً . وخفت من أن يكون غير راض عن عملى .

واستمر يحوم حولى دون أن يتكلم . ماذا يريد يا ترى ؟ لم يكن معتاداً الوقوف بجانبى ومراقبتى . وأردت أن أبادله نظرة بنظرة ولكنى كنت خائفاً وأخيراً سألنى :

— هل تعتقد يا ريتشارد أنى صديقك .

وكان السؤال مفعماً بالخطر حتى إننى لم أرد عليه فى الحال . والواقع

أن معرفتى بمستر (أولين) كانت طفيفة جداً ، وكانت علاقاتى معه هى العلاقات التقليدية بين الزنجى ورئيس عمله الأبيض . والآن ها هو ذا دون سابق تحذير يسألنى إذا كنت أظنه صديقاً لى . وكنت أعلم أن الجنوبيين البيض يعتقدون أنهم أصدقاء الزنوج . وابتسمت لأعطى نفسى فرصة أجد فيها جواباً واستمر هو :

— أعنى ، هل تظننى صديقاً لك ؟

وأخيراً تمكنت من الرد :

— أتعشم ذلك يا سيدى .

— أنا صديق لك . . .

وواصلت العمل والخوف يتسرب إلى نفسى ، وقال :

— أريد أن أقول لك شيئاً . . .

— نعم يا سيدى . . .

— إننا لا نريد لك الشر ، إننا لا نعترض على وجودك معنا هنا ، لأنك ولد نشيط . . .

— نعم يا سيدى ، إذن ما الأمر . . . ؟

— أعتقد أنه من الأفضل ألا يحدث لك أى نوع من المشاكل . . .

— هل فعلت شيئاً ؟ هل يعترض أحد على . . . ؟

وأخذ ذهنى يزن كل تصرفاتى السابقة . وقال :

— الواقع أنا لا أفهم ، هل تعرف مستر (هاريس) .

ـ نعم يا سيدى أعرفه .

ـ إذن خذ حذرك منه .

ـ لماذا . . . ؟

ـ إنه يبغضك بغضًا شديداً ، ماذا فعلت له ؟ ! !

ونسيت النظارات فى يدى ، ونسيت كل شىء ، ولم يبق منى سوى عينين تحدقان فى وجه مستر (أولين) تحاولان إماطة اللثام عما يقول . والواقع أنى لم أكن أثق فى البيض ولا فى بعض الزنوج الذين يعملون عندهم ، لأنهم كانوا يتصورون أن ولاءهم ينحصر فى أسيادهم البيض ، ويبدو أن (هاريسون) كان واحداً منهم . هل تصور (هاريسون) أننى خطر عليه ؟ ومن منهم صديق ، الأبيض أم الزنجى ؟ وقلت :

ـ أنا لم أفعل شيئًا لهاريسون . . .

ـ من المستحسن أن تأخذ حذرك من هذا الزنجى . لقد رأيته منذ برهة يقف على الباب ينتظرك وبيده مدية ، وسألنى عن ميعاد انصرافك ، وقال إنه سيقتلك ، لأنك سببته . ونحن لا نريد شجاراً هنا . . .

وزاد شكى فى الرجل الأبيض ، ولكن لعل هاريسون أساء فهم شىء قلته أنا بحسن نية ، وقلت :

ـ يجب أن أحادثه .

ـ لا ، لا يستحسن ذلك ، بل من الأفضل أن تدع بعض الرجال البيض يحادثونه . . .

– ولكن كيف بدأت هذه المشكلة ؟

– إنه لم يقل سوى أنه ينوى الانتقام منك ، وإنه لابد أن يلقنك درساً لن تنساه . ولكن لا تقلق فسأقوم أنا بتسوية المسألة . . .

وربت على كتفى وعاد إلى عمله . وكان (أولين) أحد كبار موظفى الشركة ، وكنت دائماً أحترم رأيه ، لماذا إذن يريد أن يسخر منى ، إن البيض قلما يداعبون الزنوج ، إذن فكل ما قاله صحيح . وزاد قلقى . إننا نعمل ساعات طويلة لقاء بنسات معدودات ، ألا يكفى هذا ؟ لماذا يريد هذا المجنون الانتقام منى ؟ لا بد أن أسوى هذا الأمر . لقد دخل رجل أبيض حياتى وقلبها رأساً على عقب ، ولا بد من أن أحاول إصلاح الأمر ، سأذهب إلى (هاريسون) وأحادثه . إنه زنجى مثلى ، سأتجاهل تحذيرات الرجل الأبيض وأواجه زميلا لى من نفس لونى .

وفى فترة الظهيرة توجهت إلى حيث يجلس هاريسون ، ووجدته يتناول غداءه ويقرأ فى إحدى المجلات . ولما اقتربت منه مد يده إلى جيبه ونظر إلى ببرود ووقفت بجواره على بعد بضع أقدام وقلت :

– اسمع يا هاريسون إيه الحكاية ؟

ونظر إلى طويلا دون أن يرد ، واستطردت :

– أنا لم أفعل لك شيئاً .

– وأنا لا أحمل لك ضغينة ، لا أحمل لأحد ضغينة .

– ولكن مستر (أولين) أخبرنى أنك تبحث عنى ومعك سكين !

— أنا لم أدخل الشركة اليوم . . .

— إذن ماذا يعنى (أولين) بقوله هذا ؟

— الواقع أنى أنا الذى كنت أظن أنك تبحث عنى ،لأنه جاء إلى فى الصباح وأخبرنى أنك تنوى قتلى ، وقال إنك ثائر على لأنى سببتك . . .

— ولكنى لم أسبك .

— أنا لم أقل شيئاً كهذا .

ونظرنا إلى بعضنا البعض ، ووقفنا تجاه بعضنا ، ولدان زنجيان يعملان طوال الأسبوع لقاء دولارات عشرة ، وسألت :

— ولكن لماذا فعل (أولين) هذا ؟

وألقى هاريسون بالساندويتش وتلجلجت الكلمات ، وأخرج من جيبه مدية تلمع وقال :

— لقد كنت أنتظرك لأرى ماذا ستفعل ؟

وارتكزت على الحائط وأحسست بغثيان وأنا أنظر إلى المدية .

— هل كنت تنوى قتلى ؟

— إذا هاجمتنى فقد كنت أنوى الدفاع عن نفسى .

— هل أنت غاضب منى لسبب ما ؟

— كلا ، أبداً يا رجل . . .

وفهمت كل شىء . لو أنى تقدمت إلى هاريسون فجأة لظن أنى أنوى قتله ، ولهاجمنى وقتلنى . لا يهم هذا . زنجى يقتل زنجياً آخر ، وقلت له :

ـ اسمع لا تصدق ما يقوله لك (أولين) .

ـ نعم ، لقد فهمت الآن ، إنه كان يدبر لنا مكيدة . . .

ـ إنه يريدنا أن نتقاتل . . .

ـ ولماذا ؟

وهززت رأسى ، واستمر (هاريسون) يقلب السكين بين يديه . هل هو صادق فيما يقول ؟

هل سيهاجمنى بمجرد أن أدير ظهرى ؟ وقلت :

ـ إن البيض يلهون بمنظر الزنوج يتقاتلون . . .

ـ ولكنك كنت غاضباً ، وكان من الممكن أن تقتلنى . . .

ـ إننا بالنسبة لهم كلاب أو ديوك .

ـ أنا لا أريد قتلك .

ـ ولا أنا أريد قتلك .

وأخذنا نناقش المسألة ، وقررنا ألا نتكلم عنها ، بل نلزم الصمت التام ولن نفضح سرنا (لأولين) ، وقررنا أن نتجاهل أى دسائس فى المستقبل .

وفى الساعة الواحدة عدت إلى المصنع ووجدت (أولين) ينتظرنى وقد ارتسمت أمارات الجدية على وجهه وسألنى :

ـ هل قابلت الزنجى (هاريسون) ؟

ـ كلا يا سيدى .

– هل اشتريت مدية ؟

– كلا يا سيدى .

– هل تريد أن تستخدم مديتى ؟ لا بد أن تحمى نفسك . . .

– إنى لست خائفاً يا سيدى .

– إنك أحمق أيها الزنجى ، لقد ظننتك عاقلا ، هل ستدع هذا الزنجى يقتلك . لقد أعطاه رئيسه سكيناً ليهاجمك بها . خذ هذه السكين واستخدمها ولا تكن مغفلا أيها الزنجى . . . .

وخفت أن أواجه نظراته ، وأردت أن أطلب منه أن يتركنى لحالى ، لأنى كنت أعلم تماماً أنه يكذب ، وأنه ليس صديقاً لى ، وأنه سيسعد إذا ما شاهد أحداً يدس سكيناً فى صدرى . ولكنه رئيسى فى العمل ويستطيع فصلى فى لحظة إذا ما أحس بكراهية تجاهى . ووضع السكين أمامى وزادت مخاوفى . وأردت أن أمد يدى وأتناولها وأدسها فى صدره هو . وأخيراً تناولتها ووضعتها فى جيبى وقال :

– الآن أثبت لى أنك زنجى عاقل .

وأخذ يرقبنى وأنا أعمل . وأخيراً نادانى وقال :

– اسمع يا ولد، لقد طلبنا من (هاريسون) أن يبتعد عن هذا المبنى ، ويتركك لحال سبيلك . ولكنى لا أستطيع حمايتك خارج المبنى ؛ فإذا ما هاجمك فابدأ أنت بطعنه ، فاهم . . .

وتجنبت النظر إليه وبقيت صامتاً واستطرد :

ـ حسنًا أيها الزنجى ، ولكن لا تقل إنى لم أحذرك . . .

وتمكنت من الذهاب إلى هاريسون أثناء عملى ووجدته هو الآخر يريد محادثتى ، ولكن الخجل يمنعه ، وأبلغنى أن (أولين) قد تكلم تليفونيًّا وأشاع أننى أستعد لأقتله فى الساعة السادسة خلف المبنى . وزاد قلقنا وشكنا . لم يحدث بيننا شىء ، وكنا نعلم أن فكرة القتل قد غرست فى نفوسنا بواسطة البيض ، وحاولنا أن نتفق فيما بيننا على أن هذه حيلة أخرى من حيل البيض ولكن الشك كان يساور نفس كل واحد منا ، وقلت :

ـ إنى لست غاضبًا منك يا هاريسون . . .

ـ وأنا لا أريد قتالاً مع أحد . . .

ـ لماذا لا يتركوننا وشأننا ، إن هناك ملايين الزنوج مثلنا ، ولكن البيض لا يهمهم إذا فتكنا بعضنا ببعض ؟ !

ـ نعم ، أنا أعلم ذلك .

هل كان يدعى الصداقة ؟ لم أجد فى نفسى ثقة كاملة به . إن فكرة القتل لم تأت من داخلنا بل أوعز بها هؤلاء الذين يطعموننا ، والواقع أن ثقتنا بالرجل الأبيض كانت أكبر من ثقتنا ببعضنا البعض . ولكن تعطشنا إلى فهم بعضنا كان قائمًا . وتركت (هاريسون) وقد أقسمنا على ألا نتأثر بأقوال رؤسائنا من البيض . . .

وظلت عملية الإثارة نحو أسبوع . وكنا نخاف أن نقول للرجل

الأبيض إننا لا نصدق ما تقول ، لأن هذا معناه أنه كاذب ، ومعناه أننا سنخسر فى النهاية .

وبعد بضعة أيام جاء (أولين) ومعه جماعة من البيض وسألنى عما إذا كنت أريد تسوية نزاعى مع (هاريسون) ، واقترح أن تقوم بيننا مباراة فى الملاكمة . . .

وأخبرته أنى برغم عدم خوفى من (هاريسون) إلا أنى لا أريد أن ألاكمه ، كما أنى لا أتقن الملاكمة . وأحسست أنهم يفهموننى الآن ويدركون تمامًا أنى لا أصدقهم .

وعند مغادرتى المصنع هذه الليلة سمعت (هاريسون) يناديني وأسرع نحوى . هل سيهاجمنى ؟ وتراجعت قليلا كلما اقترب هو منى . وسألنى :

— هل عرضوا عليك الملاكمة . . . ؟

— نعم ولكنى لم أوافق . . .

إنهم يريدوننا أن نتلاكم خمس دورات لقاء خمسة دولارات . إن هذا مبلغ كبير أستطيع أن أشترى به بذلة . . .

— لا أريد قتالا .

— لن نؤذى بعضنا .

— ولكن ما الذى يرغمنا على أن نفعل هذا من أجل البيض !

— لنحصل على خمسة دولارات .

– لا أريدها إلى هذا الحد .

– إنك أحمق .

– أرجوك لا تغضب منى . . .

– لست غاضباً . . .

– إنى لست كلباً ولا ديكاً حتى أقوم بتسلية البيض بالقتال . . .

وأخذت أدقق النظر إليه . هل يريد قتالى حقاً ؟ وما السبب الحقيقى ؟ هل النقود هى السبب ، واقترب منى وتراجعت وقال :

– إنى بحاجة إلى النقود . . .

– لا فائدة .

وتركنى دون كلام ولكن الغضب كان بادياً عليه . لعله سيطعننى الآن لا بد أن أراقب هذا الأحمق . . .

واستمر البيض فى إثارتنا ، وكانوا يختلقون روايات عما قاله (هاريسون) وعما قلته أنا ، وتوتر الجو بينى وبين (هاريسون) برغم أننا كنا نبتسم كلما تقابلنا .

وفى إحدى الليالى نادانى ، وتوسل إلى أن أقاتله ولكنى رفضت رفضاً باتاً . . . ونظر إلى والغضب يملأ عينيه . وكان كل واحد منا يحتفظ بمدية فى جيبه ، وقال :

– أنا بحاجة إلى بذلة . . .

– ولكن البيض سيهزءون ويسخرون منا .

– ألا يفعلون هذا دائمًا ؟

وكان صادقًا فيما قال ولكنى كرهته ووددت لو أنى لطمته على فمه ، وسألنى :

– ما الذى سنخسره بهذا القتال ؟

– لا شىء .

– إذن فلنحصل على النقود .

– وهم الآن يدركون تمامًا أننا نفهم حيلتهم جيداً ، ولا يحترموننا .

– وماذا فى ذلك ؟ فلنحصل على النقود ، ألا تريد خمسة دولارات ؟

– بالطبع أريدها . . .

– إذن وافق . . .

– سأحس أنى كالحيوان . . .

– إننا لسنا سوى حيوانات بالنسبة لهم . . .

– هذا صحيح . . .

– فلنخدع الرجل الأبيض ، لن نؤذى بعضنا ، بل سندعى أننا نتقاتل . سنفهمهم أننا لسنا أغبياء إلى هذه الدرجه ، والمسألة لن تكون سوى بعض التمرينات الرياضية . هل أنت خائف ؟

– كلا .

– إذن دعنا نتلاكم .

– حسناً ، فلنتلاكم .

وكان (هاريسون) سعيداً بقرارى هذا ، أماأنا فقد أحسست بالبلاهة . لماذا ! لا أدرى . كنت غاضباً . . .

ولما سمع البيض أننا اتفقنا على الملاكمة كان حماسهم لا حد له . وعرض على واحد منهم أن يقوم بتدريبى على الملاكمة ، وكانوا يقولون لى إن (هاريسون) يأكل كثيراً من البصل ليقوى عضلاته . ومن (هاريسون) سمعت نفس الشىء ، وعرض على البيض أن يقوموا بشراء وجبات غذائى ، ولكنى رفضت . وأخذ الخجل يتسرب إلى نفسى ووددت لو أنى نقضت اتفاقى ، ولكنى كنت خائفاً من غضبهم .

وحدد يوم السبت للمعركة ، وكانت فى بدروم المبنى ، وجاء البيض وكان كل واحد منهم يضع قطعة من النقود فى قبعته ، ولم يسمح إلا للبيض بمشاهدة المباراة . وخلعنا ملابسنا ، وربطوا القفازات على يدى ونظرت إلى (هاريسون) ورأيته يرقبنى . هل سيحتفظ بوعده . وساورنى الشك .

وبدأت المباراة . وكانت معرفتنا بالملاكمة ضيئلة جداً وأخذ البيض يهتفون ويشجعوننا على ضرب بعضنا ، ويستخدمون ألفاظاً بذيئة لتشجيعنا . وبدأ الضرب وسرعان ما وجدت نفسى أنا و (هاريسون) نتقاتل ونتلاطم ونتضارب دون أن نعى . وتبخرت وعودنا . ويبدو أن الخجل مما فعلنا جعلنا ننسى كل شىء ، ويبدو أن كراهيتنا للبيض هى التى كانت

تدفعنا للضرب ونزفت دماؤنا ووقعنا على الأرض . وانتهت المباراة . . .

ولم أستطع أن أواجه (هاريسون) ، لقد كنت أكرهه وأكره نفسى . وأمسكت بالدولارات الخمسة فى يدى وتوجهت إلى منزلى . وأراد البيض أن ينظموا مباريات أخرى ولكننا رفضنا . وسمعت بعد ذلك عن مباريات أخرى كهذه ينظمها البيض بين الزنوج ، سمعتها من الرجال البيض الذين يعملون معى فى الشركة ، وكنت كلما سمعتها يملؤنى الخجل لما فعلت . لقد كان أمراً لا يمكن أن أغتفره لنفس .

الفصل الثالث عشر

وذات صباح توجهت إلى عملى مبكراً وأخذت أتجول فى الصالة الرئيسية للمبنى وأرقب البواب وهو يقوم بمسح الأرض . ووقفت بجانب حامل الصحف وتناولت صحيفة كوميرشال أبيل التى تصدر فى ممفيس؛ وأخذت أقرأ مقالا عن شخص يدعى (هـ . ل . مينكن) ، وكنت قد سمعت عنه إذ كان يعمل رئيس تحرير صحيفة (أميركان ميركيورى) . وهاجم المقال (مينكن) هجوماً عنيفاً وختم هجومه بجملة واحدة قال فيها : (مينكن) أحمق .

وعجبت لما فعله (مينكن) حتى يستحق كل هذه الشتائم ، ولم يكن قد سبق لى أن سمعت عن شخص فى الجنوب يتعرض للسب والشتم سوى الزنوج ، و (مينكن) هذا لم يكن زنجيًّا .

إذن ما هى يا ترى الآراء التى روجها (مينكن) حتى يتعرض لهذه الإهانات ، لا بد أنها آراء لا ترضى الجنوب . هل هناك إذن قوم آخرون غير الزنوج ينتقدون الجنوب ؟ كنت أعلم أن أهل الجنوب لا يحبون أهل الشمال البيض ، وخاصة بسبب ما دار بينهم فى الحرب الأهلية ، وبرغم أنى لم أكن أعرف (مينكن) هذا ، إلا أنى شعرت بالشفقة عليه . ألم يسبه « الجنوب » وهو نفس المكان الذى جعل منى « لا آدميًّا » !

كيف إذن أصل إلى حقيقة القصة ؟ وكان بالمدينة مكتبة عامة ، ولكن الزنوج كانوا ممنوعين من استعارة كتبها . وكنت قد دخلتها عدة مرات لأستعير كتباً للبيض . من منهم يا ترى سيقبل مساعدتى ؟ وكيف أستطيع أن أقرأ دون أن أثير غضب رؤسائى البيض ؟

لقد نجحت حتى الآن فى إخفاء أفكارى وشعورى ، ولكنى لن أستطيع إخفاء رغبتى فى القراءة إذا ما لجأت إلى واحد منهم . . .

وأخذت أعدد أسماء البيض الذين يعملون معى وأزن شخصياتهم ، ولكنى كنت لا أثق فى أحد منهم ، إلا واحداً يدعى (دون) وكان يهودياً ، ولكن ثقتى فيه كانت ضعيفة أيضاً ، فقد كنت أعلم أنه شخص قلق غير مستقر . ولكنه كان يعاملنى معاملة حيادية ، برغم أنها لم تفلح فى إخفاء احتقاره لى . وخفت أن أطلب منه المساعدة فى مسألة كهذه ، فقد تدفعه رغبته فى إظهار حماسته للبيض إلى خيانتى .

وفكرت فى رئيسى ولكنى ترددت ، فقد كان مسيحياً متعصباً ، وقد يعجب لرغبة ولد زنجى مثلى فى القراءة والتعرف على (مينكن) ، أما بقية البيض فقد كانوا جميعاً أعضاء فى جماعة الكوكلاكس ولا أمل منهم .

لم يبق أمامى سوى رجل واحد ، وكان كاثوليكياً إيرلندياً ، وقد سمعت كثيراً من البيض يصفونه بأنه « محب البابا » ، ولمست منهم كراهيتهم له ، وكنت أعلم أنه يقرأ كثيراً فقد أرسلنى عدة مرات إلى المكتبة . إذن بما أنه

هو الآخر محل كراهية فمن غير المحتمل أنه سيخونني . وترددت بعض الشيء . . . وأخذت أزن الأمور .

وفي صباح أحد الأيام وقفت أمام مكتبه وهمست :

ـ أريد منك معروفًا . . .

ـ ماذا . . . ؟

ـ أريد أن أقرأ ، ولا يمكنني الحصول على كتب من المكتبة العامة ، فهل تسمح لي باستخدام بطاقة عضويتك فيها ؟

ونظر إلى بارتياب وقال :

ـ إن البطاقة لا محل بها .

ـ حسنًا .

وانتظرت قليلا ، وقال هو :

ـ ماذا تريد يا ولد ؟ هل تريد أن تسبب لي المتاعب ؟

ـ كلا ، يا سيدي ، أبداً . . . !

ـ ما الكتاب الذي تريد قراءته ؟

ـ أريد قراءة أحد كتب (مينكن) . . .

ـ أيها ؟

ـ لا أعلم ، هل كتب أكثر من كتاب ؟

ـ بالطبع لقد كتب كثيراً من الكتب .

ـ لم أكن أعلم هذا .

ـ ولماذا تريد قراءة مؤلفات (مينكن) .

ـ لقد وقعت على اسمه فى إحدى الصحف . . .

ـ إن رغبتك فى القراءة لا اعتراض عليها ، ولكن يجب أن تقرأ الكتب اللائقة . . .

وصمت ، هل يريد السيطرة حتى على قراءاتى ، وقال :

ـ انتظر قد أجد حلاً آخر . . .

وأدرت وجهى استعداداً للانصراف ، ولكنه نادانى ونظر إلى فاحصاً .

ـ اسمع يا ريتشارد لاتخبر أحداً عما سأقوله لك . . .

ـ لن أنطق حرفاً واحداً .

وبعد بضعة أيام نادانى وقال :

ـ إن لزوجتى بطاقة عضوية ، وتستطيع أن تأخذ بطاقتى .

ـ شكراً يا سيدى . . .

ـ إذا شك فيك أحد فستجلب لنفسك كثيراً من المتاعب . . .

ـ لن أستخدم إلا اسمك عند الاستعارة . . .

وضحك وقال :

ـ دعنى أعلم بتطورات الموقف .

وفى نفس اليوم توجهت إلى المكتبة بعد أن أخذت أفكر فى أسماء الكتب التى ألفها (مينكن) ، وأخيراً خطرت لى فكرة وكتبت رسالة تقول :

« سيدتى . أرجوك أن تعطى هذا الولد الزنجى (محاولا أن أبعد الشك باستخدام هذه الكلمة) بعض مؤلفات (مينكن) . . . »

وزورت إمضاء صاحب البطاقة . . .

ودخلت المكتبة وأنا أرتعد ، برغم أنى دخلتها قبل ذلك مراراً . وخلعت قبعتى ووقفت بعيداً أمام أمينة المكتبة ، ونظرت هى إلى وقالت :

ـ ماذا تريد يا ولد ؟

وادعيت أنى لا أستطيع حتى الكلام وناولتها الرسالة وقرأتها . ثم سألت :

ـ أى مؤلفات مينكن يريد سيدك ؟

ـ لا أعلم يا سيدتى .

ـ من الذى أعطاك هذه البطاقة ؟

ـ مستر فالك . . .

ـ وأين هو ؟

ـ إنه يعمل فى شركة النظارات الطبية ، وقد سبق أن أتيت إلى هنا لاستعارة بعض الكتب له . . .

ـ آه أذكر ذلك ، ولكنه لم يسبق أن كتب رسالة كهذه . .

يا إلهى ! إنها تشك فى أمرى ، ولن تعطينى الكتب ، ولو أنها أدارت ظهرها فى هذه اللحظة لجريت هارباً ولم أعد ثانية . ولكن خطرت لى فجأة فكرة جريئة . . .

– تستطيعين أن تطلبيه فى التليفون وتسأليه يا سيدتى . . .

– إنك لن تقرأ أنت هذه الكتب ! .

– كلا يا سيدتى أنا لا أعرف القراءة .

– لماذا يريد قراءة (مينكن) ؟

وفهمت أنى ربحت الجولة وذهبت إلى الأرفف التى اصطفت عليها الكتب ، ونظرت إلى مرة أو مرتين من خلف كتفها ، كما لو كانت لا تزال تشك فى أمرى ، وأخيراً تناولت كتابين وتقدمت إلى :

– ها هما ذان كتابان من مؤلفات (مينكن) ، ولكن أخبر مستر فالك أن عليه أن يأتى بنفسه فى المرة القادمة ، أو يرسل أسماء الكتب التى يريدها ، فأنا لا يمكننى التكهن بما يريد قراءته .

ولم أجب وختمت هى البطاقة وخرجت مسرعًا من الكتبة . ولما ابتعدت قليلا من مبنى المكتبة وقفت وأخذت أقلب فى واحد من الكتب وقرأت عنوانًا يقول :

« كتاب مقدمات »

وبرغم أنى كنت قد قاربت التاسعة عشرة من عمرى فلم أفهم معنى كلمة « مقدمات » وأخذت أقلب صفحات الكتاب ، وطالعتنى جمل وكلمات غريبة عنى ، وخاب أملى ، وتصفحت الكتاب الثانى وكان اسمه « التحيز » ، وكنت أعلم معنى هذه الكلمة ؛ فقد رنت فى أذنى طيلة حياتى ، واختلطت بكل ذكرياتى عن الكراهية العنصرية ، وعجبت لماذا اختار

(مينكن) كلمة كهذه عنوانًا لكتابه . إن الرجل المتحيز مخطئ . . .

ولما عرضت الكتابين على مستر فالك تجهم وجهه ، وحذرته قائلا :

ـ إن أمينة المكتبة ستكلمك تليفونيًا . . .

ـ حسنًا ، ولكن عند ما تنتهى من قراءة هذين الكتابين أريد رأيك فيما قرأت . . .

وفى نفس الليلة حبست نفسى فى غرفتى وبدأت القراءة ، وأخذت الكتاب الأول وأذهلتنى روعة أسلوبه وأخذت أفكر فى (مينكن) . لا بد أنه رجل عظيم ملىء بالكراهية لكل ما هو أمريكى ، هازئ بالناس ومقدساتهم . ودهشت ... ماذا يعنى بكل هذا . هذا الرجل يستخدم قلمه سلاحًا ، هل يمكن أن تكون الكلمات سلاحًا ، بالطبع يمكن ، لأنها فى هذا الكتاب تقطع وتمزق كأمضى سلاح . لماذا لا أفعل مثله ، لماذا لا أستخدم الكلمات سلاحًا . ولكن هذا مخيف . وواصلت القراءة وأنا فى ذهول من شجاعته .

وكنت أرفع رأسى بين الفينة والفينة لأتأكد أنى وحيد . من هم هؤلاء الرجال الذين يتحدث عنهم (مينكن) ؟ من هو أناتول فرانس ، وجوزيف كونراد ، وسنكلير لويس ، وشيرود أندرسون ، ودستويفسكى ، وجورج مور ، وجوستاف فلوبير ، وموباسان ، وتولستوى ، وفرانك هاريس ، ومارك توين ، وتوماس هاردى ، وأرنولد بينيت ، وستيفن كرين ، ونوريس ، وجوركى ، وبرجسون ، وأبسن ، وبلزاك ، وبرناردشو ، ودوماس ، وبو ، وتوماس مان ، وأوهنرى ، ودرايسر ، وويلز ، وجوجول ، وإليوت ، وجيد ،

وبودلير ، وإدجار لى ماسترز ، وستندال ، وتورجينيف ، وهونيكر ، ونيتشه ، وعشرات غيرهم هل يوجدون حقيقة ، أم كانوا موجودين وماتوا ، وكيف أنطق أسماءهم .

وصادفتنى كلمات كثيرة لم أفهم معناها ، وكنت أبحث عنها فى القاموس أو أفهمها من سياق الكلام . ولكن ما هذا العالم الغريب . وانتهيت من الكتاب وقد أيقنت أن أمراً هامًّا قد فات حياتى . لقد حاولت الكتابة مرة ، وتركت العنان لمخيلتى الساذجة ، ولكن تجاربى المريرة قضت على هذه الرغبة . وأراها الآن تشتعل ثانية ، ويزداد تعطشى للكتب ، ولمشاهدة نواحى الحياة المختلفة . ولم تعد المسألة مجرد اقتناع أو عدم اقتناع بما أقرأ ، بل أصبحت رغبة فى دراسة الحياة بما فيها من تجارب مختلفة متعددة . . .

وطلع على الفجر وأنا أقرأ وتناولت إفطارى وذهبت إلى عملى والنعاس يكاد يغلبنى ، والكتاب بما حوى يعاودنى . وبدا لى أنى الآن قد سبرت غور الرجل الأبيض وأدركت مرماه وبغيته .

وواصلت تزوير الرسائل واستعارة الكتب . وأصبحت القراءة عندى عاطفة متأججة مشبوبة ، وبدأت أولا بقراءة قصة « سنكلير لويس » واسمها « الشارع الرئيسى » ، ومنها اكتشفت أن رئيسى فى العمل يمثل الرجل الأمريكى خير تمثيل ، وكنت أرقبه وهو يجر وراءه معدات لعبة الجولف إلى

المكتب. وأحسست أنى أفهمه أكثر من ذى قبل، ورأيت أفقه المحدود بعد أن قرأت قصة عن رجل خرافى يدعى «بابيت» ولم أهتم كثيراً بسرد القصة التى كنت أقرؤها ، بل انحصر اهتمامى فى وجهات النظر التى يعرضها الكتاب . وكنت كلما بدأت بقصة جعلت روحى تذوب فيها دون تحفظ ودون نقد. وأصبحت القراءة بالنسبة لى مخدراً يبقى أثره معى أياماً طويلة . وساورنى شعور بالإثم ، لأنى أيقنت أن البيض من حولى يعلمون ما يدور فى خاطرى، يعلمون أنى بدأت أتغير ، وبدأت نظرتى إليهم تتحول .

وكنت أجلب الكتاب معى إلى العمل بعد أن أخفيه داخل صحيفة . وقد ظلت هذه عادة لى حتى بعد ذلك بسنوات . وتمكن بعض البيض من استراق النظر إلى ما أحمل وسألونى :

ـ ماذا تقرأ يا ولد ؟ ، ولماذا اخترت هذه الكتب ؟

ـ لا أعلم يا سيدى ، مجرد رغبة . . .

ـ إنها كتب عميقة يا ولد . . .

ـ إنها تملأ وقت فراغى . . .

ـ ستتعب مخك بمثل هذه الكتب . . .

وقرأت قصتى « درايسر » : (جينى جيرهارد) و (الأخت كارى) ، ورأيت فيهما آلام أمى . وكنت أتوق إلى الكلام عما أقرأ مع أحد ما ، ولكننى لم أفعل . ما الفائدة ؟ هل أبلغهم أنى أقرأ الحياة وأعيشها فى هذه الكتب ؟ إن واقعية حياتى قد مهدت أمامى السبيل لتذوق كل ما جاء فى

هذه الكتب . ومهما قرأت فلن أكتفى .

واشتريت ورقًا وحاولت الكتابة ، ولكننى لم أفلح ، وأيقنت أنى بحاجة إلى ما هو أكثر من الرغبة والشعور لأكتب وتخليت عن هذه المحاولة . ولكن رغبتى فى التعرف على الناس والأشياء لم تمت . وكنت أقول إن حياتى فى الجنوب ، وسط التفرقة العنصرية الشديدة ، وجهلى بأمور الحياة ، سيقفان عقبة فى سبيل مقدرتى على الكتابة . وفهمت معنى كلمة زنجى ، فهمت أنها لا تقف عند الجوع والحرمان ، فقد احتملتهما ، واعتدت أن أعيش معهما ومع الكراهية . ولكن إحساسى أن كثيراً من مشاعر الحياة قد فاتنى ، كان يسبب لى ألمًا ما بعده ألم . وبدأت أحس بجوع من نوع آخر .

ولم أكلم مستر « فالك » عن قراءاتى ، فقد عاد إلى الشعور بالقلق ، وأصبحت عندى فكرة ثابتة ، وليست مجرد إحساس ، أن الحياة من حولى مليئة بالعداء ، وسألت نفسى ملايين المرات عن السبيل إلى إنقاذ روحى ولكنى لم أجد جوابًا ، فقد كنت يائسًا لا أمل لى فى الخلاص . وشعرت أن كلامى معه لن يجدى ، وحاولت أن أبدو مبتسمًا طبيعيًّا ، ولكن محاولاتى ذهبت أدراج الرياح فقد فطن البيض إلى حالتى ، وقال لى مستر (أولين) يومًا :

— ماذا بك يا ولد ؟ تبدو وكأنك سرقت شيئًا ؟ !

وضحكت بالطريقة التى يتوقعها ، ولكنى صممت على أن أكون أشد حذراً .

هل يا ترى إذا رحلت إلى الشمال أستطيع أن أقيم حياة جديدة . ولكن كيف يمكن إقامة حياة على أسس واهية ؟ ورغبات غير مفهومة ؟ كنت أريد أن أكتب ولكنى لم أكن أتقن اللغة الإنجليزية ذاتها . واشتريت بعض كتب قواعد اللغة ولكنى وجدتها مملة وفضلت أن أحصل على تعليمى مما أقرأ . وكنت أحلم بالليل بما قرأت . . .

وسألتنى مسز موسى فى أحد أيام الآحاد :

ـ ماذا تقرأ يا بنى ؟

ـ بعض الروايات .

ـ وماذا تستفيد منها ؟

ـ أملأ وقت فراغى .

ـ أنت أدرى بصالحك .

ولم أسمع عن زنجى واحد يحب الكتب التى أحبها ، وشككت فى أن هناك زنجيًا واحداً سمع بها أو فكر فيها . وكنت أعلم أن بعض الزنوج يعملون أطباء ومحامين وصحفيين ، ولكنى لم أقابل واحداً منهم ، وكانت حلقة أفكارى تضيق حولى وأتوقف فجأة عن القراءة بضعة أيام ثم أعود ثانية أكثر نهمًا وجشعًا . وأحمل بين جنباتى جرمًا وإثمًا كالذى يحمله القتلة والمجرمون . . .

وجاءت أمى ومعها أخى فى الشتاء للإقامة معى . واستأجرنا منزلا وأخذنا نؤثثه بالتقسيط . وانتظمت حياتى بعض الشىء . وحصل أخى على عمل وبدأنا معًا نقتصد لنرحل شمالا . ولم أخبر أحداً من البيض فى مقر عملى بنيتى هذه حتى لا يتغير سلوكهم معى ، اعتقاداً منهم أنى لا أحب الحياة فى الجنوب ، وهى الحياة التى يرسمون هم كل خطوطها ، ويسيطرون على مقدراتها ، وهذا يعنى تحديًا لهم ولرغباتهم .

وأخذت أستعيد حياتى فى الجنوب . باستطاعتى أن أنظم جماعات للمقاومة كما فعل جدى من قبلى ، ولكنى لن أربح ، فقد كان البيض أكثر عدداً بالنسبة للزنوج كما أن القوة بيدهم . إذن ثورة السود لن تجدى . أما إذا حاولت القتال والكفاح علانية فسينتهى هذا بموتى ، ولم أكن أريد الموت . وكنا نسمع كثيراً عن حوادث الشنق فى الجنوب .

إذن سأخضع وأحيا حياة العبيد . ولكن هذا غير ممكن . هل أتزوج (بيس) وأرث منزل والدتها . ولكن هذه ستكون حياة عبودية ، وسيكون معنى هذا أنى قبلت الخنوع . وسأحتقر نفسى ، بل وسيحتقرنى البيض أيضًا ، فهم لا يحترمون الخانعين . ولن أقبل أن أكون أضحوكة لهم كما يفعل شورتى . الموت عندى أهون من هذا . . .

وكان باستطاعتى أن أحول طاقة الكراهية بداخلى إلى الزنوج كما كان الكثير منهم يفعل . ولكن هذا يعنى برود المشاعر ولم أكن بارد المشاعر ، ولن أكون .

وكان باستطاعتى أن أنسى كل ما قرأت وأطرد البيض من ذهنى ، وأنساهم وأحول طاقاتى إلى الجنس أو الخمر . ولكن ذكرى أبى كانت تؤرقنى . وإذا كنت لا أريد الآخرين أن يسيئوا إلى حياتى ، فكيف أسمح لنفسى أن أسىء أنا إليها ؟ !

ولم يكن عندى أمل فى أن أصبح مهنيًّا محترفًا ، لا لأنى لا أحب مهنة ما ، ولكن لأن ظروفى وإمكانياتى لا تؤهلنى . فالزنوج المتوسطو الحال كانوا يعيشون بمعزل عنا وفى عالم بعيد عنا بُعد عالم البيض . . .

إذن ماذا أمامى ؟ كنت أحمل حياتى بين يدى ، وفى ذهنى ووجدانى كل يوم . . . وكنت أحس أنها ستقع من بين يدى يومًا ما ، وتتحطم وتتهشم إلى الأبد . لقد أبعدت قراءاتى الشقة بينى وبين العالم الذى أعيش فيه ، وكانت هذه الشقة تزيد مع الأيام . وأصبحت الأيام والليالى حلمًا طويلا مستمرًّا ، حلمًا من الرعب والقلق . وتساءلت إلى متى سأستطيع تحمل هذا الحلم الرهيب ؟

الفصل الرابع عشر

وجاءت خالتى (ماجى) لزيارتنا فى ممفيس ، وكانت زيارتها هذه عاملا حاسمًا لى فى سفرى إلى الشمال . وقالت خالتى (ماجى) إن زوجها قد هجرها فى ليلة من الليالى وغادر (أركانسو) ، وإنها تبحث عن عمل تعول به نفسها . وعقدت اجتماعات عديدة مكونة من أمى وخالتى (ماجى) وأخى وأنا ، نبحث فيها فرص العمل ، وإيجار المنازل فى شيكاجو . وكنا كل مرة نخرج من هذه الاجتماعات مهزومين ، فقد اكتشفنا أنه من المستحيل علينا أن نرحل جميعًا فلم تكن معنا النقود الكافية .

وأخيراً تغلبت الرغبة على العقل ، وقلنا إننا لو انتظرنا أكثر من هذا فلن نرحل أبداً ، ولن يتيسر لنا جمع المال اللازم لرحلتنا مهما حاولنا . ولذا فقد قررنا أن أسافر أنا وخالتى (ماجى) أولا ، ونعد مكانًا لأمى وأخى . وقررنا الرحيل فى الحال دون انتظار لأسبوع مقبل أو لشهر مقبل . . .

وواجهتنى مشكلة عملى . كيف أترك العمل دون شجار أو نقاش ؟ كيف أخبر رئيسى أنى أنوى الرحيل ؟ سأمثل دور الولد البرىء الذى تصحبه خالته ومعه أمه المشلولة إلى شيكاجو . . . قد يثير هذا عطفه لأنه سيعتقد أننى واقع تحت تأثير آخرين ولا إرادة لى ، وسأثبت أن

رحيلى لا سبب له غير رغبة عائلتى ، لأنى أعلم أن البيض لا يوافقون على رغبة الزنوج فى الهجرة إلى أماكن تخف فيها حدة التفرقة العنصرية .

وأخبرت زملائى ورئيسى بموعد سفرى قبل هذا الموعد بيومين اثنين فقط ،فلقد كنت أخاف لو أخبرتهم مبكراً عن ذلك لأوجدت فى نفوسهم عداء وكراهية ، وانبعج الرئيس فى مقعده المتحرك ، ونظر إلى نظرة طويلة فاحصة وقال :

ـ أتريد الذهاب إلى شيكاجو ؟ !

ـ نعم يا سيدى . . .

ـ لن تعجبك شيكاجو يا ولد . . .

ـ لا بد أن أصحب عائلتى يا سيدى .

ونظر الآخرون إلى دون كلام وأخذ الخوف يتسرب إلى نفسى وواصل هو كلامه :

ـ إن الجو بارد فى شيكاجو . . .

ـ نعم هكذا يقولون يا سيدى.

وضحك واستطرد :

ـ احذر من الوقوع فى البحيرة يا ولد .

ـ كلا يا سيدى .

وابتسمت . كأن هناك احتمالا لسقوطى فى بحيرة ميشجان .

وارتسمت على وجهه مظاهر الجدية ثانية وأطرقت برأسى وسألنى :

– هل تعتقد أن أحوالك ستتحسن هناك ؟

– لا أعلم يا سيدى . . .

– إنك كنت تتقدم هنا . . .

– نعم ، نعم يا سيدى ولكن أمى راحلة ولابد لى من مصاحبتها ، وكنت أكذب بكل حرارة أستطيعها ، وسألنى مقترحًا :

– لماذا لا تظل هنا وترسل لها نقوداً ؟

لقد أوقعنى فى فخ . لا يمكن أن أصرح للبيض أنى أريد الرحيل . ولم يعد لى بقاء هنا . وقلت :

– ولكنى أريد أن أكون معها . . .

– تريد أن تكون مع أمك ، حسنًا يا ريتشارد ، لقد سرنا أن تكون معنا .

– وأنا سررت بالعمل هنا .

وساد صمت . ووقفت والحيرة تملؤنى . وأخيراً تحركت تجاه الباب . وكانت الأعين كلها ترمقنى . وصعدت السلم . وسرعان ما سرى خبر رحيلى فى المبنى بأسره ، وجاء إلى كثير من البيض يقولون :

– إذن أنت راحل !

– نعم يا سيدى ، عائلتى راحلة وستأخذنى معها . . .

– إن الشمال ليس مكانًا صالحًا لكم . . .

– سأحاول أن أعيش فيه يا سيدى .

ـ لا تصدق كل ما تسمعه عن الجنوب . . .

ـ كلا يا سيدى أنا لا أصدق شيئًا .

ـ ستعود إلى هنا ، فهنا يوجد أصدقاؤك وأقرانك . . .

ـ لعلنى سأفعل ذلك يا سيدى . . .

ـ وماذا ستفعل فى الشمال ؟

ـ سأفعل ما أفعله هنا يا سيدى .

ـ هل ستخاطب الفتيات البيض هناك ؟

ـ كلا يا سيدى ، سأتصرف كما أفعل هنا تمامًا . . .

ـ كلا ، ستتغير ، إنكم معشر الزنوج تتغيرون إذا ما رحلتم إلى الشمال ، وأردت أن أخبره أن هذا هو السبب الرئيسى فى رغبتى فى الرحيل ، أن أتغير ، ولكنى قلت :

ـ سأظل كما أنا . . .

وأحسست أن كل هذا حلم . لم أكن أريد الكذب ، ولكن الكذب كان مفروضًا على أمام الرقيب الأبيض . وكان الحلم بمثابة الستار الذى يخفى الحقيقة ، كأن كذبى ستار الأمان لى . واستمر الرجل الأبيض :

ـ لقد كنت تقرأ كثيراً من الكتب يا ولد .

ـ كلا ، كلا يا سيدى .

وقمت بآخر عمل لى ، وذهبت إل دار البريد ، وأعددت حقيبتى

وغسلت يدى وأدرت بصرى فى المصنع ، وأعدت بطاقة المكتبة إلى مستر (فالك) وابتسم لى ابتسامة ذات مغزى ودخلت المصعد ووجدت (شورتى) الذى قال :

— ما أسعد حظك ! !

— لماذا تقول هذا ؟

— لقد ادخرت نقودك والآن سترحل .

— إن متاعبى تبدأ الآن .

— لن تكون لديك متاعب كالتى صادفتها هنا .

— آمل ذلك ولكن الحياة خطيرة .

— إنى أحس أحيانًا أنى أريد أن أقتل كل من حولى . . .

— تستطيع أن ترحل . . .

— لن أغادر الجنوب الملعون أبداً برغم أنى أردد كثيراً رغبتى فى الرحيل . إنى كسول متخاذل وسأموت هنا ، أو لعلهم سيقتلوننى .

وخرجت من المصعد إلى الشارع وأنا أتوقع أن ينادينى أحد ويقول لى إن كل هذا كان حلمًا وإنى لن أرحل . . .

كانت هذه هى العادات والتقاليد والثقافات التى نشأت فيها ، وكان هذا هو الرعب الذى هربت منه .

وفى اليوم التالى وأنا فى القطار الذى يحملنى إلى الشمال أخذت أفكر :

لماذا تركت موطنى ومكانى ، دون أى أسى أو حزن ؟ وحتى دون أن ألقى نظرة على ما تركت . . . إن وجه موطنى وبلدى كان وجهًا عدائيًّا ، ولكن هل كان من الممكن أن يكون غير هذا ؟ هل من الممكن أن يصبح الجنوب مكانًا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه ؟

وأحست نفسى الإحساس الذى ساورنى وأنا أهرب من مؤسسة الأيتام ، كنت أهرب من شىء ، ولا أصل إلى شىء ، ولكن هذا لا يهم ، كل رغبتى وشعورى أن أترك هذا المكان ، فلم يعد باستطاعتى البقاء فيه .

ولكن لماذا صاحبنى هذا الشعور طيلة حياتى ؟ لماذا صاحبتنى فكرة التغيير والإمكانيات والاحتمالات ؟ أنَّى لى من هذا الجنوب المظلم أن أحصل على فكرة الحرية هذه ، ولماذا كنت دائمًا واثقًا أن حياتى تعتمد على إحساساتى وأنها العنصر الذى يوجه هذه الحياة ؟ إن حياة البيض والسود ، وهى الحياة التى نشأت فى أحضانها لا يمكن أن تكون قد غرست فى الثقة بالنفس . إن كل من قابلته نصحنى بالخنوع والاستسلام ، لماذا لم أفعل ؟ وما الذى أبحث عنه ؟ ولماذا أظن أن شعورى أعلى بكثير من محيطى ومجتمعى ؟

كل هذا حصلت عليه من الكتب ، من ثغرات الثقافة البسيطة التى استطعت أن أنفذ من خلالها ، هى التى مكنتنى من البقاء حيًّا فى عالم يتسم بالسلبية . فكلما كانت حياتى تطبق على كنت أسرع إلى الكتب ، وأصبحت ثقتى بالكتب تنبثق من يأسى لا من عقيدة بأن الكتب لها فائدة .

لقد غلفتنى الحياة بغلاف لا عاطفة فيه ، فقد كنت أعيش على هامش الحياة فى الجنوب ، هامش الحياة العاطفية ، ووجدت أن تشبثى بالحياة هو الذى سيساعدنى على الحركة والتغيير والتنقل .

وكان أملى فى كل هذا أن أجد سلاحًا أدافع به عن كيانى ، فقد أيقنت أنى سأهلك ما لم أرحل ، سأهلك إما نتيجة لعنف الآخرين ، أو نتيجة لعنفى تجاه الآخرين . ولم تكن لى آمال ملموسة ، فلم أتعلم فى الجنوب ما يؤهلنى لمجابهة الحياة ، كل ما حصلت عليه هو أنى أصبحت هشًّا لا أتحمل الصدمات ولا أستطيع مواجهتها ، ولذا فقد قررت الهروب من هذا الجو حتى لا أقضى على نفسى .

وكانت قراءاتى لهذه القصص العديدة هى الدافع لى على أن أحس أن فى الحياة إمكانيات ، وبرغم أنى لم أقابل مؤلفى هذه الكتب ولم أتحدث إليهم ، وبرغم أن دنياهم التى يتكلمون عنها كانت بعيدة جدًّا عن دنياى ، إلا أن كلماتهم كانت سلاحًا لى أتغلب به على الشك . وكان معظم هؤلاء المؤلفين من أمثال درايسر وماسترز ومينكن وأندرسون من أكبر نقاد الحياة الأمريكية، وكانوا جميعًا يشعرون أن أمريكا تستطيع أن تغير من نفسها لتصبح قريبة إلى قلوب من يعيشون فيها . وكان كلامهم بمثابة النور الذى أضاء لى الطريق ،وفتح الأبواب أمام خيالى ، وكان دليلى فى تلمس طريقى نحو النور ، محاولا ألا أفقد الأمل ، وأن أخلق أسبابًا للحياة والعمل . . .

إن الجنوب الأبيض يزعم أنه يفهم الزنوج فهما تامًّا ، وأنا زنجى ، كما يسمونى ولكن الجنوب الأبيض لم يفهمنى أبداً ، لم يفهم ما يجول فى خاطرى من أفكار ولا فى قلبى من إحساسات . لقد قال الجنوب الأبيض إن لى مكانًا فى الحياة . ولكنى لم أحس أبداً بهذا ، أين هو هذا المكان ؟

أو لعل غرائزى لم تقبل هذا المكان الذى فرضه الأبيض على . لم أشعر أبداً أنى أقل من أى أحد آخر ، ولم تفلح الكلمات التى سمعتها طيلة حياتى من الرجل الأبيض فى الجنوب ، فى إقناعى بالشك فى قيمتى البشرية .

لقد كذبت وسرقت ، وربما لو سنحت لى الفرصة لقتلت أيضًا ، ولكن ، ألم تكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى رسمها لى الجنوب لأثبت وجودى وحقيقتى وكيانى ؟ ألم تكن الثورة والاعتداء والغضب هى عناصر الحياة عندى ؟

ولم يقتصر الأمر على أن البيض فى الجنوب لم يفهمونى ، ولكن الأهم من ذلك كله أننى أنا نفسى لم أحس بوجودى طوال إقامتى فى الجنوب . من أنا ؟ من أكون ؟ شخص فرضت عليه مجتمعات ، وفرضت عليه قوانين رسمها وخطط لها الرجل الأبيض . لم أكن نفسى إطلاقًا ، كنت شيئًا يحركه الرجل الأبيض . وأيقنت أن الجنوب يريد أنصاف رجال ، أشلاء رجال ، وبقايا شخصيات . أما ما تبقى ، وهو الأنبل

والأحسن والأعمق ، كل ما يتصل بالشعور والوجدان والقلب ، كل هذا قذفوا به بعيداً فى جهل وكراهية .

كنت أغادر الجنوب وألقى بنفسى إلى المجهول ، إلى مواقف جديدة قد تزيل بعض ما أعانى من إبهام وغموض . وإذا ما تعرفت على حياة جديدة فقد أفهم كنهى . . . قد أفهم من أنا ومن سأكون . إننى لا أغادر الجنوب لأنساه ، بل لأفهمه . . . لأفهم قسوته وما فعلت بى وبأبنائه . إنى أهرب من الجنوب حتى أشعر بالألم بعد سنوات ، بالألم الذى عانيته فيه وأفهمه . . .

ولكنى كنت أعلم فى قرارة نفسى أنى لن أغادر الجنوب ، فقد تكونت فيه أحاسيسى ، وغرست فيه ثقافة من أيامى المبكرة . وكنت أحمل بين جنباتى جزءاً منه ، وكان وجدانى الأسود مليئاً بثقافات الجنوب . إذاً فأنا أحمل معى جزءاً من الجنوب لأزرعه فى أرض غريبة ، وأرقب نموه ، فقد ينبت منه شىء يختلف إذا ما تغذى على ماء وغذاء آخر ، وتراقص فى ريح أخرى ، واهتز فى أشعة شمس أخرى . . .

لعل وعسى تحدث هذه المعجزة ، عندئذ سأعلم أن ثمة أملا فى مستنقع اليأس الجنوبى ، وسآمل أن ينبثق النور وسط ظلمات الجنوب الداهمة ، عندئذ سأوقن أن الجنوب يستطيع أن يصرع مخاوفه وكراهيته وجبنه وتراثه من الجرم والدم ، ويخلع عنه حملة القسوة والقلق .

وتوجهت بعينى المتقدتين وجروحى الظاهرة والمختفية إلى الشمال ، مليئًا بالثقة فى أن الإنسان يستطيع أن يحيا بكرامة وعزة محتفظًا بشخصيته دون تجريح أو تحقير ، وأنه يجب أن يقف وجهًا لوجه أمام زملائه البشر دون خوف أو عار ، وأن كفاح الإنسان فى سبيل حياته يكفى سببًا للحياة تحت النجوم .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الولد الأسود

هذا الكتاب يروى قصة حياة الكاتب الزنجى المعروف « ريتشارد رايت » فى ولايات الجنوب الأمريكية وما لاقاه فيها من اضطهاد البيض ، وكيف كافح هو وأسرته فى سبيل لقمة العيش والمأوى البسيط . ويقدم الكاتب تحليلا واقعيًّا دقيقاً لما يترسب فى نفسية طفل زنجى صغير من رواسب وعذاب نتيجة لتصرفات البيض فى هذه الولايات تجاه الزنوج ، مما يترتب عليه هجرته من مسقط رأسه .

والمعروف أن « ريتشارد رايت » هاجر من أمريكا كلها إلى فرنسا التى بقى فيها حتى توفى .

ويعتبر كتاب « الولد الأسود » من أشهر مؤلفاته العديدة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

مصريات

www.ibtesama.com